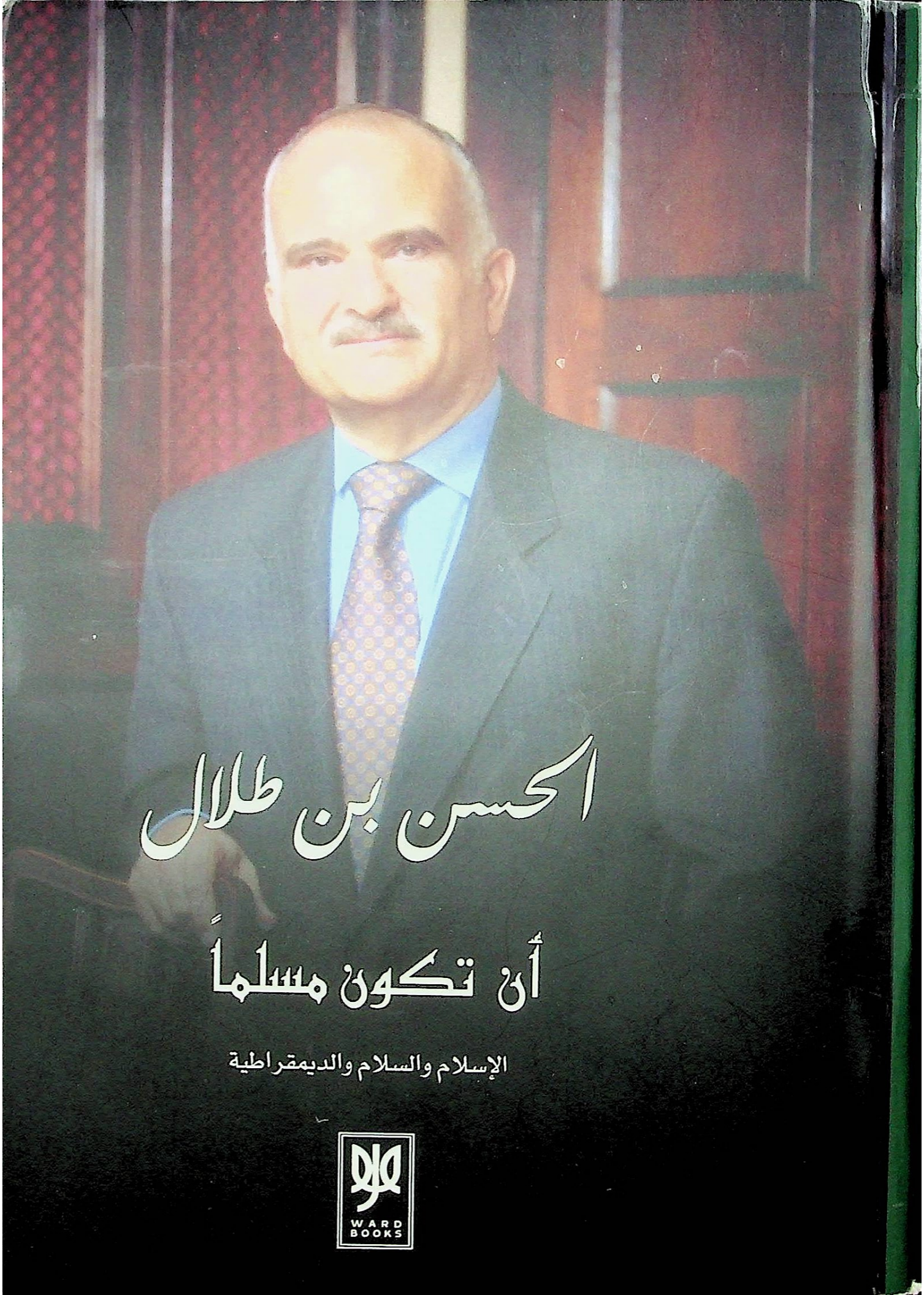

الحسن بن طلال

أن تكون مسلماً

الإسلام والسلام والديمقراطية

WARD BOOKS

أن تكونَ مُسلماً

الإسلام والسّلام والدّيمقراطيّة

- **أن تكونَ مُسلماً : الإسلام و السّلام والديمقراطيّة / فكر**
- **صاحب السمّو الملكيّ الأمير الحسن بن طلال**
- ترجمة: **فاطمة الجامعي الحبابي** / من المملكة المغربية
- **الطبعة الأولى** 2010
- **حقوق النشر والتوزيع محفوظة :**

دار وَرد الأردنيّة للنشر والتوزيع

P.O. Box 927651 Amman 11190 Jordan
Tel. +962 6 5606 263 - Fax +962 6 5606 263
E-mail : wardbookjo@yahoo.com
E-mail : info@wardbookjo@.com
www.wardbookjo.com

- الإشراف والمراجعة والتنسيق: **أ . د. هُمام غَصيب**
- أجرى المقابلات الصّحافيّة: **أ . ألان إلكن**
- التّحرير والتّدقيق اللّغويّ: **أ . عوّاد علي ؛ أ. جعفر العقيلي**
- تصميم الغلاف: **الفنّان غسّان أبو لبن**
- الصفّ والإخراج الفنّيّ : **أ.سمير اليوسف**

- رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية 4238 /9/2009
- ردمك ISBN 978 - 9957 - 455 - 01 - 8

هذا الكتابُ منشورٌ مستقلاً وجُزءاً من **الحسن بن طلال : الأعمال الفكريّة** / المجلد الثّاني

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبَق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced. stored in a retrieval system. or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the publisher.

الحسن بن طلال

أن تكونَ مُسلماً

الإسلام والسّلام والدّيمقراطيّة

ترجمة

فاطمة الجامعي الحبابي

تقديم

عبّاس الجراري

مستشار جلالة الملك محمدّ السّادس

الإهداء

إلى

تلاقي التّوأمين : المغرب والمشرق

وإلى

ذكرى القُطبين الكبيرين

الأستاذ الدكتور محمّد عزيز الحبابي

(١٩٢٢-١٩٩٣)

وسماحة الشيخ ابراهيم القطّان

أستاذي وسفير الأردنّ في المملكة المغربيّة (١٩٦٧ - ١٩٧٢)

رحمَهما الله رحمةً واسعة

الحسن بن طلال

عمّان ٢٠٠٠٩/٧/١

المحتوى

إهداء ١١

مقدمة : عباس الجراري ١٣

تصدير ١٧

القسم الأول: ٣٧

تصدير وتقديم الترجمتين الإنجليزية والفرنسية

تصدير الترجمة الإنجليزية: ديفيد ل. بورن

مقدمة الترجمة الإنجليزية: إيدوين جي كور وألان إلكن

تصدير الترجمة الفرنسية: ألان إلكن

القسم الثاني: ٥٥

أن تكون مسلماً: الإسلام في متناول الجميع

صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن بن طلال :

حاور سموه ألان إلكن

القسم الثالث: ١٠٧

مع صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن بن طلال في حديثه عن

الديمقراطية وتقاليد الآخرين ومنظومة قيم أخلاقية عالمية

القسم الرابع: ١٤٧

دراسات مؤطرة لآراء صاحب السموّ الملكي الحسن بن طلال

حول المجتمعات الإسلامية وصدام الحضارات

خاتمة ١٨٧

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الزمر: الآية ٩)

"النخبة ليست نخبة المراكز والكراسي، بل نخبة القيادة والإلهام"

الأمير الحسن بن طلال

من حوار أجرته معه صحيفة "عكاظ" السعودية

(العدد ١٣٥٩٩، ٢٥ رمضان، ١٤٢٤هـ / ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣م)

إهداء

إلى صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن بن طلال، المرافع، المتعدد الريادات، عميد سفراء السلام في العالم،

إلي أستاذي الجليل المستشار العلامة عباس الجراري ،

إلى والديّ الفقيدين العزيزين ثريا السبتي وادريس الجامعي، إلى وحيدنا البار عادل الحبابي

إلى جميع قرّاء العربية الغيورين.

أهدي هذا العمل المتواضع، وكلي أمل في أن يكون النص العربي، أداءً وتعبيراً، في مستوى الفحوى العلمية والمعرفية للكتاب، وما هو قمين به من أمانة النقل، ودقة التبليغ، وحسن البيان، وجمالية التعبير، وأن يتوفق في تبليغ الرسالة الإنسانية السامية التي سعى إليها، والأهداف التي توخّتها هذه الترجمة، ويلقى قبولاً واستحساناً من لدن القراء.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْه أُنِيبُ﴾

صدق الله العظيم

فاطمة الجامعي الحبابي

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفى أن كثيراً من المشكلات التي تواجه المسلمين في علاقتهم بغيرهم، من المنتمين إلى ديانات وأقطار أخرى، ترجع إلى جهل هؤلاء بالإسلام، من حيث هو عقيدة وشريعة ومبادئ وقيم ؛ كما ترجع إلى الصورة المشوهة التي رسمها في أذهانهم عن هذا الدين بعض خصومه القاصدين إلى ذلك.

إلا أن تغيير هذا الوضع أو تصويبه ليس سهلاً كما قد يُظن، ولا سيما في ظل الظروف اللامتوازنة الحالية وما ينتج عنها من إكراهات وتحديات ؛ إذ إن الأمر يحتاج أن يُسند إلى من يتوافر فيهم العلم والخبرة والحنكة والحكمة، إضافة إلى التوسل بمنهج عقلاني قادر على الإقناع، وعلى تبادل الأخذ والعطاء بنزاهة وإنصاف.

وذلكم ما وجدت هذا الكتاب القيم يبرزه بوضوح وجلاء، من خلال الأجوبة السديدة التي تشكله، والتي رد بها صاحب السمو الملكي الأمير المبجل الحسن بن طلال على أسئلة الحوار الذي أجراه الصحافيّ الفرنسي ألان إلكن مع سموه، إلى جانب دراسات أخرى. وهي كلها تهدف إلى تقديم معلومات صحيحة عن الإسلام، وتسعى إلى محو الآراء الخاطئة عنه، بعبارة وجيزة وأسلوب سهل، حتى يمكن وصول ما فيه إلى الفئات التي تتطلع إلى معرفة شيء عن الإسلام وأحوال المسلمين، وما يعانون من شدائد ومحن، على الرغم من رغبتهم في التعايش مع جميع الشعوب وسائر الديانات، والتفاعل مع ما تنتجه من حضارة وثقافة.

وليس غريباً أن تتحقق هذه الغاية على لسان سمو الأمير الجليل حفظه الله ورعاه ، فهو - كما سعدت بمعرفته قبل أزيد من ربع قرن - مثال نادر من بين قادة الفكر والسياسة ودعاة الحوار والسلام ؛ ليس على المستوى العربي والإسلامي

فحسب، ولكن على الصعيد العالمي كذلك. وهي معرفة زادت بعد أن شرفني سموه بعضوية «مؤسسة آل البيت» منذ نشأتها، وحضور مؤتمراتها المنتظمة ؛ إلى أن جمعتنا رحاب أكاديمية المملكة المغربية، بعد أن عينه فيها صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني رحمه الله. وأشهد أن سموه كان - في هذه المجالات وغيرها - يبهر باطلاعه الواسع، وتفكيره النيّر، وتعبيره البليغ، وبما له من نظر بعيد ونفَس طويل، وقدرة فائقة على سبر أغوار القضايا الشائكة التي تثار عن الإسلام والمسلمين، بدءاً من كيفية التوفيق بين قيم الدين والحداثة، إلى رد التهم التي توجه إلى معتنقيه بالعنف والإرهاب.

وقد أحسنت الأخت العزيزة الأستاذة الدكتورة فاطمة الجامعي الحبابي بترجمة هذا الكتاب المهمّ إلى اللغة العربية، حتى يكون في متناول الناطقين بها، ليلمسوا ما ينبغي أن يكون عليه الدفاع الموضوعي عن الإسلام والمسلمين، وليطلعوا هم كذلك على حقيقة دينهم. وذلكم هدف يتبين من العنوان الرئيس الذي أُعطي للحوار، وهو: «أن تكون مسلماً»، والذي فُرّع ليشير إلى المحاور الكبرى التي سيتناولها، وهي: «الإسلام والسلام والديموقراطية».

ولا شك أن كل من سيقرأ الكتاب من خلال هذه الترجمة سيتبين له، بسبب وضوحها واتساق عبارتها، أنها جاءت مستوفية لمضامينه، ووفية لنصه الأصلي المنشور باللغة الإيطالية، أو المنقول عنه بعد ذلك إلى الإسبانية والإنجليزية والفرنسية، ولا سيما هاته الأخيرة التي ما أخال الأستاذة الموقرة إلا كانت عليها معتمدة.

يضاف إلى ذلك جمال الأسلوب ودقة التعبير؛ مما لا يستغرب صدوره من المترجمة المحترمة، وهي عالمة باحثة، وأديبة مبدعة، وأستاذة جامعية مرموقة، وصاحبة تخصص دقيق في اللغة العربية وآدابها، وتمكن متين من اللغة الفرنسية.

وإنه ليكفي - للدلالة على هذه المكانة المتميزة – أن أشير إلى إنتاجها العلمي المتمثل بعضه في دراساتها المنشورة عن «لغة أبي العلاء في رسالة الغفران»، و «المغرب العربي في الخطاب الملكي من الاستقلال إلى قمة مراكش» ، و «تحليل معجمي إحصائي ودلالي لخطب العرش للملك الحسن الثاني» ؛ دون إغفال ترجمتها لكتاب زوجها، زميلنا المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عزيز الحبابي عن «ابن خلدون معاصراً». على أن السيدة فاطمة - لشغفها بموضوع هذا الحوار الأميري، وتشبعها واعتزازها به - لم تكتف بالترجمة ؛ بل زادت فكتبت تصديراً وافياً يلخص محاور هذا الموضوع، ويغري بتتبعها وقراءتها والاستفادة منها والاستمتاع كذلك.

وإني - إذ أعبر عن صادق إعجابي بالزميلة الفاضلة وفائق تقديري لما قامت به، مساهمة منها في إظهار حقيقة الإسلام وما يعانيه المسلمون وما يتطلعون إليه- لأود أن أهنئها على إصدار هذا الحوار المتفرد؛ داعياً لها بدوام التوفيق واطراد السداد.

الرباط في ١١ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ

الموافق ٧ / نيسان إبريل ٢٠٠٩م

عباس الجراري

تصدير

ماذا عساني أن أضيف من جديد إلى ما جاء في التصديرين القيّمين، والمقدمة المهمة للترجمتين الإنجليزية والفرنسية لكتاب سموّ الأمير الحسن بن طلال، القيّم "أن تكون مسلماً: الإسلام والسّلام والديمقراطية"[1]، الذي حررّته أقلام شخصياتٍ مرموقةٍ لها وزن كبير، ومكانة متميزة في ميدان الفكر والسياسة، على الصعيد العالمي: السناتور ديفيد ل. بورن، والأستاذ الجامعي إيدوين جي كور، والصحافي الشهير ألان إلكن، – سوى أن أقف، في إطلالة سريعة، عند أهم المحاور التي تدور في فلكها الأسئلة التي وجهها لسموّه، الصحافي إلكن، وأجوبة سموّه عنها، وعند رأيه في بعض القضايا الساخنة التي تشغل بال العالم اليوم، وجرى تناولها والتعليق عليها في بحثَي السيناتور بورن والأستاذ كور، وأحاول تسجيل ما بدا لي من خصائص أسلوب الطرح، ومنهجية التحليل التي لمسناها ونحن نغور في أعماق نصوص الكتاب، ونعمل على نقلها إلى العربية.

---

(١) ينظر: صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال، "أن تكون مسلماً: الإسلام والسلام والديمقراطية" حوار أجراه مع سموه الصحافي الشهير ألان إلكن، صدر أولاً باللغة الإيطالية تحت عنوان:
ESSERE MUSULMANO, Son altess royal le prince de Jordanie El Hassan Ben Talal et Alain Elkann, 2001.

ثم صدرت ترجمته إلى اللغتين الإسبانية والفرنسية تحت عنوان:
SON ALTESS ROYAL LE PRINCE DE JORDANIE EL HASSAN BEN TALAL ET ALAIN ELKANN, ETRE MUSULMAN, L'ISLAM EXPLIQUE A TOUS, Edition Robert La ffont, Paris, 2002.

ثم صدرت ترجمته إلى اللغة الإنجليزية تحت عنوان:
TO BE A MUSLIM, ISLAM, PEACE, AND DEMOCRACY, His Royal Highness, Prince El Hassan Bin Talal, In Collaboration With Alain Elkann, 2004.

إن تطلّع الأمير الحسن بن طلال، الدائم، إلى الرفع من الشأن الإسلامي في تفاعله مع الحضارة الغربية، وإلى ضبط الوسائل التي تمكّن الإنسانية من بلوغ أهدافها الرامية إلى تحقيق الرقي الحضاري، والتنمية المستدامة للبشرية جمعاء، طبقاً لما تسعى إليه رسالة الإسلام، جعله يرفع، دون كلل ولا ملَل، راية الحوار، والدعوة إلى التفاعل مع المحيط الخارجي، والتحولات التي يعيشها عالم اليوم، تفاعلاً إيجابياً يستثمر معطيات تكنولوجيا الإعلام والاتصال، وما تعرفه مختلف المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية من تطور. ولا يزال الأمير يبذل الجهود الكبيرة والقّيمة، عبر نشاطاته المختلفة، خصوصاً ما يصبّ في قناة دعم الحوار كمنهجية للتفاهم، والقبول بالتعددية والاختلاف، والاستفادة من عطاءاتهما في التعامل مع أنماط السلوكات الحيوية للشعوب والأمم والطوائف والأقليات، وثقافاتها وأعرافها وتقاليدها، ومع ما يجري في العالم من تحولات سريعة.

هكذا جاء الحوار الذي أجراه معه الصحافي إلكن، بوصف سموّه أحد رجالات النخبة القيادية الفكرية والسياسية في العالم، الحائز قصبَ السبق في الريادة الخلقية والفكرية والقيادية، وفي رصّ أسس الحوار بين الأديان والثقافات والحضارات، ليجسّد وجهاً من أوجه المرافعات الموضوعية القيمة والنزيهة، التي يسعى من ورائها إلى إحقاق الحق، وإفحام ما يُرتكب من مغالطات في حق الإسلام، وتصحيح الفهم الخاطئ له، ونقل صورة واضحةٍ عنه كما هو في جوهره، وعن مشاعره العميقة والصادقة في أداء أركانه، والامتثال لتعاليمه، والتحلي بقيمه، عاملاً بذلك على تغيير الصورة المشوهة عنه وعن المسلمين، التي يروّج لها بعض وسائل الإعلام في الغرب، ويعمل على ترسيخها في أذهان الآخرين.

لئن كانت طبيعة الأسئلة التي قدّمها المحاور لا تقتضي من المجيب، عموماً، سوى ذكر معلومات في الإجابة عنها مما نزل به القرآن الكريم، ومما جاء في السنة

والأحاديث النبوية الشريفة، ومما سجّله تاريخ العالم الإسلامي بصددها من أحداثٍ ووقائع في مسيرة نظام الحكم الإسلامي وتقاليده، نجد الأمير، على العكس من ذلك، لا يكتفي، كما عوّدنا في مختلف أعماله الفكرية، بالنقل، بل يتفاعل مع كل سؤال، بكل ما يمتلكه من ذخائر معرفيةٍ وفكريةٍ، واطلاع واسع، وحنكة سياسية وقيادية عليا، تفاعلاً يتجلى بوضوح في مقدرته الفائقة على تحليل أبعاد السؤال، واستنطاق خلفياته، وضبط ما يهدف إلى تبليغه من الإجابة عنه.

لقد شكّل تعدد أسئلة مُحاوِره وتنوعها حقولاً جوابيةً خصبةً، استنبتت أفكاراً متميزةً بجدتها وجديتها، ومواقف مؤثرةً بفاعليتها ونجاعتها في التصدي للعديد من القضايا الشائكة المتولدة عن تشابك الأحداث وتقاطعها، وعن تأجج أعمال العنف والاستبداد والإرهاب، وعن تيارات العولمة الجامحة بإيجابياتها وسلبياتها. إن وعي الأمير بما تعانيه الإنسانية اليوم من اختناق في جحيم الأزمات، وتيهٍ في مجاهيل لا يكاد يُستبان معها منفذٌ للنجاة، لا يزال يقوّي إيمانه بضرورة استعمال العقل والحكمة في مباشرة المشاكل وتدارسها، ونهج سبل الحوار مع الآخر، والانفتاح عليه، والسعي إلى التفاهم والتعاون معه، وترجيح كفة القيم الأخلاقية في معالجة المشاكل والتغلب عليها.

يتجلّى إيمان الأمير بذلك، تطبيقاً وممارسةً، في منهجية الخطاب والحوار والتأليف التي يعتمدها في كل أعماله ونشاطاته الفكرية والسياسية والاجتماعية، ويبدو بشكل أوضح في كتابه هذا، الذي يجسّد أنموذجاً حوارياً، وبيداغوجياً راقياً يتسم بطابعه "الحسني" الأصيل الفذ المستجد، الذي يتميز بتناغم خصائص أساليب الأصالة والتجديد وانسجامها.

لقد أجاب الأمير عن أسئلة الصحافي، التي تبلغ ثمانية وأربعين سؤالاً تتعلق بالإسلام والمسلمين، وتفاعلهم مع المحيط العالمي، بكيفيةٍ لبقةٍ بسيطةٍ، وفي الوقت

نفسه، علمية عميقة، فجاء حديثه متسماً بالدقة والوضوح، يتناول صلب الموضوع، ويضفي عليه معلوماتٍ معززةً بسرد حقائق، وأمثلة مستقاة من الواقع المعيش، ومن التاريخ الإسلامي. وقد رسم الأمير، بذلك، لوحةً صادقةً عن أمته الإسلامية وتاريخها، وعن دينه الإسلام وتعاليمه وأخلاقياته، بموضوعية، وأسلوب منطقيٍّ عقلانيٍّ، بعيد عن النبرة الدفاعية المتعصبة، كما يشهد بذلك مقدمو الكتاب ومصدّروه في مختلف اللغات التي صدر بها.

لقد تناولت إجابات الأمير، الحديث عن جوهر الإسلام وحقيقته، بشكل فريد في عرض مركّز بليغ، يقدّم صورةً جليةً عن المسلمين، الذين لهم توجه معتدل، وعن البعد الإنساني الذي يتميز به ديننا الحنيف. ونهج في حديثه عن أركانه وأوامره ونواهيه منهجيةً تعليميةً واضحةً، تعمل على تبسيط بعض المفاهيم الإسلامية التي يستعصي على غير المسلمين إدراكها، فجاء الكتاب سهل التناول، تستطيع فئات واسعة من الناس، وكل من ليست لهم معرفة بالإسلام، الاستفادة منه، والتعرّف بسهولة على الأركان الأساسية للإسلام، واستيعابها استيعاباً واعياً، شكلاً ومضموناً. تلك خاصية أساسية يتميز بها حوار الأمير هذا، ويمتاز عما يصدر حالياً من مؤلفات تتبنى صيغة السؤال والجواب، التي أثبتت نجاعتها في بلوغ الأهداف المتوخاة، ببيداغوجية الطرح، ومواءمته للظرف التاريخي الذي تعيشه الأمة الإسلامية اليوم، وبما يطبعه من ميسم شخصيته المرموقة، ومكانته المتميزة بين النخبة العالمية، وتأثيره الكبير في السياسة الدولية.

تدور مواضيع الأسئلة التي تناولها الحوار حول جوهر الإسلام عقيدةً، وبعض الأركان التي ينبني عليها، والتعاليم التي يطالب المسلمين بالامتثال لها في تعاملهم بعضهم مع بعض، ومع غيرهم من الأمم والأفراد على اختلاف دياناتهم ومعتقداتهم وأجناسهم ولغاتهم، في كل مكان، وعبر سائر الأزمنة. إنها أسئلة ترد

على خاطر الكثيرين ممن ليست لهم معرفة بالدين الإسلامي، بمن فيهم بعض المسلمين أنفسهم، خصوصاً المقيمين خارج بلاد الإسلام، الذين يتطلعون إلى التعرّف، بشكل واضح، على دينهم ومبادئه وتعاليمه، ليتمكنّوا من بلورة إيمانهم وعقيدتهم على الوجه الصحيح.

استُهلَّ الحوار بسؤال محاور الأمير عن بعض الجوانب المتعلقة بشخصه، ليس بوصفه مسلماً مثل أي شخص آخر يوجد في موقع المُحَاوَر، بل أساساً لانحداره من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم، المبلِّغ لهذا الدين، وما يحمله هذا التميّز والامتياز من مسؤوليات يلقيها على كاهله تجاه الإسلام والمسلمين، وأيضاً لرياداته المتفردة في شتى المجالات، ولما له من حنكة وقدرات ومواهبَ وإمكانيات تسهّل أداءه المهام الجسيمة المنوطة به، ولمكانته السامية بين النخبة المفكرة القيادية التي تمارس أدواراً مهمةً لإرساء قواعد السلام في عالم اليوم، فجاء جوابه مؤكداً مبدأ المساواة بين جميع الناس، ومذكّراً بأن تقوى الله، والامتثال لأوامره ونواهيه هما المعيار الذي يجري التفاضل به بين أبناء البشرية أمام الله يوم الحساب. لكن ذلك لم يمنع آل بيت رسول الله من أن يشعروا، بشكل تلقائيٍّ، بأنهم يتحملون أكثر من سواهم مسؤولية خدمة هذا الدين، ورعاية مصالح المسلمين، والدفاع عن حقوقهم، وحمايتهم، والرفع من شأوهم، في حدود ما لا يؤذي الآخر، وليس فيه حيف عليه.

لا عصبية في الإسلام، ومصالح الإنسانية، عامةً، هدف أسمى لجميع تعاليمه. إن هذا الشعور بالمسؤولية الذي يتوارثه المنتمون إلى آل البيت جعلهم دائماً وإلى اليوم، محل تكريم واعتزاز وفخر لأبناء الأمة الإسلامية، الذين يلجأون إليهم في مهام أمورهم، وبهم يستنجدون، وعلى أيديهم تتحقق نجاتهم من الطوارئ المؤذية، ومن كل فتنة وتفرقة قد تسود صفوفهم، كما تثبت ذلك وقائع تاريخ العالم

الإسلامي وأحداثه في أصعب الظروف وأحلكها. إنها مسؤولية عظمى لا يزالون إلى اليوم يشعرون بتحملها، ويحرصون على أدائها على أحسن وجه.

يأتي السؤال الأخير (الثامن والأربعون)، وهو: "هل يصعب عليكم، يا صاحب السموّ، أن تكونوا سفيراً للسلام في عالم اليوم؟" ليتعلق، مرةً أخرى، بشخص الأمير، ويبدو في نظرنا أنه من قبيل تحصيل حاصلٍ، إذ نعتقد أنه استفسار تأكيدي للمهمة التي يمارسها سموّه عملياً، منذ ما يزيد على ربع قرن من الزمان.

وإذا وضعنا جانباً هذين السؤالين (الأول والأخير)، اللذين يتعلقان بشخص الأمير، أمكن تأطير المواضيع التي تدور في فلكها أسئلة الصحافي وأجوبة الأمير عنها في عشرة محاور، هي:

- الإسلام بوصفه عقيدةً.
- مكانة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتعاليم القرآن بالنسبة للنبيَّين موسى وعيسى عليهما السلام، وتعاليم التوراة والإنجيل.
- نظرة المسلمين إلى الله، وموقفهم من الموت والبعث يوم القيامة.
- بعض أركان الإسلام: الحج، الصلاة والصيام.
- الحجاب في الإسلام، وأحكام الشريعة بالنسبة للرجل والمرأة.
- تعدد الزوجات والطلاق في الإسلام، ومسؤولية الأسرة.
- الأعياد التي يحتفي بها المسلمون.
- القيادة السياسية والدينية للأمة الإسلامية.
- العروبة والإسلام في منظور المسلمين.
- علاقة المسلمين بالأديان التوحيدية من أهل الكتاب، وغيرهم من الأمم.

إن وقفةً متأملةً عند هذا المحور الأخير الذي يضم الأسئلة: العاشر، والأربعين، والحادي والأربعين، والثاني والأربعين، التي تستفسر عن نظرة المسلمين إلى أهل الكتاب، وعن التعاليم التي يحضّهم الإسلام على الالتزام بها في التعامل معهم ومع الآخرين عموماً تبيّن - كما جاء في جواب الأمير- حجم القيم السامية والسمحة التي يتميز بها الإسلام. لقد بعث الله النبي محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافةً، داعياً إلى اعتناق دينه الإسلامي، ومصحِّحاً ما وقع من تحريف في التوراة والإنجيل، وفي معتقدات اليهود والمسيحيين وشرائعهم، فآمنت به طائفة، وتمادت أخرى في غيّها. رغم ذلك جاءت تعاليم القرآن تأمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب، من أتباع النبيَّين موسى وعيسى، بالتي هي أحسن، ومعاملتهم بإنصاف، لأنهم جميعاً أتباع النبي إبراهيم المسلم الحنيف، يؤمنون بإله واحد أحد، فاحترمهم المسلمون، وبادلوهم السلم، وحفظوا لهم العهد مُدةَ ما كانوا يجنحون إلى مسالمتهم. فكذا نعمت طوائف اليهود والنصارى، في ظل الحكم الإسلامي، بتسامح كبير، وكان أفرادها يمارسون، بكامل الحرية، طقوسهم الدينية وأعرافهم وتقاليدهم، ويتمتعون بحماية السلطة القائمة لهم ولحقوقهم، التزاماً بـ "معاهدة المدينة" التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهلها، وبما جاء بعدها من مواثيق، خصوصاً نظام "أهل الذمة" الذي سنّه عمر بن الخطاب (رض) في عهد خلافته، ونظام "الملّة" في العهد العثماني.

كل ذلك يؤكد أن الإسلام يعادي العنصرية، وأنه أكثر الأديان السماوية إيماناً بالمساواة بين الناس، وألحّها دعوةً إلى التعايش السلمي والتعارف فيما بينهم، مهما اختلفت أجناسهم وانتماءاتهم الدينية وغيرها، وأشدّها إدانةً لأعمال العنف، ولكل ما يؤذي الإنسان. كما يقوم دليلاً على خطأ ما يتصوره الغرب من اقتران العنف والإرهاب بالإسلام والمسلمين، استناداً إلى ما يُشاع من أن نشر الإسلام عند مجيئه، جرى بالقوة والسيف، وفرض السيطرة والحروب، وإلى التأويل الخاطئ

الإسلامي وأحداثه في أصعب الظروف وأحلكها. إنها مسؤولية عظمى لا يزالون إلى اليوم يشعرون بتحملها، ويحرصون على أدائها على أحسن وجه.

يأتي السؤال الأخير (الثامن والأربعون)، وهو: "هل يصعب عليكم، يا صاحب السموّ، أن تكونوا سفيراً للسلام في عالم اليوم؟" ليتعلق، مرةً أخرى، بشخص الأمير، ويبدو في نظرنا أنه من قبيل تحصيل حاصلٍ، إذ نعتقد أنه استفسار تأكيدي للمهمة التي يمارسها سموّه عملياً، منذ ما يزيد على ربع قرن من الزمان.

وإذا وضعنا جانباً هذين السؤالين (الأول والأخير)، اللذين يتعلقان بشخص الأمير، أمكن تأطير المواضيع التي تدور في فلكها أسئلة الصحافي وأجوبة الأمير عنها في عشرة محاور، هي:

- الإسلام بوصفه عقيدةً.
- مكانة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وتعاليم القرآن بالنسبة للنبيَّين موسى وعيسى عليهما السلام، وتعاليم التوراة والإنجيل.
- نظرة المسلمين إلى الله، وموقفهم من الموت والبعث يوم القيامة.
- بعض أركان الإسلام: الحج، الصلاة والصيام.
- الحجاب في الإسلام، وأحكام الشريعة بالنسبة للرجل والمرأة.
- تعدد الزوجات والطلاق في الإسلام، ومسؤولية الأسرة.
- الأعياد التي يحتفي بها المسلمون.
- القيادة السياسية والدينية للأمة الإسلامية.
- العروبة والإسلام في منظور المسلمين.
- علاقة المسلمين بالأديان التوحيدية من أهل الكتاب، وغيرهم من الأمم.

إن وقفةً متأملةً عند هذا المحور الأخير الذي يضم الأسئلة: العاشر، والأربعين، والحادي والأربعين، والثاني والأربعين، التي تستفسر عن نظرة المسلمين إلى أهل الكتاب، وعن التعاليم التي يحضّهم الإسلام على الالتزام بها في التعامل معهم ومع الآخرين عموماً تبيّن - كما جاء في جواب الأمير- حجم القيم السامية والسمحة التي يتميز بها الإسلام. لقد بعث الله النبي محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافةً، داعياً إلى اعتناق دينه الإسلامي، ومصحّحاً ما وقع من تحريف في التوراة والإنجيل، وفي معتقدات اليهود والمسيحيين وشرائعهم، فآمنت به طائفة، وتمادت أخرى في غيّها. رغم ذلك جاءت تعاليم القرآن تأمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب، من أتباع النبيَّين موسى وعيسى، بالتي هي أحسن، ومعاملتهم بإنصاف، لأنهم جميعاً أتباع النبي إبراهيم المسلم الحنيف، يؤمنون بإله واحد أحد، فاحترمهم المسلمون، وبادلوهم السلم، وحفظوا لهم العهد مُدةَ ما كانوا يجنحون إلى مسالمتهم. فكذا نعمت طوائف اليهود والنصارى، في ظل الحكم الإسلامي، بتسامح كبير، وكان أفرادها يمارسون، بكامل الحرية، طقوسهم الدينية وأعرافهم وتقاليدهم، ويتمتعون بحماية السلطة القائمة لهم ولحقوقهم، التزاماً بـ "معاهدة المدينة" التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهلها، وبما جاء بعدها من مواثيق، خصوصاً نظام "أهل الذمة" الذي سنّه عمر بن الخطاب (رض) في عهد خلافته، ونظام "الملّة" في العهد العثماني.

كل ذلك يؤكد أن الإسلام يعادي العنصرية، وأنه أكثر الأديان السماوية إيماناً بالمساواة بين الناس، وألحّها دعوةً إلى التعايش السلمي والتعارف فيما بينهم، مهما اختلفت أجناسهم وانتماءاتهم الدينية وغيرها، وأشدّها إدانةً لأعمال العنف، ولكل ما يؤذي الإنسان. كما يقوم دليلاً على خطأ ما يتصوره الغرب من اقتران العنف والإرهاب بالإسلام والمسلمين، استناداً إلى ما يُشاع من أن نشر الإسلام عند مجيئه، جرى بالقوة والسيف، وفرض السيطرة والحروب، وإلى التأويل الخاطئ

والمغرض الذي يعطيه بعضهم لمفهوم "الجهاد"، فيعُتقد أن المقصود به إلزام المسلمين بمحاربة غيرهم، وإكراههم على اعتناق دينهم، في حين لم يكن المسلمون يلجأون إلى الحرب إلاّ من أجل الدفاع عن دينهم وأنفسهم من هجمات الآخرين، كحربهم ضد الصليبيين الغزاة لصد الحملات المسيحية، أسوةً بالرسول صلى الله عليه وسلم في جهاده ضد كفار مكة، الذين أعلنوا عليه الحرب في بدء ممارسته الدعوة الإسلامية، وبذلك يتبيّن أن قيام أفراد وفئات من الإسلاميين المتطرّفين بأعمال إرهابيةٍ، باسم الدين، أمر منافٍ للتعاليم الإسلامية، فيه إساءة للإسلام والمسلمين، يُسهم فيما يقع فيه الغربيون من خطأ الربط بين الإسلام والإرهاب والعنف، ويرسّخ خوفهم من المسلمين، وخصوصاً المهاجرون منهم إلى أوروبا، ويزيد من معاناة هؤلاء جراء التمييز العنصري والديني، بالرغم من أنهم اليوم ينتمون إلى الجيلين الثاني والثالث المندمج نسبياً، في الأوطان التي يقيمون فيها. ولذا، يرى الأمير الحسن، أن الجهود المبذولة لتجاوز هذه الأوضاع لن تكون لها نتائج إيجابية إلاّ إذا اعترف كل من الغربيين، والجاليات المسلمة المقيمة في ديارهم، بالقوانين المنظمة للتعامل فيما بينهم، والتزموا بتطبيقها، وأن احترام المهاجرين لها، عموماً، طبقاً لما تدعو إليه تعاليم دينهم، يفرض على الغربيين أن لا ينظروا إليهم من خلال بعض الاستثناءات التي لا تتقيّد بها، وأن يعاملوهم بإنصافٍ، ويحققوا مطلبهم في الاعتراف بدينهم، ويمدّوهم، كغيرهم من الجاليات الأخرى، بالمساعدات التي تمكّنهم من أداء شعائرهم بارتياح. ذاك ما سيحقق التعايش السلمي بين الغربيين وجيل جديدٍ من المهاجرين، ليست له أية عقدة في أن يندمج بالأوروبيين، ويحافظ، في الوقت نفسه، على هويته الإسلامية. ذاك أيضاً، ما سيؤكّد عراقة أوروبا، وأخلاقها، وقدرتها على أن تفتح صدرها الرحب كي تتمتّع الفئات المسلمة من مواطنيها بحقوقها في المواطنة الكاملة، وبما يليق من احترام لدينها.

إن الخروج من الحلقة المفرغة التي يدور في فلكها الإرهابيون ومحاربوهم، وإيقاف ما يرتكبه المتطّرفون من جرائم فظيعة باسم دين من أعظم الديانات، والكفّ عن اتهام الإسلام بالعنف والإرهاب، لن يتسنّى إلا بتصحيح الغربيين والمتطرّفين الإسلاميين أنفسهم فهمهم الخاطئ له.

إن ربط الإرهاب بالإسلام لا يختلف عن ربطه بالكنيسة الكاثوليكية، نظراً إلى ما يجري في إيرلندا من أعمال إرهابية. إنها جميعها تصورات وأحكام غير منطقية. إن الحل الجذري لهذا المشكل يكمن، في معظم جوانبه، في التسوية الشاملة والعادلة والدائمة للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وللأحداث التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط، تسويةً ترضي الأطراف المعنية، وتحترم الاتفاقات والمواثيق المعقودة بينها. إن تمادي المفاوضات الدولية في التعامل مع القضية من منطلق غالبٍ ومغلوبٍ، وعدم إنصاف الطرف الفلسطيني المستضعَف دولياً، لن يزيد المشكل سوى تعقيداً وتوغلاً في الطريق المسدودة.

لا بدّ، أيضاً، كما يؤكد الأمير، من معالجة مشكل السيادة على القدس بحذر كبير، وتفهم ورصانة عميقين، أولاً بالاعتراف بأن لها مكانةً خاصةً عند معتنقي الديانات التوحيدية الثلاث، والحفاظ على حرمة الأماكن المقدسة عندهم، وثانياً بصيانة وحدة المدينة، بوصفها فضاءً روحياً لهم جميعاً، ورمزاً للسلام والمصالحة، وفي الوقت نفسه عاصمة لكل من الفلسطينيين والإسرائيليين، في منأى عن الانقسامات، والتراشق بالاتهامات، والتباري في المزايدات التفاوضية السياسية[1].

تُرسّخ الصورةَ المشوهة، التي يحملها الغرب، وأمريكا، والآخر عموماً، عن الإسلام والمسلمين، كما يرى الأمير الحسن، أجهزةُ الإعلام الغربي عموماً، التي تحصر اهتمامها في نقل وتضخيم ما تمارسه الفئات القليلة من المتطرّفين الإسلاميين من

(١) ينظر، في هذا الصدد، ولي العهد الأردني الأمير الحسن بن طلال "صنع السلام أصعب من الحرب" مجلة النور، العدد ٣٩، ١٩٩٤، ص٦-١١، حوار أجراه مع سموه رئيس تحرير المجلة عبد الحسن الأمين.

أعمال العنف الوحشية والتفجيرات الانتحارية المنافية لحقيقة الإسلام، ولا تعير بدائلها المتعددة من النماذج المشرّفة لعموم المسلمين الملتزمين بتعاليم الإسلام، الذين يجسّدون أخلاقيات التسامح، والتعايش السلمي، والوسطية والاعتدال، أيَّ اهتمام. كما لا تنقل لجماهير العالم أخباراً عما يُعقد من لقاءات ومؤتمرات للتعريف بالإسلام الصحيح، وبوسطيته وسماحته، وللحوار بين الأديان، والتقارب بين الثقافات والحضارات بهدف ضمان تعايش سلميٍّ بين الشعوب والأمم، وسيادة الاستقرار والأمن بينها. إن ما يأسف له الأمير، هو انعدام الاهتمام بمثل تلك المبادرات؛ إذ لا تحظى بتغطية إعلامية كافيةٍ، ومن ثمّ لا يصل خبرها، لا إلى الخاصة، ولا إلى العامة، ولا يذاع لها صوت في الغرب، ولا تجد لها طريقاً إليه، ولا مكاناً فيه، لذا تظل نتائج تلك الجهود قاصرةً عن أن تبلغ الأهداف المتوخاة منها. إن نجاحها رهينٌ بمدى اعتراف الجماهير بها، والجماهير نفسها في حاجة إليها، وإلى أجواء تعايش سلميٍّ. من ثم مناشدة الأمير، المجتمعَ الدولي، وخاصةً أجهزة الإعلام، النظر إليها بمزيد من الاهتمام، ودعوته إلى ضرورة أخذها بمأخذ الجد كيما تجري الاستفادة مما تحققه لمساعدة الإنسانية على تجاوز الأزمات التي تعاني من الاختناق بها.

يضم النصّ الفرنسي للكتاب، إضافةً إلى هذا الحوار القيّم، عرضاً يتناول فيه سمو الأمير الحسن بن طلال، الحديث عما يجب على المسلمين فعله من "تقدير قيم الآخرين وتقاليدهم"، ومراعاتها في التعامل مع غيرهم، امتثالاً لما تدعوهم إليه تعاليم القرآن الكريم، واقتفاءً بمعاملة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لهم، مبرزين التزامهم بذلك في مختلف مراحل حكمهم، كما يسجّل التاريخ، الأمر الذي يقوم دليلاً على سموّ القيم الإسلامية، وبراءة هذا الدين العظيم من كل ما يُرمى به من عنف وعنصرية، وما يُلصق به من إرهاب. كما يدعو سموه إلى مراجعة المواقف المعادية للإسلام، والتعرّف عليه كما هو في جوهره، وتصحيح الصورة

المشوهة عنه، التي رسم ملامحها، بإتقان، المتطرّفون الإسلاميون، ورسختها في أذهان الغربيين وغيرهم، أجهزةُ الإعلام الغربي عموماً.

ينضاف إلى هذا العرض، في النص الإنجليزي للكتاب، عرضان آخران لسمو الأمير، يتحدث أولهما عن "الإسلام والمجتمع المدني والديمقراطية"، ويبين مدى تطابق مبادئ الإسلام وتعاليمه مع مبادئ الديمقراطية في المجتمعات الحديثة، مستدلاً على ذلك بما عرفته تقاليد نظام الحكم الإسلامي من تمحورٍ حول سلطة سياسية مركزية تتولّى الإشراف على المهام الدينية والتشريعية للدولة، وحول أعمال وأنشطة هيئات، وتنظيمات مجتمعية تتكون من علماء وتجار وحرفيين من مختلف القبائل المسلمة والطوائف غير المسلمة، تتكفّل بتدبير الشؤون العامة للأفراد والجماعات، وترعى مصالحهم في استقلال عن السلطة المركزية. وبذلك يتبيّن أن ما تقوم به تنظيمات المجتمع المدني اليوم، في بلدان العالم الإسلامي المختلفة، من أدوار فاعلة لتحقيق المسار الديمقراطي، ليس بالأمر الجديد، ولا الطارئ على المجتمعات الإسلامية. ينتهي العرض بتساؤل عن مدى قدرة البلدان الإسلامية وزعاماتها، واستعدادهم، اليوم، لتقبّل النظم الحديثة، والالتزام في ممارستهم الحكمَ، بنهج ديمقراطيٍّ يرفع الحيف عن شعوبهم. كما يتساءل العرض عن مدى قدرة المواطنين في المجتمعات الإسلامية الحديثة، على إنشاء تنظيمات وهياكل متينة ذات مصداقية، على غرار مثيلاتها مما يذكره التاريخ من هيئات، تمكنهم من تنظيم أنفسهم، والتأثير في سياسة حكوماتهم، وتوجيهها الوجهة التي تحقق مصالحهم.

يتمحور العرض الثاني حول دعوة سمو الأمير الحسن بن طلال إلى وضع "منظومة قيم أخلاقية عالمية للتفاهم الإنساني" مستقاةٍ من التعاليم الدينية، والقيم الأخلاقية للأمم والشعوب المختلفة، والالتزام بها لإنقاذ الإنسانية مما

أضحت تعانيه من تردٍّ وانهيار أخلاقيٍّ أغلق أمامها مسالك الفضيلة، فصالت الرذيلة وجالت في خيلاء ترمي شهبها أعمال عنف، وهجومات وحشية، وتفجيرات انتحارية وحروباً طاحنة، وتدميراً، وتخريباً، وقتلاً، وإبادة جماعية، في غياب، يكاد يكون كلياً، للضمير الإنساني الحي. يظل العرض يعقد الأمل على التزام المجتمع الإنساني بمنظومة قيم أخلاقية مشتركة (مصفوفة مبادئ) لانتشال العالم من هذه الأوضاع المزرية، وتحقيق الأمن المنشود، وبناء عالم جديد يسوده التعايش السلمي والتفاهم والوئام.

هذه العروض الثلاثة القيّمة، تشكل صلب الإشكالات التي تطرح اليوم، بحدةٍ، على مختلف الأصعدة، تُعْقَد للنظر فيها، وتدارسها والبحث عن الوسائل والسبل الكفيلة بإيجاد حلول لها، العديدُ من المؤتمرات واللقاءات على مستوى القمم. إن ما تزخر به من آراء وأفكار ونظريات متميزة ومقترحاتٍ للخروج من الوضع المأزوم الذي يعاني منه العالم، يضيف إلى ما قدمته أجوبة الأمير، في الحوار، الشيء الكثير، ويضفي عليه مزيداً من الإيضاح. كل ذلك يجعل من هذا الكتاب، وثيقة مهمة، ومرجعاً أساسياً للتعرّف على جوهر الإسلام، وسلوكات المسلمين ومعاملاتهم وأخلاقياتهم، وتقاليد نظم الحكم في دولهم، بشهادة النخبة من مفكري العالم وساسته المرموقين، كما تسجّل ذلك أقلام مصدّري الترجمتين، الإنجليزية والفرنسية، للكتاب ومقدّميه: إدوين جي كور، وألان إلكن، وديفيد ل. بورن، (نُشر بحث لهذا الأخير، وآخر لإدوارد جي بيركنز، ضمن الإصدار الإنجليزي).

لقد جاء هذا الكتاب لسمو الأمير الحسن بن طلال بارقة أمل في ظلمة ما ساد العالم من حملات عنيفة ضد الإسلام والمسلمين، إثر أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، التي هزّت أركان العالم أجمع؛ إذ أسهم في إيقاظ وعي عدد من كبار مفكري أمريكا والغرب وقياداتهما، وكان لاطّلاعهم عليه تأثير كبير في

نظرتهم إلى الإسلام، وإنصاف المسلمين، فرفعوا أصواتهم منادين المجتمع الدولي إلى التعقّل في تدارس الأحداث، والتعامل معها في ضوء حقيقة الإسلام، ومستنكرين إلصاق الإرهاب والعنف به، واتخاذ مواقف عدائية مناهضة له وللمسلمين، ذلك أنه، كما يقول المحاور ألان إلكن، في تصديره للترجمة الفرنسية: "لا يزال الغرب ينظر إلى المسلمين كأشخاص (خطيرين)، غير مرغوب فيهم، أو (ملوك بترول) يريدون أن يجعلونا نركع لهم".

لعلّ تعاطف الصحافي إلكن مع المسلمين، ورغبته في الإسهام في تغيير نظرة الغرب العدائية إليهم، وتمكينه من التعرّف على جوهر الإسلام، هو ما حفّزه على استغلال فرصة لقائه بأحد قادة الفكر والسياسة في العالم، الأمير الحسن بن طلال، ليحاوره، كما يقول: "للتعرف على هذا الدين، الذي يجب أن ننظر إليه نظرة تآخٍ، لا نظرة عداءٍ، ونتعامل معه بكونه ديناً له جذور مشتركة مع اليهودية والمسيحية".

لا مراء في أن حملات الأوساط الأمريكية والغربية المناهضة للمسلمين، والمعادية للإسلام، وليدة جهلها بالإسلام، وفهمها الخاطئ له ولمبادئه وتعاليمه وقيمه، كما يسجّل ذلك ديفيد ل. بورن في كتابه "المجتمعات الإسلامية"، إذ يقول: "إن الغرب يجهل جهلاً تاماً الإسلام، وإن آراءه السلبية حوله تعود إلى هذا الجهل، وتتغذى منه". وهو يؤكد رأيه هذا في تصديره للترجمة الإنجليزية لكتاب سموّ الأمير، حيث نقرأ: "إن الآراء الخاطئة، والمواقف السلبية والمعادية التي تعمّ الثقافات المحتدمة المناهضة للإسلام والمسلمين، منذ الهجوم الإرهابي، الذي شنته عصابة أسامة ابن لادن ضد الولايات المتحدة في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، لتدعو، اليوم أكثر من أي وقت مضى، قادة أميركا ومفكريها وجماهيرها، بشكل عام، إلى أن يبذلوا قليلاً من الجهد للتعرّف على الإسلام كما هو في حقيقته". ثم يؤكّد أن آراء الشعب الأميركي وقادته حول الإسلام، وتصورهم لمبادئه وأحكامه، تؤثر تأثيراً كبيراً

في حكمهم عليه، وفي علاقاتهم ومصالحهم المشتركة مع المسلمين، فيدعوهم، بإلحاح، إلى قراءة الكتاب، واستيعاب ما يزخر به من معلومات عن جوهر الإسلام وقيمه، يقول: "يسود الجهلُ بالإسلام وبمبادئه وتعاليمه، الأمر الذي تولدت عنه آراء سلبية تجاهه، ونظرة عدائية إليه، من هنا تكمن الضرورة، والحاجة الماسة والملحة لقراءة كتاب الأمير الحسن، والتعرف على محتوياته، واستيعاب المفاهيم والمعلومات التي يقدمها عن الإسلام، وأخذها بالحسبان في الحكم على هذا الدين، وفي التعامل مع معتنقيه (...). إن آراء الشعب الأمريكي وقادته حول الإسلام، وما لديهم من تصور لمبادئه وتعاليمه، تؤثر تأثيراً قوياً في علاقات الولايات المتحدة مع الشعوب الإسلامية، وفي مصالحنا الحيوية المشتركة على مختلف الأصعدة؛ صعيد السياسة الدولية بوصفنا حلفاء منافسين وخصوماً، والصعيد الاقتصادي بما لدينا من مصادر للمواد الخام والبضائع والأسواق، والصعيد الثقافي والإنساني بوصفنا إخوة في الوجود البشري. يمكننا أن نتعلم من المسلمين، وأن نشاطرهم الرأي في العديد من القضايا، ونتعاون معهم لتحقيق مصالح متبادلة بيننا وبينهم لضمان حياة أفضل لنا جميعاً، ولأبنائنا من بعدنا".

يؤكد إدوين جي كور هذا الإعترافَ بجهل الأمريكيين بالإسلام، وبسوء معاملة بعضهم للمسلمين، وعدّهم خطراً عليهم، وكابوساً يهددهم، خصوصاً بعد أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. وهو يرى أن فهم المسلمين والتعاطف معهم وحده الكفيل بالمساعدة على التوصل إلى وفاق وإقامة تعاون معهم، وإيقاف أعمال العنف، ورفع كابوس الخطر الذي يهدد الأمريكيين، يقول في تقديمه للترجمة الإنجليزية للكتاب: "إن عدم تعرّفنا على حقيقة أولئك الذين نَعدّهم منافسين لنا، وخصوماً، وأعداءً، ومصدر خطرٍ علينا، ونخوض معهم وضدهم حروباً نازفةً، لن يزيد الطين سوى بلة، ولن يفضي إلى التوصل إلى وفاق بيننا وبينهم، ولا إلى رفع كابوس الشعور بالخطر الذي يداهمنا (.....). إن فهمنا لهؤلاء، الذين نعدّهم أعداء لنا، فهماً عميقاً،

وتعاطفنا معهم أمران أساسيان لكل تحرك يهدف إلى وقف الأعمال العدوانية، وبلورة شكلٍ من أشكال الوفاق بأمل الوصول إلى تعاونٍ بناء، ومفيدٍ للجانبين".

إن من واجب الحكومات القائمة في الولايات المتحدة أن تسعى إلى التعرّف على جوهر الإسلام ومبادئه وقيمه، لما له من تأثير قوي في نفوس المسلمين وسلوكاتهم الحيوية، وأن تتدارس دوافع الإرهاب، وذهنية الإرهابيين وتأويلاتهم الراديكالية لمفهوم "الجهاد" في الإسلام. إن ذلك سيساعدها على محاربة الإرهاب، وتحقيق مشروع التنمية، وسيادة الديمقراطية في الشرق الأوسط، كما يضيف قائلاً: "إن ما تسعى إليه أمريكا من إسهام في مشروع التنمية بالشرق الأوسط، وتحقيق حياة كريمة وأفضل لشعوبه، وأيضاً تحقيق السلام في ربوعه، وعلى امتداد العالم، يستحيل أن يتحقق من دون فهم المعتقدات الدينية، التي نرى ما لها من تأثير عميق في شعوب العالم الإسلامي". يرى جي كور، أيضاً، أن أمريكا، التي كانت تتزعم بالأمس حركةً مناهضةً للاستعمار، وتدعو إلى حق الشعوب في تقرير مصيرها وسيادتها، أضحت بعد انهيار الاتحاد السوفييتي قطباً وحيداً في العالم، فواجهها، فجأةً، ما تعانيه شعوبه من فقرٍ وجهلٍ وأمراضٍ، وما ترزح تحته من دكتاتورية حكامها، وتتخبط فيه من حروب، وصراعات، وإرهاب، كل ذلك قادها إلى محاربة نظام الطالبان في البلقان وأفغانستان، والتدخل في حرب الخليج الأولى سنة ١٩٩١، وفي الإطاحة بنظام صدام حسين في العراق، عدا تدخّلها في العديد من النزاعات والصراعات الداخلية، وتجنّدها لمحاربة الإرهاب والإرهابيين.

لا مخرج من الوضع المأزوم والغامض، الذي يعيشه العالم، إلا بمزيدٍ من التعرّف على حقائق الشعوب ومعتقداتها، وعلى الخصوص الشعوب الإسلامية. يقول: "إننا نعيش في عالم مبهم غامض يحتاج فكُّ ألغازه إلى مزيد من العناية والدراية والحكمة كيما يتسنى نشر السلام، وتحقيق التنمية الشاملة. إن الغموض لا يزال يحاصرنا، وما لدينا من وسائل لمكافحة الإرهاب محدود جداً. إن تكريس

في حكمهم عليه، وفي علاقاتهم ومصالحهم المشتركة مع المسلمين، فيدعوهم، بإلحاح، إلى قراءة الكتاب، واستيعاب ما يزخر به من معلومات عن جوهر الإسلام وقيمه، يقول: "يسود الجهلُ بالإسلام وبمبادئه وتعاليمه، الأمر الذي تولدت عنه آراء سلبية تجاهه، ونظرة عدائية إليه، من هنا تكمن الضرورة، والحاجة الماسة والملحة لقراءة كتاب الأمير الحسن، والتعرف على محتوياته، واستيعاب المفاهيم والمعلومات التي يقدمها عن الإسلام، وأخذها بالحسبان في الحكم على هذا الدين، وفي التعامل مع معتنقيه (...). إن آراء الشعب الأمريكي وقادته حول الإسلام، وما لديهم من تصور لمبادئه وتعاليمه، تؤثر تأثيراً قوياً في علاقات الولايات المتحدة مع الشعوب الإسلامية، وفي مصالحنا الحيوية المشتركة على مختلف الأصعدة؛ صعيد السياسة الدولية بوصفنا حلفاء منافسين وخصوماً، والصعيد الاقتصادي بما لدينا من مصادر للمواد الخام والبضائع والأسواق، والصعيد الثقافي والإنساني بوصفنا إخوة في الوجود البشري. يمكننا أن نتعلم من المسلمين، وأن نشاطرهم الرأي في العديد من القضايا، ونتعاون معهم لتحقيق مصالح متبادلة بيننا وبينهم لضمان حياة أفضل لنا جميعاً، ولأبنائنا من بعدنا".

يؤكد إدوين جي كور هذا الإعترافَ بجهل الأمريكيين بالإسلام، وبسوء معاملة بعضهم للمسلمين، وعدّهم خطراً عليهم، وكابوساً يهددهم، خصوصاً بعد أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. وهو يرى أن فهم المسلمين والتعاطف معهم وحده الكفيل بالمساعدة على التوصل إلى وفاق وإقامة تعاون معهم، وإيقاف أعمال العنف، ورفع كابوس الخطر الذي يهدد الأمريكيين، يقول في تقديمه للترجمة الإنجليزية للكتاب: "إن عدم تعرّفنا على حقيقة أولئك الذين نَعدّهم منافسين لنا، وخصوماً، وأعداءً، ومصدر خطرٍ علينا، ونخوض معهم وضدهم حروباً نازفةً، لن يزيد الطين سوى بلة، ولن يفضي إلى التوصل إلى وفاق بيننا وبينهم، ولا إلى رفع كابوس الشعور بالخطر الذي يداهمنا (.....). إن فهمنا لهؤلاء، الذين نعدّهم أعداء لنا، فهماً عميقاً،

وتعاطفنا معهم أمران أساسيان لكل تحرك يهدف إلى وقف الأعمال العدوانية، وبلورة شكلٍ من أشكال الوفاق بأمل الوصول إلى تعاونٍ بناء، ومفيدٍ للجانبين".

إن من واجب الحكومات القائمة في الولايات المتحدة أن تسعى إلى التعرّف على جوهر الإسلام ومبادئه وقيمه، لما له من تأثير قوي في نفوس المسلمين وسلوكاتهم الحيوية، وأن تتدارس دوافع الإرهاب، وذهنية الإرهابيين وتأويلاتهم الراديكالية لمفهوم "الجهاد" في الإسلام. إن ذلك سيساعدها على محاربة الإرهاب، وتحقيق مشروع التنمية، وسيادة الديمقراطية في الشرق الأوسط، كما يضيف قائلاً: "إن ما تسعى إليه أمريكا من إسهام في مشروع التنمية بالشرق الأوسط، وتحقيق حياة كريمة وأفضل لشعوبه، وأيضاً تحقيق السلام في ربوعه، وعلى امتداد العالم، يستحيل أن يتحقق من دون فهم المعتقدات الدينية، التي نرى ما لها من تأثير عميق في شعوب العالم الإسلامي". يرى جي كور، أيضاً، أن أمريكا، التي كانت تتزعم بالأمس حركةً مناهضةً للاستعمار، وتدعو إلى حق الشعوب في تقرير مصيرها وسيادتها، أضحت بعد انهيار الاتحاد السوفييتي قطباً وحيداً في العالم، فواجهها، فجأةً، ما تعانيه شعوبه من فقرٍ وجهلٍ وأمراضٍ، وما ترزح تحته من دكتاتورية حكامها، وتتخبط فيه من حروب، وصراعات، وإرهاب، كل ذلك قادها إلى محاربة نظام الطالبان في البلقان وأفغانستان، والتدخل في حرب الخليج الأولى سنة ١٩٩١، وفي الإطاحة بنظام صدام حسين في العراق، عدا تدخّلها في العديد من النزاعات والصراعات الداخلية، وتجنّدها لمحاربة الإرهاب والإرهابيين.

لا مخرج من الوضع المأزوم والغامض، الذي يعيشه العالم، إلا بمزيدٍ من التعرّف على حقائق الشعوب ومعتقداتها، وعلى الخصوص الشعوب الإسلامية. يقول: "إننا نعيش في عالم مبهم غامض يحتاج فكُّ ألغازه إلى مزيد من العناية والدراية والحكمة كيما يتسنى نشر السلام، وتحقيق التنمية الشاملة. إن الغموض لا يزال يحاصرنا، وما لدينا من وسائل لمكافحة الإرهاب محدود جداً. إن تكريس

بلدان جهودها الجبارة على محاولة استشفاف رؤى متكاملة لوضع خطة واضحة، وبلورة استراتيجية فعالة لتدبير شؤون عالم تعم أركانه فوضى عارمة، لن يعطي الثمار المرجوة منه، إلا إذا أتخذت بعض التدابير الأساسية، على رأسها العمل على تقوية معرفتنا بالعالم الذي نعيش فيه، وضبط إدراكنا لمشاكله".

يخلص جي كور، ليؤكد أن كتاب الأمير الحسن، يشكّل مرجعيةً مهمةً، تساعد القيادات السياسية، عبر العالم، على التعرّف على الإسلام، وفهم المسلمين ونهج السبيل الأقوم للتعامل معهم، وحل الكثير من القضايا التي تشكّل عمق الأزمات والصراعات المتولدة عن الخلط بين أعمال العنف والإرهاب، وبين الدين الإسلامي، وإلصاقها به، وبالمسلمين عامةً. يضيف قائلاً: "إن كتاب الأمير الحسن (أن تكون مسلماً)، كتاب أشد ما تكون الحاجة إليه في هذا المنعطف التاريخي، بما يقدمه من معلوماتٍ ضافية، ورؤى واضحة المعالم عن الإسلام والمسلمين، تُعدّ ضروريةً لتحقيق التفاهم المنشود (..). إن محتوياته مهمة جداً بالنسبة لواضعي السياسات، لأنها تقود إلى تحليل المواقف وضبطها قبل اتخاذ القرارات، وتستهدف صواب الحلول وإيجابيتها، ولنا اليقين بأنه سوف يساعد قادة العالم وشعوبه، على تحديد مفهوم دقيق للأمن، ورسم آفاق جديدة للتقدم بخطى ثابتة صوب عالم أفضل يسوده السلام والاستقرار (...). إن الكتاب، بما يتميز به من عرض دقيق ومركّز لجوهر الإسلام، يشكّل لبنةً أساسيةً وإسهاماً إيجابياً في التأسيس لمنهج واضح ودائم للبحث العلمي الموضوعي، الذي يحدد طبيعة العلاقات التي يجب أن تسود بين الإسلام والمسلمين، وبين سائر الأمم في مطلع القرن الواحد والعشرين، ويفسح المجال لممارسة حوار قائم على معرفة أوسع حول موضوع يبدو أحياناً محرجاً وحساساً: الإسلام وتأثيره، ويعطي معلوماتٍ قاعديةً، وآراء نيرةً حول إمكانية تحقيق مستقبل يستطيع فيه كل من الغرب والعالم الإسلامي، العيش معاً في سلام، وبوئام، ويقيمان بينهما تعاوناً بنّاءً".

يعزز هذه الآراء المُشِيْدَة بالكتاب ما لمسنا- لما يزخر به من آراءٍ، ويتميز به من إحاطة شاملة بجوهر الإسلام ومبادئه وتعاليمه وقيمه، وتقديم دقيقٍ لبعض خصائص نظم الحكم في المجتمعات الإسلامية- من تأثير كبير في بحثين قيمين ضمتهما الترجمة الإنجليزية للكتاب، أحدهما لديفيدل. بورن، حول "المجتمعات الإسلامية وآفاقها الديمقراطية"، والآخر لإدوارد جي بيركنز، تناول فيه طبيعة ما يتخبط فيه العالم اليوم من مشاكل، ومصدره، وهل هو نتيجة صدام حضارات، أم إن العلاقات طبيعية مع أمم العالم الإسلامي؟ كلاهما يرجع إلى كتاب الأمير الحسن، مستشهداً بما ورد فيه من معلومات وطروحات تتعلق بأوضاع المسلمين، وعلاقة دولهم بمختلف الأمم، وخاصةً بالغرب وأميركا، وتفاعلهم مع معطيات الحضارة المعاصرة، وظروف العولمة، وكلاهما يؤطر آراء الأمير القيمة ويعززها، ويستعرض مواقفه الإنسانية النبيلة.

إنها شهادات تؤكد أن الكتاب قد حقق الكثير من الأهداف المتوخاة منه، ذلك إنه إذا كان يتوجه أساساً إلى غير المسلمين، الغربيين والأمريكيين ومن سواهم، قادةً سياسيين، وحكاماً ومفكرين أكاديميين، وجماهير شعبية، فإنه لن يفيدهم وحدهم، بل نرى، شخصياً، أنه سيفيد كذلك، إضافة إلى المسلمين المهاجرين خارج بلدان العالم الإسلامي، كما يرى جي كور، لأنهم يُعدّون في عداد الغربيين، العديدَ من المسلمين الذين يقيمون في بلدانهم، إذ سيجدون فيما يقدمه من معلوماتٍ إجابةً عما يرد على خواطرهم من أسئلة تتعلق بدينهم، وبعلاقاتهم مع الآخر، وموقع بلدانهم بين بلدان العالم.

إن قراءتي المتمعنة لهذا الكتاب القيم، وجولتي المتأملة في ربوع ما يضمه من تصدير وتقديم وحوارٍ وعروضٍ وأبحاث، وكذا رصدي لما يزخر به من ثروةٍ فكريةٍ معرفيةٍ وآراءٍ ومواقفَ وتوجهات تصبّ جميعها، بمنهجيةٍ محكمة وبليغةٍ، في قناة البحث عما ينتشل العالم من الأوضاع المأزومة، التي تخنق أنفاسه في جحيم فواجع

التفجيرات الانتحارية، ومآسي إبادات الحروب، وعواقب انتهاكات حق الشعوب في ممارسة سيادتها، وحق الإنسانية في التنعّم بالأمن والاستقرار والتعايش السلمي فيما بين شعوبها وأممها، وإقامة تعاون بنّاء بعضها مع بعض.. كل ذلك جعله، في تقديري، رسالةً إنسانيةً ساميةً بكل أحقيّة.

إن إيماني بواجب تبليغ تلكم الرسالة النبيلة إلى القرّاء، الذين لا يحسنون سوى اللغة العربية، أو يفضّلون القراءة بها، وإطلاعهم على حقيقة هذا الدين الإسلامي العظيم، والإجابة عن عدد من التساؤلات المتعلقة بمبادئه وتعاليمه وقيمه، وببعض تقاليد نظم الحكم في دوله، برؤى واضحةٍ ومنهجيةٍ مبسطة، والاستفادة من ذلك في فهم بعض الشؤون والقضايا الخاصة بالمسلمين ومعاملاتهم، جعلني أعقد العزم، مستخيرةً الله ومستعينةً به، على وضعه بين أيديهم، وأبذل الجهد، ما استطعت، لنقله إلى اللغة العربية.

اعتمدنا في إنجاز هذه الترجمة النصين: الإنجليزي والفرنسي للكتاب، وراعينا في نشرها تقديم مواد الإصدار في أربعة أقسام وخاتمة. يضم القسم الأول: "تصدير الترجمتين الإنجليزية والفرنسية للكتاب، وتقديمهما"، بقلم كل من ديفيد ل. بورن، وإدوارد جي كور، وألان إلكن. ويضم القسم الثاني: "أن تكون مسلماً: الإسلام في متناول الجميع"، نص الحوار الذي أجراه مع الأمير الحسن، الصحافي ألان إلكن. ويقدم القسم الثالث: "مع صاحب السمو الملكي الأمير الحسن ابن طلال في حديثه: الإسلام والآخر، أخلاقيات وقيم إنسانية"، نص عروضه الثلاثة التي ضمها الإصداران الإنجليزي والفرنسي: "الإسلام والمجتمع المدني والديمقراطية"، "تقدير قيم الآخرين وتقاليدهم"، و"منظومة قيم أخلاقية عالمية للتفاهم الإنساني". ويضم القسم الرابع: "دراسات مؤطرة لآراء الأمير الحسن ابن طلال حول المجتمع الإسلامي والقيم الإنسانية"، بحثاً لديفيد ل. بورن، بعنوان:

"المجتمعات الإسلامية وآفاقها الديمقراطية"، وبحثاً لإدوين بيركنز، بعنوان: "صدام حضارات، أم علاقات طبيعية مع أمم العالم الإسلامي؟". وتطوي سجلَّ هذا الإصدار خاتمة حاولنا من خلالها تقديم ورقة عن شخص الأمير الحسن بن طلال المتأصل والأصيل، مادة خيوطها آراؤه وأفكاره النيرة، والمبادرات التأسيسية التي يتخذها في مختلف المجالات، وصنعتها رياداته الخلقية المثالية والفكرية المتألقة والسياسية المتفوقة، ولحمتها "جهاده" الصامد على شتى الجبهات، وجهوده التي يبذلها للدفاع عن دينه، والرفع من شأن أمته العربية والإسلامية كي تتبوأ المكانة اللائقة بها بين الأمم، والأعمال والنشاطات المباركة التي يمارسها من أجل سيادة القيم الأخلاقية، وأنسنة العالم، وملامح رسوماتها الرسالة الإنسانية النبيلة التي يسهر على تبليغها بإخلاص ووفاء، كما يتأكد ذلك مما جاء في كتابه هذا، منطوقاً به، ومسكوتاً عنه يُستنبط من قراءة ما بين السطور.

حرر بفاس، فاتح محرم ١٤٢٧هـ

الموافق لـ ٣١ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٦م

القسم الأول

تصدير وتقديم الترجمتين:

الإنجليزية والفرنسية

تصدير الترجمة الإنجليزية

ديفيد ل- بورن[1]

إن اختيار صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن بن طلال، مطبعة سسكس الأكاديمية لنشر هذا الكتاب المتميز، أعطى المطبعة فرصةً ثمينةً لإطلاع جمهور واسع على آراء أبرز دعاة السلام والتفاهم المتبادل في العالم الإسلامي اليوم. إن حاجة الغرب عموماً، والولايات المتحدة بشكلٍ خاصٍّ-حيث يسود الجهل بالإسلام ومبادئه وتعاليمه، الأمر الذي تولدت عنه آراء سلبية تجاهه، ونظرة عدائية إليه- لجدّ ملحّة إلى قراءة كتاب الأمير الحسن هذا، والتعرّف على محتوياته، واستيعاب المفاهيم والمعلومات التي يقدمها عن الإسلام، وأخذها بالحسبان في الحكم على هذا الدين، وفي التعامل مع معتنقيه. إن الآراء الخاطئة، والمواقف السلبية والمعادية، التي تعم النقاشات المحتدمة المناهضة للإسلام وللمسلمين، منذ الهجوم الإرهابي الذي شنته عصابة أسامة بن لادن، ضد الولايات المتحدة في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، لتدعو اليوم، أكثر من أي وقت مضى، قادة أمريكا ومفكريها وجماهيرها بشكلٍ عامٍّ، إلى أن يبذلوا قليلاً من الجهد للتعرّف على الإسلام كما هو في حقيقته.

يسعى الأمريكيون إلى الإسهام، إسهاماً إيجابياً وجاداً، في مشروع التنمية بالشرق الأوسط. إن الأغلبية الساحقة من أبناء شعبنا ترغب في تقديم أقصى

---

(١) ديفيد ل. بورن (DAVID L. BOREN)، عضو سابق في مجلس الشيوخ الأمريكي.

المساعدات لشعوبه كيما تحيا حياةً كريمةً، وتحقق لأبنائها مستقبلاً أفضل، وفوق ذلك كله، فإن الولايات المتحدة تسهر، بجدٍّ، على تحقيق السلام في المنطقة، وعلى امتداد العالم. لكن يستحيل علينا تحقيق أهدافنا السامية الإيجابية هذه من دون فهم المعتقدات الدينية التي نرى ما لها من تأثير عميق على شعوب العالم الإسلامي. إن الإسلام الذي يُعدّ أحد الأديان السماوية الثلاثة في العالم، ينتشر انتشاراً هائلاً بين سكّانه على امتداد مجموع الكرة الأرضية. ونرى اليوم، بشكلٍ مدهشٍ تزايد عدد معتنقيه في أوروبا وأمريكا. يبلغ عدد المسلمين في العالم، على اختلاف مذاهبهم، ملياراً ومائتي مليون نسمة، إن آراء الشعب الأمريكي، وقادته حول الإسلام، وما لهم من تصور لمبادئه وتعاليمه، تؤثر تأثيراً قوياً في علاقات الولايات المتحدة مع الشعوب الإسلامية، وفي مصالحنا الحيوية المشتركة على الأصعدة المختلفة؛ السياسة الدولية، بوصفنا حلفاء، ومنافسين، وخصوماً؛ وعلى الصعيد الاقتصادي بما لدينا من مصادر للمواد الخام، والبضائع والأسواق؛ وعلى الصعيد الثقافي والإنساني، بوصفنا إخوةً في الوجود البشري. يمكننا أن نتعلم من المسلمين الشيء الكثير، وأن نشاطرهم الرأي في العديد من القضايا، ونتعاون معهم لتحقيق مصالح متبادلة بيننا لضمان حياةٍ أفضل لنا جميعاً، ولأطفالنا من بعدنا.

ثمة كتب ودراسات متعددة عن الإسلام، ولكن ما يميّز كتاب "أن تكون مسلماً: الإسلام، السلام والديمقراطية"، هو كونه من تأليف شخصيةٍ مرموقةٍ لها وزن ومكانة متميزة بين نخبة العالم، وتأثير كبير في السياسة العالمية، الأمر الذي يعطي هذا المؤلَّف الجديد مصداقيةً خاصةً. فالكتاب "بيانٌ" شخصيٌّ عميق الرؤى حول جوهر الإسلام، لأحد أبرز قادة العالم دعوةً لحوار الأديان، وإحلال التفاهم بينها.

ليس من قبيل الصدفة أن يتزامن شرف تقديمي، يوم ٣ نيسان/ إبريل ٢٠٠٢، شهادة الدكتوراه الفخرية للأمير الحسن، التي منحته إياها جامعة أوكلاهوما، مع مؤتمر الجامعة السنوي حول السياسة الخارجية. إن الدبلوم الصادر عن مجلس أمناء الجامعة ينص على ما يأتي:

"دكتوراه في الرسائل والأعمال الإنسانية:

صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال،

رائد في قضايا السلام والتفاهم بين الأديان"

لقد كرّس صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال حياته من أجل خلق مجتمع تُحترم فيه التعددية، ويستطيع الناس فيه- على اختلاف أصولهم ودياناتهم- العيش معاً، والعمل جنباً إلى جنب في جو من الحرية والاحترام المتبادل.

لقد كان لرؤاه الشخصية، وكتاباته الرصينة، ودوره القيادي، على امتداد ربع قرن، أثر كبير في إرساء قواعد ثابتة للحوار بين الأديان، والالتزام بقضايا حقوق الإنسان، والسعي إلى توفير فرص التعليم للجميع، ومكافحة الفقر. لقد مارس، بالاشتراك، رئاسة اللجنة المستقلة المختصة بقضايا القانون الإنساني الدولي وهو يتولّى حالياً رئاسة نادي روما، ومنتدى الفكر العربي، وتنظيم المؤتمر العالمي حول الأديان والسلام، كما يحتل منصب رئيس اللجنة الاستشارية لوضع سياسة منظمة الملكية الفكرية العالمية.

ولصاحب السمو الملكي خمسة كتب من تأليفه: "حق الفلسطينيين في تقرير المصير"، "البحث عن السلام"، "القدس.. دراسة قانونية"، "المسيحية في العالم العربي"، و"أن تكون مسلماً".

إن جامعة أوكلاهوما تكنّ لسموّه تقديراً خاصاً، لما يقدّمه من خدمات جُلّى من خلال ترؤسه للمجلس الاستشاري لمركز دراسات السلام في أحضان هذه الجامعة.

إن الجامعة، إذ تحتفي بصاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال، تكرّم في شخصه السامي رجل سلام أسهم، ولا يزال، في تعزيز التفاهم المتبادل بين جميع الأمم بوساطة منهجيةٍ معتدلةٍ وواضحةٍ في الحياة.

يُعدّ هذا الكتاب عملاً مهماً آخر ينضاف إلى جهود سموّه، التي بذلها طوال حياته لتعزيز حوار الأديان، وفهم الإسلام، وتحقيق السلام العالمي والديمقراطية في العالم الإسلامي. إنه "بيان" يتعلق بالمعتقد الديني لسموّه، جاء في صيغة "سؤال" و"جواب" يتيح لفئات واسعةٍ من الناسِ التعرّف على الركائز الأساسية للإسلام، واستيعابها بسهولةٍ وسرعة، شكلاً ومضموناً.

إن التحليل الذي يقدّمه سموّه، لما يعنيه "كون الإنسان مسلماً" يتوجه به إلى جمهور الغرب، وإلى جمهور عامة المسلمين خارج بلاد الإسلام، الذين يمكن عدّهم غربيين بواقع اغترابهم. إنهم يتوقون إلى بلورة إيمانهم من خلال تبنيهم مبادئ دينهم، وفهمها فهماً صحيحاً، وتقديمها للآخر في صورتها الواضحة. إن الأسئلة التي وجهها الصحافي ألان إلكن، لصاحب السموّ الملكي حول الإسلام، هي الأسئلة نفسها التي كثيراً ما يطرحها العديد من الناس، الذين ليست لهم معرفة بهذا الدين، ولقد جاءت إجابات الأمير الحسن، دقيقةً وواضحةً تتطرق إلى صلب السؤال، وتضفي عليه المزيد من المعلومات، بعيدةً عن نبرة الأسلوب الدفاعي، ومعززةً بسرد للحقائق والأمثلة المستقاة من الواقع المعيش ومن التاريخ، بأسلوب سهل ممتنع. نشير، على سبيل المثال، إلى حديثه النافذ واللبق عن مشاعر الوحدة التي تجمع أبناء الأمة الإسلامية على امتداد العالم، رغم تعددية المذاهب المتنوعة

التي تنتمي إليها، والتي تفرز اختلافات فيما بينها تكون أحياناً حادةً، تعبيراً وسلوكاً. هذا وحده كفيل بأن يقدم لجماهير القراء العريضة صورةً واضحةً عما يبذله سموّ الأمير من جهد للتقريب بين المذاهب داخل الإسلام نفسه، وللتقارب بين الأديان السماوية الثلاثة.

إن الخاصية الأساسية التي تميز كتاب "أن تكون مسلماً: الإسلام، السلام والديمقراطية" هي المنهجية التعليمية التي يسلكها سموّه وهو يتوجه إلى عامة الناس. على أنّ الكتاب، في الوقت نفسه، يتوجه إلى فئاتٍ خاصة من المفكرين والمختصين في العلوم الدينية، نأمل أن يجد طريقه إليهم جميعاً، فمما لا شك فيه أنهم يستفيدون منه. كما نأمل أن تتناول تقييمه والكتابة عنه أقلامُ المفكرين والأكاديميين من ذوي الاهتمام. لقد سبق لميدان التأليف في هذا المجال أن عرف نماذج من هذا النمط في الحديث عن إيمان المسلم، ومعتقده الديني كما يعيشه ويمارسه، وجاءت تلك الكتابات، بوجهٍ عامٍّ، في شكل رسائل يكتبها الحجاج العائدون من مكة المكرمة، خدمةً لمن يرغبون في أداء فريضة الحج مستقبلاً. ولقد تبنّى عدد من العلماء المتخصصين وغيرهم من الكتّاب، هذه الصيغة المبسطة، فجاءت مؤلفاتهم ذات فائدةٍ جمة بالنسبة للباحثين ودارسي العلوم الإسلامية. إن هذه الصيغة التعليمية التي تنهج شكل "سؤال" و"جواب" قد ازدادت شيوعاً بين مناهج المؤلفين، لما حققته، في مختلف الميادين، من نجاح في بلوغ الأهداف المتوخاة[1].

---

(١) نذكر، على سبيل المثال، محمد حميد الله، الذي كان إماماً في المسجد الكبير بباريس في بداية عقد الستينيات. لقد كان من أوائل علماء المسلمين الذين سلكوا هذا النهج في كتابه الذي أصدره سنة ١٩٦٠ تحت عنوان "مقدمة لدراسة الإسلام".
وسار على الطريقة نفسها مفتي سلطنة عُمان في كتيب نشره سنة ١٩٨٦ بالعربية تحت عنوان: "من هم الإباضية؟". وقد تُرجم فيما بعد إلى اللغة الإنجليزية.

مقدمة الترجمة الإنجليزية

إدوين جي كور، وألان إلكن[1]

"أن تكون مسلماً: الإسلام، السلام والديمقراطية" كتاب أشدّ ما تكون الحاجة إليه في هذا المنعطف التاريخي. يتناول فيه صاحب السمو الملكي الحسن ابن طلال، بشكلٍ فريد، الحديث عن جوهر الإسلام وحقيقته، يقدّمه لقادة الغرب السياسيين وحكوماتهم، وللأكاديميين والمفكرين، وللجمهور عامةً.

عرْضُه المركّز والدقيق للإسلام يُعدّ لبنةً أساسيةً، وإسهاماً إيجابياً في التأسيس لمنهج بحث علميٍّ موضوعيٍّ وواقعيٍّ مستديم لطبيعة العلاقات التي يجب أن تسود بين الإسلام والمسلمين، وبين سائر أمم العالم في مطلع القرن الحادي والعشرين. فمما لا شك فيه أن مؤلَّفه هذا سوف يساعد قادة العالم وشعوبه على تحديد مفهوم دقيق للأمن، ورسم آفاقٍ جديدةٍ للتقدّم بخطى ثابتةٍ صوب عالم أفضل يسوده السلام والاستقرار.

لقد عرف العالم، خلال سنوات قليلة، تحولاتٍ جذريةً طرأت على طبيعة النظام الدولي، وعلى المبادئ والسياسات التي تدبّر مصالح الأمن القومي للولايات المتحدة، وغيرها من دول الغرب، وخرجت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها ظافرين من الحرب الباردة. بيد أنها وجدت الساحة العالمية أمامها متأججةً بالصراعات

---

(١) إدوين جي كور (EDWIN G. CORR)، مدير مشارك في مركز البرامج الدولية بجامعة أوكلاهوما، وأستاذ العلوم السياسية فيها، شغل سابقاً منصب سفير للولايات المتحدة في البيرو، وبوليفيا، والسلفادور، كما تولى منصب نائب مساعد لوزير الخارجية الأمريكي. أصدر أربعة كتب، ونشر العديد من المقالات.

الداخلية، وبالنزاعات فيما بين الدول. فثمة دول انجرفت إلى التفكك والتجزئة، وأخرى تتخبط في الفقر والجهل ودكتاتورية الحكام والأنظمة. كما واجهتها أعمال عنف تخريبية متمردة عبر شبكات الجريمة الدولية المنظمة، وعصابات الإرهاب المصرّة على الإطاحة بصولجان الولايات المتحدة، فأظهر تصدّيها لهذا الواقع وتعاملها معه، وجهاً جديداً لها، ظلّ مختفياً تحت ظلال الحرب الباردة أمداً طويلاً. لقد تجلت الولايات المتحدة الأمريكية على حقيقتها المتغطرسة، فقد قاتلت، هي وحلفاؤها، في البلقان وأفغانستان، وحاربت في العراق مرتين، أتت ثانيتهما على نظامه وشعبه ومعالمه وتراثه وثرواته، وكان لها تدخل قوي، أيضاً، في عدد كبير من النزاعات الصغرى. كما أعلنت حرباً لا هوادة فيها على الإرهاب والإرهابيين عبر أنحاء العالم.

إننا نعيش في عالم مبهم غامض الملامح، ونحتاج إلى فك ألغازه بعنايةٍ ودراية وحكمة. فمن واجب جميع الأمم المحبة للسلام أن تعمل، بالموازاة مع الدفاع عن مصالحها الخاصة وحمايتها، على نشر السلام في أرجاء العالم، وتحقيق التنمية الشاملة في مجموع ربوعه. لكن الأمر المحيّر هو ما يبدو من عدم القدرة على تبين العدو الحقيقي للأمن المنشود، وضبطه ومصارعته والقضاء عليه. ومن ثمّ، فإن ما يجب عمله لم يتضح بعد. إن الموارد البشرية والمادية لمواجهة تحديات الإرهاب واستشعاره ومكافحته محدودة جداً، لما يعانيه نمو اقتصادات العالم من تباطؤ مستدام. يوجد حالياً بلدان عديدة غارقة في محاولة استشفاف رؤى متكاملة لوضع خطة واضحة، وبلورة استراتيجية فعالةٍ لتدبير شؤون عالم تقوّض أركانَهُ فوضى عارمة، إلاّ أن اتخاذ مثل تلك التدابير يقتضي، بدءاً وبالضرورة، العمل على تقوية معرفتنا بالعالم الذي نعيش فيه، وضبط إدراكنا لمشاكله.

إن مكافحة الإرهاب ليست أمراً طارئاً، فقبل الهجمات الإرهابية على مدينة نيويورك وواشنطن العاصمة، وقبل الطائرة التي حلقت فوق ولاية بنسلفانيا في ١١

أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، كان الغرب منهمكاً في حرب ضد الإرهابيين، وهم في أغلبيتهم ينتمون إلى بلدان إسلامية، وإن كانوا لا يشكّلون إلاّ نسبةً ضئيلةً جداً من مسلمي العالم، الذين يبلغ تعدادهم ملياراً ومائتي مليون نسمة. مرجعية هؤلاء الإرهابيين في تنفيذ عملياتهم الإرهابية ضد الغرب تفسير راديكالي لمفهوم "الجهاد" في الإسلام، ودعوته إليه. وقد مارست الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها الحرب ضد الإرهاب بغزو أفغانستان للإطاحة بنظام طالبان، وهي تواصل حالياً عملياتها العسكرية لإلقاء القبض على أسامة بن لادن، وسحْق القاعدة، كما أقدمت على غزو العراق واحتلاله عسكرياً، وهي الآن تواجه أخطر مقاومة وأعظمها تحت راية الإسلام.

لاحظ الرئيس ديفيد. بورن، في كتابه "المجتمعات الإسلامية"، أن الغرب يجهل جهلاً تاماً الإسلامَ، وأن آراءه السلبية حوله تعود إلى هذا الجهل وتتغذى منه. إن عدم تعرّفنا على حقيقة أولئك الذين نعدّهم منافسين لنا وخصوماً وأعداءً، ومصدرَ خطر علينا، ونخوض معهم وضدهم حروباً نازفة، لن يزيد الطين سوى بلّة، ولن يفضي إلى التوصل إلى وفاق بيننا وبينهم، ولا إلى رفع كابوس الشعور بالخطر الذي يداهمنا.

إن فهماً عميقاً لهؤلاء الذين نعدّهم أعداءً لنا، وتعاطفنا معهم، أمران أساسيان لكل تحرك يهدف إلى وقف الأعمال العدوانية، وبلورة كل شكلٍ من أشكال الوفاق بأمل الوصول إلى تعاونٍ بنّاءٍ ومفيدٍ للجانبين كليهما.

يقدّم الأمير الحسن، الذي ينحدر، مباشرة، من عترة الرسول محمد، في هذا الكتاب، معلومات ضافيةً، ورؤىً واضحة المعالم، تُعدّ ضروريةً لتحقيق التفاهم المنشود. لقد أجاب إجابةً ممتازةً وسهلةً، وفي الوقت نفسه، غنيةً، عن واحد وأربعين سؤالاً طرحها عليه ألان إلكن، الذي تفضّل بالمشاركة في تحرير هذا التمهيد. والأمير،

بعمله هذا، يبرز حقيقة الإسلام وتعاليمه وأركانه الأساسية وبعده الإنساني. إن تلك الأسئلة التي وجهها لسموّه ألان إلكن، هي الأسئلة نفسها التي ما أنفكّ الكثيرون، الذين يجهلون الإسلام، يطرحونها لمعرفة كُنْه هذا الدين. لقد كرّس صاحب السموّ الملكي حياته لتحقيق السلم والصداقة بين المسلمين واليهود والمسيحيين.

إنه ضليع في فهم القرآن وعلوم الدين الإسلامي، وله اطلاع جيد على التوراة والإنجيل، وكانت له لقاءات وحوارات متعددة مع النخبة من قادة العالم، من رجال دين ومفكرين ورجال أعمال وزعماء سياسيين ومسؤولين حكوميين. وقد كشف سموّه في هذا الكتاب عن صورة جليّةٍ للمسلمين الذي لهم توجّه معتدل، وعن دينهم وتاريخهم. فعلى الغرب، إذاً حسب الأمير الحسن، أن لا ينظر إلى جموع المسلمين الواسعة نظرةً قاصرةً، ويعاملهم كأعداء. من واجبه أن يعدّهم إخوةً يشكلّون جزءاً من العالم، لهم جذور مشتركة مع اليهودية والمسيحية.

إن فهم طبيعة الإرهاب، والحجج المسوّغة له، ومدى تأثيره على مصالح الولايات المتحدة الأمريكية والغرب، هو من مسؤوليات الحكومات القائمة. ونعتقد أن محتويات هذا المؤلف مهمة جداً بالنسبة لواضعي السياسات، لأنها تقود إلى تحليل المواقف وضبطها قبل اتخاذ القرارات، وتستهدف صواب الحلول وإيجابيتها. يفسح الكتاب المجال لممارسة حوار قائم على معرفة أوسع حول موضوع يبدو أحياناً محرجاً وحسّاساً، هو "الإسلام وتأثيره". وإذا كان من مزايا الديمقراطية إقرار حق الاختلاف بين الأذكياء وذوي النيات الحسنة، رجالاً ونساءً، حول طبيعة السياسات والحلول المناسبة لقضاياها، فإن مما يساعد على رسم الخطاطات الملائمة والناجعة، هو اتفاق أطراف الحوار على التشخيص الدقيق للوضع، والتحديد المتمَحِّص للاّعبين في ميدانه.

لا يعالج هذا الكتاب، ولم يكن يعتزم أن يعالج، الإدارةَ الصحيحة للحرب ضد الإرهاب. ولكنه، في المقابل، يعطي معلومات أساسية وآراء مثيرة حول إمكانية تحقّق مستقبل يستطيع فيه كلٌّ من الغرب والعالم الإسلامي العيش معاً بوئام وتعاون.

يتضمن الكتاب، أساساً، أجوبة الأمير، عن أسئلة آلان إلكن، والطرح الذي يقدّمه عن "ماذا يعني أن يكون المرء مسلماً" ويستهلّ ببحثين لسموّه، الأول بعنوان "تقدير تقاليد الآخرين وقيمهم"، والثاني بعنوان :"الإسلام والمجتمع المدني والديمقراطية"، ثم تأتي بعد الأسئلة خاتمة بعنوان "نحو منظومة قيم أخلاقية عالمية للتفاهم الإنساني". يتبع ما تقدم بحثان، أولهما "المجتمعات الإسلامية وآفاقها الديمقراطية" من تحرير ديفيد. بورن، العضو السابق في مجلس الشيوخ الأمريكي، والثاني بعنوان "صدام حضارات، أم علاقات طبيعية مع أمم العالم الإسلامي؟" بقلم السفير إدوارد جي بيركنز، كلاهما يهدف إلى تأطير آراء الأمير الحسن وتعزيزها حول الإسلام والمجتمع المدني. كتاب "أن تكون مسلماً" هو مراجعة وتحديث وتوسيع لمؤلَّف سبق أن نشره الأمير الحسن، وألان إلكن، باللغات الإيطالية والفرنسية والإسبانية، كما أن بحث الأمير حول "الإسلام والمجتمع المدني والديمقراطية" هو، كذلك، مراجعة وإضافات وتحديث لبحث سبق نشره ضمن إصدارات مجلس الأمير[1].

تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٣

---

(١) "الإسلام والمجتمع المدني"، مقال حرره الأستاذان سيدني بروكتو وريتشارد هرس، ونشر مع مجموعة مقالات أخرى في كتاب تحت عنوان "مرحى مرتان للعلمانية"، المملكة المتحدة، مطبعة بيلكينجتون، ١٩٨٩. الفصل ٤، ص ٤٧-٥٢. وقد أعيد نشره في بحث يحمل عنوان "الاستمرارية والإبتكار والتغيير" (Continuity. Innovation and Change)، "أبحاث منتقاة". مجلس الحسن، الأردن، عمان، ٢٠٠١، الفصل ٢، ص ٧-١٦.

تصدير الترجمة الفرنسية

ألان إلكن[1]

ها قد مرّت سنوات عدّة على وجودي في البرازيل أمام شلالات الأغواسول، بصحبة مبشّر مسيحيٍّ إيطاليٍّ، سألته:

-إذا كان لا يوجد إلاَّ إله واحد، فلماذا توجد أديان عديدة؟

أجابني قائلاً:

-هل ترى هذه الشلالات؟ نشاهدها نحن من البرازيل، ويراها بعضهم من البروغواي، في حين يراها آخرون من الأرجنتين، ومن ثمّ تبدو مختلفةً، رغم أنها دائماً واحدة، وهي نفسها.

إنها صورة تؤكد لنا أن تعدد الأديان لا يقتضي حتماً وجود آلهةٍ متعددة. إذاً، بالرغم من أنه لا يوجد سوى إله واحد، من الممكن أن توجد أديان مختلفة، وتتعايش شعوبها التي تؤمن بهذا الإله الواحد في سلمٍ، يحترم بعضُها بعضاً.

ذاك ما يراه بعض المفكرين، ويدعون إليه، ويكافحون من أجله. إلاّ أنهم -ويا للأسف - قلة. من بين هؤلاء المفكرين صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن بن

---

(١) ألان إلكن (Alain Elkan)، كاتب وصحافي فرنسي شهير، يعيش في إيطاليا ويعمل في وزارة الثقافة الإيطالية والتلفزيون الإيطالي، أصدر عدداً من الكتب يضم بعضها أحاديث وحوارات أجراها مع عدد من الشخصيات العالمية والقيادات السياسية والفكرية الكبرى، نذكر من بينها "حياة مورافيا وبومبالي" (١٩٨٩، ترجم إلى خمس عشرة لغة)، و"ديداليف"، موند دوري، صدر سنة ١٩٨١ وأعيد نشره سنة ١٩٨٢، وحاور صاحبَ السمو الملكي الأردني الحسن بن طلال، وصدر الحوار في كتاب "أن تكون مسلماً"، باللغة الإيطالية، وترجم إلى عدد من اللغات.

طلال، من المملكة الأردنية الهاشمية.

لقد شاءت الصدفة أن أتعرّف عليه خلال سفر إلى عمّان، وأن نلتقي من جديد في جنيف، ثم في ميلانو، وأن تنجب لقاءاتنا وأحاديثنا كتاباً صغير الحجم، ولكنه كثيف المادة، وذو فحوى مهمة جداً.

لقد أجاب الأمير، الذي ينحدر، مباشرةً، من سلالة النبي محمد، بكيفية لبقةٍ وبسيطةٍ وعميقةٍ، تبرهن، في الوقت نفسه، على ضلاعته المعرفية، عن ثمانية وأربعين سؤالاً تتعلق بالإسلام والمسلمين، وكيفية صلاتهم، وكيف يعيش هؤلاء الإخوة الذين لا يزال الغرب ينظر إليهم كأشخاص خطيرين غير مرغوب فيهم، أو على أنهم "ملوك بترول" يريدون أن يجعلونا نركع لهم.

لقد كرّس هذا الأمير الفيلسوف حياته لخدمة السلم، فجعل من نفسه سفيراً له، وللصداقة بين الأديان التوحيدية، أي بين المسلمين والمسيحيين واليهود. إن لسيد الصحراء هذا، اطلاع واسع على تعاليم الأديان الثلاثة، وفهم دقيق للقرآن والتوراة والإنجيل. كانت لصاحب السموّ لقاءات متعددة، عبر مختلف أنحاء العالم، بأكابر أصحاب الرتب والمراكز العليا من العلماء والفقهاء المسلمين، ورجال الدين اليهود والمسيحيين، وعدد من المفكرين والسياسيين، ورؤساء الدول والحكام. وقد لبّى رغبتنا في التعرف على آرائه حول تلك الأسئلة، فرسمت لنا أجوبته الدقيقة والواضحة، التي يضمها هذا الكتاب، لوحةً صادقةً، معتدلةً وواضحةً، عن أمته الإسلامية وتاريخها، وعن دينه وتعاليمه وأخلاقياته.

هكذا، تساعد الصفحات التالية على إدراك بعض المفاهيم الأساسية للإسلام، هذا الدين الذي يجب أن ننظر إليه نظرة تآخٍ، لا نظرة عداءٍ، ونتعامل معه كدين له جذور مشتركة مع اليهودية والمسيحية.

إن الحسن، صاحب هذا الفكر النيّر، رجل عصري، أب أسرة وأمير. يعيش داخل قصور السلطة، ويتابع من قرب تقلبات التاريخ وزوابعه، تشهد آراؤه ومواقفه وسلوكاته على بليغ حكمته، وما يتميز به من رصانةٍ واتزان، وندرك عبرها أنه إنسان جعل من القلب والعقل والحوار والتفاؤل نهجه في الحياة، يقول: "يجب أن لا نفقد الثقة، أبداً، في تفوق الخير وسيادة السلام". إن أقواله معزَّزة دائماً بأفعاله. سافر منذ بضعة أشهر إلى أوشويتز (Auschwitz)، وتحدث مع سيمون بيريس، ومع الحاخام الكبير سير (Sirat)، والكاردينالات: مارتيني (Martini)، وكاسيدي (Cassidy)، وراتزنجر (Ratzinger). (الذي أصبح فيما بعد البابا بندكتوس السّادس عشر) إن أحاديثه عن السلام تشدّ الرحال إلى أنحاء العالم المختلفة، يذيعها من سمرقند إلى لشبونة، ومن باريس إلى واشنطن، ومن ميلانو إلى القاهرة...

تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٠

القسم الثاني

أن تكون مسلماً

الإسلام في متناول الجميع

صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن بن طلال

حاوره : ألان إلكن

١ - من هو الإنسان المسلم، أو ماذا يعني أن تكون مسلماً؟

الإنسان المسلم، أو أن تكون مسلماً، يعني أن تشهد بوجود إله واحد أحد، لا شريك له، رغم أنك لا تدركه بالبصر، إذ يَرى ولا يُرى؛ وأن تؤمن بأن الله كامل القدرة، كلّي الوجود، وأنه هو العزيز، القوي، الجبار، المهيمن، العليم بكل شيء، خالق الأكوان. أودع الإنسان في هذا العالم، وجعله خليفته في الأرض، وحمَّله أمانة تدبير شؤونه على وفق أوامره ونواهيه الإلهية التي يوحي بها لأنبيائه ورسله. ويشهد المسلم، كذلك، أن محمداً رسولُ الله وخاتم الأنبياء والمرسَلين، أوحى إليه الله بتعاليم وآيات محكمات نزّلها عليه في كتابه المقدس: القرآن، كتاباً مُنْزَلاً محفوظاً، لا يأتيه الباطل ولا يلحقه التحريف: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ • لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ (فصلت، ٤١ - ٤٢). ولا يكتمل إيمان المسلم بالله وكتبه ورسله إلاّ بالإيمان بالآخرة وبالحساب والجزاء، وبجميع الكتب المنزلة والرسل والأنبياء الموحى إليهم قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم طبقاً لما جاء في القرآن الكريم: ﴿**الم • ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ • الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ • وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ**

وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ• أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١-٥). إيمان المسلم هذا نابع عن اعتقاده بعمق تجذر واجب العبودية لله منذ أن خُلق الكون: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦). يبذل المسلمون كلّ ما في وسعهم للامتثال للتعاليم الإلهية التي تفرض عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهم، أفراداً وجماعات، سيحاسَبون أمام الله يوم القيامة، ويُسألون ليس فقط عما كانوا يفعلون في الدنيا، بل، أيضاً، عن نياتهم فيما صدر عنهم من أفعال.

٢ -ما هو شعوركم كسليل للعترة النبوية؟ وأية مسؤولية يضعها على عاتقكم انتماؤكم المباشر إلى سلالة النبي محمد؟

يَعُدّ الإسلامُ، ضمنياً،جميعَ معتنقيه متساوين في التكليف، من دون اعتبار لأحسابهم وأنسابهم، فأقرب الخلق إلى الله أتقاهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣). وتتفاوت منزلة العباد عند الله بحسب سلوكهم وامتثالهم لأوامره، ومعاملتهم للناس، وما يقدمونه من أعمال الخير للبشرية. لذا، وعلى وفق ما ذكرت، فإن الانتساب المباشر إلى سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكون المرء من آل بيته، لا يعني أنه أفضل من أي مسلم آخر، ولا يخوّله أي امتياز. لكن، يسجّل التاريخ أن آل البيت كانوا على امتداد العصور يقدّرون حجمَ ما يحمّلهم هذا النسب، أكثر من سواهم، من مسؤولية خدمة مجتمعاتهم، والذود عن مصالح المسلمين، وحماية حقوقهم، والدفاع عنهم ضد كل هجوم، بما يجب من رصانةٍ ووعي تامٍّ لعظمة المسؤولية وأبعادها وحدودها. كما يثبت السجل التاريخي، من خلال سيرورة الأحداث المتعاقبة، أن المسلمين كانوا، عبر مختلف المراحل، يتطلعون دائماً إلى من ينتمون إلى آل البيت، أو بتعبيرٍ آخر أفراد أسرة

النبي، لقيادتهم، ويرجعون إليهم لنصحهم في الفترات العصيبة كلما ألمّت بهم الملمات والأزمات، وكلما تعرضت الأمة الإسلامية لأخطار تتهدّدها من الخارج، واستشرى الشقاق والتنافر في صفوفهم، ووجدوا أنفسهم منقسمين في الداخل.

إن انتمائي إلى آل البيت لا يجعلني أعدّ نفسي، أصالةً، أفضل من أي مسلم آخر، بل يعطيني إحساساً، إن لم أقل يقودني إلى الاعتقاد بأني ملزم، بصفةٍ خاصةٍ، بالدفاع عما يشكل، في نظري، المصالح العليا لإخواني المسلمين، والعمل على تعزيز مكانتهم في عالمنا المعاصر، وذلك ضمن الإطار العام لمصالح الإنسانية، ومن دون أحكامٍ مسبقة تجاه الآخر، أو تعصبٍ وتمييز ضد أي أحد كان.

٣ -كم عدد المسلمين في العالم؟

تثبت أحدث التقديرات الإحصائية أن المسلمين، من جميع المذاهب الإسلامية، يحتلون الرتبة الثانية بعد المسيحيين، إذ يُعدّ الإسلام الديانة الثانية في العالم. وتسجل التقديرات نفسها أن عدد المسيحيين يبلغ نحو ملياري نسمة، وعدد المسلمين ملياراً ومائتي مليون مسلم، أي تقدر نسبة المسيحيين بنحو ٤٠,٨٠ ٪ من سكّان العالم، ونسبة المسلمين بنحو ٢٣,٥ ٪.

٤ -هل كان محمد نبياً مثل موسى وعيسى؟

إن المسلمين يؤمنون بنبوّة موسى وعيسى وبرسالتيهما، إيمانهم بنبوّة محمد ورسالته، امتثالاً لتعاليم القرآن كما تنص على ذلك الآية الكريمة: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾ (البقرة: ٢٨٥)، كما تنص آيات أخرى على أن الله أوحى إليهم بكلامه، فأنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**﴾ (المائدة: ٤٤)، و﴿**وَقَفَّيْنَا**

عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٤٦)، و﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٤٨). إن الرسالة التي جاء بها جميع الأنبياء واحدة، هي الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، والامتثال لأوامره. وقد بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم خاتماً لأنبيائه، ومثبتاً لتلك الرسالة، ومتمماً لها، ومصحّحاً لما حرّفه اليهود والنصارى من التعاليم الإلهية المنزلة عليهم في التوراة والإنجيل، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ • اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠-٣١). ولو لم يقع ذلك التحريف لما كان يوجد اختلاف بين أصحاب الديانات التوحيدية الثلاث.

٥ -ما هي التعاليم التي جاء بها محمد؟

انطلق نشر تعاليم الدين الإسلامي بتلاوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم لما يُنزل عليه من آيات الذكر الحكيم، والدعوة إلى الإيمان بأن القرآن كلام الله الأزلي، أوحى به الله إليه بلسان عربيٍّ مبين: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ • نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ • عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ • بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥)، والدعوة أيضاً إلى الإيمان بأن محمداً رسولُ الله وخاتم أنبيائه ورسله، بعثه ليهدي الإنسانية إلى الطريق المستقيمة. وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تلقين القرآن للناس، وتحفيظهم له، وحثهم على الامتثال لتعاليمه التي توضحها أحاديثه وسيرته. يَعدّ المسلمون السنة النبوية،

أي أحاديث النبي وأقواله وأفعاله وتقريراته، هي أيضاً كالقرآن الكريم، مصدراً للتشريع الإسلامي واستنباط الأحكام، يستندون إليها في فهم بعض تعاليم القرآن وتوضيحها واستكمالها، فمثلاً، يُستنبط الربط، في الإسلام، بين العمل والنية من حديث نبوي يقول: "إنما الأعمال بالنيّات". وحددت السنة النبوية كيفية أداء الصلاة بعد أن أمر القرآن بها، فصلّى المسلمون كما كان الرسول يصلي، امتثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم: "صلوا كما رأيتموني أصلي". وكان ذلك الشأن نفسه بالنسبة لجميع الشعائر الدينية التي جاءت بها التعاليم القرآنية، مثل صوم شهر رمضان، والحج إلى مكة. لقد كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يدعو المسلمين إلى انتهاج السلوك الحسن، والتحلي بالأخلاق الفاضلة التي يتحقق لهم بها الجمع بين خير الدارَين، الدنيا والآخرة، والاستهداء بنور الإيمان بالله الواحد الأحد، والاقتداء بأنبيائه ورسله، والعمل بأوامره والكف عن نواهيه، والإكثار من أعمال الخير ومراعاة ما ينتظر العباد يوم القيامة من حساب وجزاء.

٦-ما هو تصور المسلمين عن الله؟ أو بتعبير آخر: ما "الله" في العقيدة الإسلامية؟

• لفظ "الله" هو الاسم العربي للإله. يستعمله، على السواء، عرب الديانات السماوية الثلاث، اليهود والمسيحيون العرب والمسلمون، للتعبير عن الذات الإلهية (Deity)، وهو ليس اسماً خاصاً بالمسلمين، إذ لا يوجد في اللغة العربية اسم آخر للإله سوى "الرّب" بمعنى "السيد" التي يستعملها، كذلك، اليهود والمسيحيون العرب. ثمة أوصاف متعددة للذات الإلهية، يُطلق عليها أسماء الله الحسنى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ (الأعراف: ١٨٠)، نذكر من بينها، على سبيل المثال، ما تنص عليه الآية الكريمة: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ • هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ • هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ**

﴿الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٢-٢٤).

لا يختلف الإسلام عن اليهودية والمسيحية في الإقرار بأن الله خالق العالم، وإليه المنتهى، وأنه هو المثل الأعلى للنسق الأخلاقي. كما أن صفات الله كأسمائه، هي أيضاً، لا تختلف في الأديان السماوية الثلاثة. إنها هي هي، متطابقة، باستثناء صفة التثليث في العقيدة المسيحية المحرّفة، التي ينفيها الإسلام، ويؤكد القرآن تناقضها مع وحدانية الله المطلقة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ (النساء: ١٧١).

٧ -ما نوع العلاقة التي تربط المسلمين بالله؟ وما هي وسيلة تواصلهم معه؟ وكيف يؤدّون صلاتهم؟

لا يوجد في الإسلام أي وسيط بين الإنسان والله كالراهب في الكنيسة المسيحية، فالتواصل بين المسلم وخالقه يتم بشكل مباشر، منه إليه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠). بناءً على ذلك فإن أداء المسلم، ذكراً أو أنثى، لأية فريضة من فرائض دينه، كالصلوات الخمس اليومية، وصوم رمضان، وأداء الزكاة، يتم باستجابة منه للأمر الإلهي، فينوي الصلاة، أو الصوم، إلخ... إن أداءها مسؤولية يتحملها هو وحده، وإليه يعود شأن الحرص على القيام بها، وتعويض ما فاته أداؤه منها. إن وعيه لعلاقته المباشرة مع الله، واعتباره للحساب والمساءلة أمامه يوم القيامة هو الرقيب الذي يجعله يؤديها أو يعوّض، مثلاً، ما فاته من صلاة، أو صوم في شهر رمضان، أو يستدرك أداء زكاة لم يخرجها، إذ

ليس بالإمكان إعمار قلب الإنسان بالإيمان رغماً عنه، كما تنص على ذلك الآية القرآنية: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة، ٢٥٦)، وكما جاء في خطاب الله للرسول محمد: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

ليس ثمة مكان محدد يُفرض على المسلم أداء صلاته فيه، إذ يمكنه أن يصلي أنى كان، وحيثما تيسر له: في بيته وفي مكان عمله وعلى حافة الطريق، وداخل المسجد. كما يمكنه أن يصلي على انفراد، أو مع جماعة من المسلمين يتولى أحدهم إمامة الصلاة. قبل أداء الصلاة يتوضأ المسلمون بكيفية محددة شرعاً للتطهر، مضمرين نية أدائها. ثم يقفون مولّين وجوههم إلى القبلة، شطر المسجد الحرام حيث الكعبة، ويصلون. وبعد إنهاء الصلاة يمكنهم أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء ملتمسين منه العون والمغفرة والرحمة.. وحرصاً على التأكد من طهر البقعة التي يصلون فوقها، طبقاً لما تقتضيه شعائر الإسلام، يحتفظ الكثيرون منهم بسجادةٍ خاصةٍ للصلاة، يحملونها معهم حيثما ذهبوا. ويجوز للمسلم أن يصلي من غير سجادٍ، فوق أراضي الطبيعة العارية، لأنها تُعدّ، شعائرياً، طاهرةً لتعرّض تربتها باستمرار للهواء والشمس، أما الشوارع وأراضي مباني المنازل والمكاتب والمعامل فيُحتمل أن لا تكون أراضيها طاهرةً، لذا لا بد من فرش سجادٍ للصلاة. وكذلك الشأن بالنسبة للمساجد، لذلك تُفرش أراضيها ببسطٍ وحصائر. وبداخلها يؤدي من يريد من المسلمين، رجالاً ونساءً، صلواتهم الخمس اليومية أو بعضها، جماعةً أو على انفراد، كما يؤدي فيها الرجالُ امتثالاً لتعاليم الإسلام، وكذا من تريد من النساء، صلاةَ ظهر يوم الجمعة جماعةً بعد أن يلقي الإمام خطبة الجمعة. ويجوز، من حيث المبدأ، لكل مسلم تتوفر فيه شروط الإمامة أن يكون خطيباً، بيد أنه غالباً ما يجري تعيين الأئمة من لدن المسؤولين احتساباً لتلك الشروط، والقصد من إسناد هذه المهمة إلى أشخاص معينين تسهيل القيام بهذا الواجب. ويحظى الأئمة

مقابل ذلك بتقدير عامة الناس واحترامهم، لكن الإمامة لا تخولّهم أية سلطةٍ دينيةٍ على أي مسلم.

٨ -ما هي تعاليم القرآن؟

تعاليم القرآن الأساسية هي الإيمان:

أ- أن الله واحد، متعال، كلي القدرة، كلّيّ الوجود، عزيز، جبار، مهيمن، حي، قيّوم، عليم بكل شيء..

ب- أن الناس جميعاً، أفراداً وجماعات، عبادُ الله وخلفاؤه فوق الأرض، وهم مسؤولون عن حسن تدبير شؤون الأرض، واستغلال مواردها، والحفاظ على خيراتها كافة؛ قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الأنعام، ١٦٥)، ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ**﴾ (فاطر، ٣٩).

ج- أن الناس جميعاً، أفراداً وجماعاتٍ، سيُسألون عن جميع أعمالهم، ويحاسَبون عليها يوم القيامة الذي هو آتٍ لا ريب فيه: ﴿**لِيَجْزِيَ اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ (إبراهيم، ٥١)، ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾ (آل عمران، ٢٥).

د- أن الناس جميعاً مُلزمون بطاعة الله، والامتثال لأوامره ونواهيه، وأداء فرائض العبادة، والتحلي بالقيم الأخلاقية ومطالب الشريعة، سلوكاً ومعاملات: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**﴾ (النور: ٥٤)، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ (النساء: ٥٩).

٩ -هل يعدّ القرآن بالنسبة للمسلمين بمثابة التوراة بالنسبة لليهود، والإنجيل بالنسبة للمسيحيين؟

يؤمن المسلمون، طبقاً للعقيدة الإسلامية، بالقرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وبالكتب السماوية المنزلة قبله؛ التوراة والإنجيل الموحى بهما إلى موسى وعيسى. فالقرآن كلام الله الأزلي محفوظ كما أنزل وحياً، لم ولن يلحقه باطل، ولا تحريف أو تغيير: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر: ٩)، وذلك خلافاً لما لحق التوراةَ والإنجيل من تحريف بعض التعاليم كما تنصّ على ذلك بعض الآيات القرآنية.

١٠ -كيف ينظر المسلمون إلى الديانات الأخرى؟ وما رأيهم فيها؟

ينص القرآن على أن الإسلام هو الدين الأول الذي آمن به إبراهيم بهدايةٍ من الله حين أسلم وجهَهُ إليه وأقر بوحدانيته، وأن أنبياء الإسلام المبجلين قبل محمد، هم إبراهيم الذي كان مسلماً حنيفاً، وموسى وعيسى اللذان سارا على نهجه في الدعوة إلى وحدانية الله والاستسلام له. وحين بدأ اليهود، ومن بعدهم النصارى، يحرّفون الكلم عن مواضعه، ووقعوا في أخطاء عقائدية فادحة، بعث الله النبي محمداً صلى الله عليه وسلم لإصلاح ذلك التحريف بتجديد الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد، والامتثال لما أوحي إليه من تعاليم قرآنية، ناهجاً في ذلك طريقِ الإقناع والجدل بالتي هي أحسن: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (العنكبوت، ٤٦). فآمنت طائفة من "أهل الكتاب" بما أنزل إليه مصححاً لما بين يديه مما حُرّف من التوراة والإنجيل، وتمادت طائفة أخرى في خطئها رافضةً الاعتراف بالرسالة المحمدية. ورغم ذلك ظل المسلمون يعيرونهم اعتباراً خاصاً، ويحترمونهم لإيمانهم جميعاً بالله الواحد الأحد، وباليوم

الآخر يوم البعث، حيث ستقف البشرية جمعاء مسؤولةً أمام الله للحساب والجزاء، ويبادلونهم السلم وحفظ العهد، ويعاملونهم بتسامحٍ كبيرٍ. فلقد كان لطوائف اليهود والنصارى الذين كانوا يعيشون بين ظهراني المسلمين في دار الإسلام، ويحترمون النظام الإسلامي القائم، ليس فقط كامل الحرية، والاطمئنان إلى ممارسة طقوسهم الدينية وأعرافهم وتقاليدهم الخاصة، بل إضافةً إلى ذلك تعهدت السلطة القائمة برعايتهم، وضمان أمنهم، وحمايتهم من كل ما قد يتعرضون له من اعتداء وتهديد لحياتهم، ومما يضّيق عليهم الخناق في أداء مناسكهم الدينية، وكسب معاشهم طبقاً لقوانين خاصة بمن اصطُلح على تسميتهم "أهل الذمة"، فارتبط مفهوم هذا المصطلح تاريخياً بوضع طوائف اليهود والنصارى المقيمين في المناطق التي تقع تحت حكم المسلمين، أي الجماعة التي كانت حمايتها في ذمة المسلمين، ورعاية أمورها الدنيوية والمجتمعية موكولة إليهم. هكذا عاملت الشريعةُ الإسلامية أهلّ الذمة من سائر الطوائف الدينية غير المسلمة، التي كانت تقيم بين ظهراني المسلمين في البلدان التي فتحوها، وأصبحت تحت سيادتهم بتسامحٍ ليس أقل مما كانت تعامل به المسلمين.

١١ -هل توجد وحدة قائمة بين مسلمي العالم أجمع؟

يشكّل المسلمون، من وجهة نظر الإسلام، أمةً واحدةً، من دون اعتبار لاختلافاتهم، عرقيةً كانت أو لغويةً أو غيرها: ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء: ٩٢). ورغم أن العالم الإسلامي يضمّ، منذ القرون الأولى لمجيء الإسلام، شعوباً ودولاً متعددةً لها مصالح مختلفة تمليها ظروفها الحيوية والجغرافية، تسعى كل واحدةٍ منها، في استقلال عن الأخرى، إلى تحقيقها، فإن ما تبلور عند كل منها من مشاعر الانتماء للإسلام وأمته يشكّل آصرةً قويةً تشدّ المسلمين بعضهم إلى بعض. لا تزال تلك المشاعر تنمو وتتقوى إلى يومنا هذا عند جميع الأفراد والجماعات

والشعوب الإسلامية حيثما وجدت. ولا يعني توحّد مشاعر المسلمين، رغم اختلاف جنسياتهم وانتماءاتهم العرقية، أنهم يشكّلون وحدةً عصبيةً، ويقفون معاً، وإلى الأبد، في وجه غيرهم من الأمم، بل يعني أنهم أنّى كانوا، عبر مختلف أنحاء العالم، يتضامنون فيما بينهم، ويهتمون بأوضاع بعضهم بعضاً، ويتآزرون ويتعاونون من أجل تحقيق طموحاتهم ومصالحهم بوصفهم مسلمين، خصوصاً حينما يتأكدون من أن دواعي تضامنهم تستند إلى مبررات مشروعة قانونياً وأخلاقياً. وحيث أنهم يؤمنون بأن الإسلام جاء للناس كافة، وأن مبادئه وتعاليمه تتميّز بالبعد الشمولي الكوني، وتدعو إلى الاهتمام بمصالح الناس جميعاً، فإنهم لا يقصرون جهداً في الاهتمام بأوضاع غيرهم، ومراعاة حسن التعايش معهم.

١٢ -هل يوجد عند المسلمين جهاز مركزي يختص بسلطة دينية عليا؟

لا يوجد في الإسلام أي تنظيم، أو جهاز ديني مركزي يمارس سلطات روحية على المسلمين، فكما ذكرت سابقاً، لا وسيط بين المسلم والله، فعلاقته به، وتواصله معه تقومان بشكل مباشر: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦)، لكن جرى التقليد، كما ينقل ذلك التاريخ، أن يخصّ العامةُ والخاصةُ العلماءَ المتفقهين في الدين والشريعة الإسلامية بمكانةٍ متميزةٍ، وتحظى فتاواهم وآراؤهم حول الشؤون الدينية والفقهية بتقديرٍ كبيرٍ، وقبول من لدن الجميع، كما أن لأحكامهم التشريعية المتعلقة ببعض المعاملات الدنيوية، ومواقفهم من شؤون المصلحة العامة تأثيراً كبيراً في المجتمعات الإسلامية. ذاك ما يفسّر خاصية إسناد الدول الإسلامية إلى عام ١٩٢٤ إدارةَ المؤسسات الدينية والمحاكم الشرعية إلى فئة العلماء، وتكليفهم بتدبير شؤونها، إلى جانب الخليفة الذي يتولّى مسؤولية رعاية معظم مهام أمة الإسلام، والبتّ في شؤونها.

١٣ -هل تُعدّ مكة المركز العالمي للمسلمين؟

ينصّ القرآن على أن الكعبة التي تتوسط، فعلاً، المسجدَ الحرام بمكة المكرمة، كانت أولَ بيت وُضِع للناس فوق الأرض لعبادة الله الواحد الأحد: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ • فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران: ٩٦-٩٧). وضع أول حجر فيه إبراهيم عليه السلام، أول المسلمين وأول من آمن بوحدانية الله، وأقام قواعده على تقوى من الله بمساعدة ابنه إسماعيل، واتخذه مقاماً: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧). اعتباراً لهذه الخصائص، وحيث ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٩٧)، وامتثالاً لتعاليم القرآن، يقدّس المسلمون الكعبة، بيت الله الحرام، ويَعدّونها أقدس بقعة دينية على وجه الأرض، وليس لكونها، جغرافياً، مركزاً للعالم، فهم لا يعتقدون بذلك. إضافة إلى أنها القبلة التي يولّي جميعُ المسلمين وجوهَهُم شطرها عند أداء صلواتهم اليومية، ويطوفون حولها تعبّداً، وعند أداء مناسك الحج والعمرة.

١٤ -لماذا يجب على المسلمين أداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام بمكة؟

يأمر القرآن كل مسلم قادر على أن يتحمل أتعاب السفر بأداء فريضة الحج إلى مكة، كي يطوف حول الكعبة ويصلّي إزاءها، ويقف بعرفات، ويؤدي مناسكَ وشعائرَ دينيةً محددةً. وشرطُ الاستطاعة يجعل فريضةَ الحج آخر ركن من أركان الإسلام الخمسة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران، ٩٧). أما الأركان الأربعة الأخرى فهي، حسب ترتيبها: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وصوم رمضان، وإيتاء الزكاة. يذهب الحُجّاج إلى أقدس بقعة أقيمت فيها الكعبة، أول بيت وضع لعبادة الله، يتوجه المسلمون شطرها لأداء صلواتهم اليومية. ويُعدّ الحج مناسبةً دينيةً لتجمّع عددٍ كبير من المسلمين

الذين يأتون من جميع بقاع الأرض، مُحرِمين، يرتدي رجالهم لباس إحرام محدداً وموحداً، يساوي بين أغنيائهم وفقرائهم، وبين خاصتهم وعامتهم. يجسد الإحرام، مع مختلف شعائر الحج ومناسكه، جانباً من مقاصد الإسلام المتمثلة في المساواة بين جميع المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وهم يؤدون هذه الفريضة، الأمر الذي يذكّرهم، ويذكّر جميع المسلمين، بمشهد يوم القيامة والبعث.

١٥ -ما هي الصلاة في الإسلام؟

تأمر تعاليم القرآن المسلم المصلّي أن يقف، حيثما وُجد، أمام القبلة، ويدير وجهة شطر الكعبة بالمسجد الحرام، ثم يؤدي صلاته بقضاء عدد ركعاتها امتثالاً لأوامر الله. كان المسلمون يولّون وجوههم عند الصلاة شطرَ بيت المقدس، لكن ظلّ قلب الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، بعد أن هاجر إلى المدينة، معلّقاً بالكعبة، ويتمنى لو أنها قبلة للمسلمين، فاستجاب الله لأمنيته، وأنزل أمره بتحويل القبلة شطرها: ﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ (البقرة، ١٤٤).

عدد الصلوات التي يجب على المسلم في اليوم، طبقاً لما جاء في سنّة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، خمس، هي: صلاة الصبح فجراً (تجب فيه ركعتان)، صلاة الظهر زوالاً (أربع ركعات)، صلاة العصر في منتصف الزوال (أربع ركعات)، صلاة المغرب وقت غروب الشمس (ثلاث ركعات)، صلاة العشاء عند انسدال الليل (أربع ركعات). إضافة إلى هذه الصلوات "الفروض"، أو "الواجبات"، يصلّي من يريد من المسلمين، اقتداءً بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، واتّباعاً لسنّته، ركعات "نوافل"، قبل كل صلاة مفروضة وبعدها، باستثناء صلاة العصر حيث لا صلاةً بعدها إلى أن يؤذن المؤذّن لصلاة المغرب. كما يمكن للمسلم أن يصلي في جوف الليل عند الهجيع، وقبل صلاة الفجر، وعند الضحى.

١٦ -ما هو شعور المسلمين عند توجههم إلى الله لأداء الصلاة؟

عندما يُقبل المسلمون على أداء الصلاة يخامرهم شعور بأنهم سيكونون في حضرة الله، فيقفون موجّهين وجوهَهُم صوب القبلة، مطأطئين رؤوسهم خشوعاً لهيبة الموقف، واعترافاً بعظمة الله، وتأكيداً لخالص إيمانهم به. يسبّحون بحمده، ويتضرّعون إليه في سجودهم، ملتمسين غفرانه ورحمته، وراجين هدايته وإغداق نعمه عليهم. يتكرر ذلك في كل صلاة. وهذا يعني أنهم يقومون بواجب عبادتهم لله في كل حين، وشكرهم له، وتعلّقهم به، ما يفضي، حتماً، إلى تحليهم بسامي القيم والأخلاق الفاضلة، وسلوكِهِم سلوكاً حسناً، ومعاملتِهِم الناس معاملةً ترضي الخالق.

١٧ -كم مرة يجب على المسلمين أن يذهبوا إلى المسجد يومياً؟

يمكن للمسلمين، ذكوراً وإناثاً، أن يذهبوا إلى المسجد مرات عدّة في اليوم، ليصلوا جميع صلواتهم الخمس به، أو بعضها فقط، كما يمكنهم أن يؤدّوا جميع صلواتهم اليومية خارجه، وأن لا يذهبوا إلى المسجد طوال أيام الأسبوع، وذلك حسب ما يناسب كل فرد وظروفه واختياره. ما عدا يوم الجمعة، حيث تفرض تعاليمُ الإسلام على الرجال أداء صلاة الظهر جماعةً بالمسجد، ما يشكّل مناسبةً إجباريةً لتجمّع المسلمين وتعارفهم وتوادّهم. ويمكن لمن ترغب من النساء في أداء فريضة الجمعة جماعةً أن تذهب، هي أيضاً، إلى المساجد، حيث يوجد في كثير منها جناح خاص بالنساء. يُشترط في دخول المسجد نظافةُ اللباس والطهارة. وعلى المسلمين أن يدخلوا المساجد بثياب نظيفة تقديراً لبيت الله، وامتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١).

١٨ -كيف تُؤدّى الصلاة في الإسلام؟

يبدأ من يريد الصلاةَ بالوضوء، ثم يقف في مكانٍ طاهر، مستورَ العورة، موجّهاً وجهه شطر القبلة وينوي، سراً أو جهراً، أداءها، ثم يفتتحها رافعاً يديه بتكبيرة الإحرام، فيقول باللغة العربية: "الله أكبر"، ثم يسدلهما ويتلو الفاتحة وما تيسّر من آيات القرآن، أو سورة قصيرة، وذلك جهراً في صلاة الصبح، والركعتين الأوليين للمغرب والعشاء، بعد ذلك ينحني راكعاً بوضع الكفين على الركبتين، ويردد في أثناء الركوع: "سبحان ربي العظيم" ثلاث مرات، ثم ينتصب رافعاً رأسه وقائلاً، إن كان يصلي على انفراد أو إماماً: "سمع الله لمن حمده"، وإن كان مأموماً "ربنا ولك الحمد"، ثم ينحني من جديد فيسجد مرتين واضعاً جبهته وأنفه وكفيه وركبتيه وأصابع قدميه على الأرض مردداً: "سبحان ربي الأعلى" ثلاثاً، وبذلك تنتهي الركعة الأولى. ثم يقف المصلي للركعة الثانية ويأتي بما تقدم في الركعة الأولى، ويقرأ التشهد كله، وبذلك تنتهي صلاة الصبح. وبالنسبة للصلوات الأربع الأخرى فيكتفي بقراءة التشهد من أوله إلى "محمد عبده ورسوله"، وبعد أن يرفع رأسه من السجود الثاني يقوم للركعة الثالثة من غير تكبير إلى أن يستوي قائماً فيكبّر، ويأتي بما أتى به في الركعتين الأوليين، وبعد الرفع من السجود الثاني في الركعة الأخيرة يقرأ التشهّد كله، ثم يأتي بالسلام، فيلتفت إلى اليمين قائلاً: "السلام عليكم"، إن كان مأموماً يشير إلى الأمام بالسلام، وإن كان على يساره غيره يشير إليه بالسلام أيضاً، وبذلك تتم الصلاة.

تختلف صيغة التشهّد قليلاً من مذهب فقهيٍّ إلى آخر، ولكنها تنتهي في جميع المذاهب بالتحية، وإدارة المصلي وجهه جهة اليمين، ثم جهة اليسار قائلاً: "السلام عليكم". صيغتها عموماً هي: "التحيات لله، الزاكيات لله، الطيبات الصلوات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله تعالى وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأشهد أن الجنة حق،

وأن النار حق، وأن الصراط حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور. اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليتَ على إبراهيمَ وعلى آل إبراهيمَ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ في العالمين إنك حميد مجيد".

١٩ -هل تشبه الصلاةُ في الإسلام الأناشيدَ والتواشيح الدينية؟ وهل توجد صلوات خاصة، أو دعوات تقومون بها على انفرادٍ؟ وهل عندكم رهبان في دينكم؟

يمكن للمصلي المسلم أن يتلو ما يصلي به من أي القرآن وسوره، أو يرتّله، كما يمكنه أن يجوّده ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾(المزمل، ٤). لكن، الغالب في صلاة الجماعة أن يرتّل الإمام ما يختاره للصلاة. وباستثناء الصلوات المفروضة فإن لكل مسلم كامل الحرية في أن يتواصل مع الله كما يشاء، بالتضرع والدعاء، وبالصلوات النوافل، شريطة أن لا ينقاد إلى الرهبنة، إذ بالرغم من أن الإسلام يحبذ الورع وبعض مظاهر الزهد المعتدلة في الحياة اليومية ويَعدّها فضيلةً، إلا أنه يرفض الرهبانية ولا يزكّيها، ويرفض كل وسيط بين العبد وربه مما يشبه الراهب في المسيحية، ولا يمكن أن يُسمّى راهباً مسلماً، فلا رهبانية في الإسلام. إن جميع الأعمال، متى كانت خيّرةً وذات نفع عامٍّ، وبنيّة خالصة لوجه الله، يمكن عَدُّها صلاة لله. وهكذا بقدر ما يدعو الإسلامُ المسلمَ إلى عبادة الله، يدعوه، كذلك، إلى الكد من أجل الكسب وضمان وسائل العيش. فكما جاء في الحديث الشريف: "العمل عبادة"، "الخدمة على العيال عبادة" و "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً".

٢٠ -ما هي الأعياد الدينية التي يحتفل بها المسلمون؟

• يحتفل المسلمون بعيدين في السنة؛ الأول "عيد الفطر"، ويُعرف كذلك بـ "العيد الصغير"، وهو احتفاء بانتهاء صوم شهر رمضان المبارك، ومدته ثلاثة أيام، يبدأ بحلول اليوم الأول من شهر شوال ويستمر إلى ثالثه؛ والعيد الثاني هو "عيد الأضحى"، ويسمّى في العرف المتداول "العيد الكبير"، وهو احتفاء بانتهاء مناسك الحج في اليوم العاشر من ذي الحجة، ويستمر أربعة أيام. يذبح المسلمون يوم عيد الأضحى كبشاً، اقتداءً بذبح إبراهيم الكبشَ الذي فدى الله به ابنه بعد أن كاد يذبحه، امتثالاً لأمره، وفي ذلك استذكار بقوة إيمان إبراهيم بربه، واستعداده للتضحية بابنه خضوعاً وطاعةً لله لولا أن فداه الله بذبح عظيم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ • فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ • وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ • قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ • إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ • وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ • وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢ – ١٠٨). لم يذكر القرآن اسم ابن إبراهيم الذي افتُدي بكبش، لكن الروايات تتفق على أنه إسماعيل وليس إسحق. ويُعدّ هذا العيد، وذبح الأضحية من أركان فريضة الحج.

تبدأ مناسك هذين العيدين من فجر اليوم الأول من الشهر، حيث يسبّح المسلمون لله، معبّرين عن توحيدهم وإكبارهم وحمدهم له، مردّدين العبارة: "الله أكبر، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله". عند شروق الشمس يصلون ركعتَي صلاة العيد، وبعدها يُلقي الإمام خطبة العيد. ويجب على المسلم إخراج زكاة عيد الفطر، والتصدّق بجزء من الأضحية على الفقراء والمساكين، وصلة الرحم بزيارة الأهل والأحباب، وفي بعض الأوساط يقوم المسلمون بزيارة قبور أقربائهم وأحبائهم.

بدأ المسلمون منذ قرون يحتفلون، إضافة إلى هذين العيدين، بأعياد أخرى لم تسنّها الشريعة الإسلامية، كعيد المولد النبوي الشريف، وعيد حلول رأس السنة الهجرية الجديدة. لكن، لا يقيمون خلالها أية شعائر ولا طقوس دينية.

٢١ -هل يَعدُّ المسلمون يوم الجمعة يوماً "مقدساً"، على غرار الأحد بالنسبة للمسيحيين، والسبت بالنسبة لليهود؟

إن الجمعة من الجذر (ج. م. ع). الذي يعني الجمع، وهو اليوم الذي أمر القرآنُ المسلمين بأن يجتمعوا خلاله لإقامة صلاة الظهر جماعةً، لا يُعدّ يوماً "مقدساً"، كما هو الشأن بالنسبة للسبت عند اليهود، والأحد عند المسيحيين، إذ يتميز "الجمعة" فقط بأنه اليوم الذي تُفرض فيه صلاة الجمعة جماعةً على الرجال. لا يحرّم على المسلم أن يمارس خلال هذا اليوم مختلف أعماله، لكن متى نودي للصلاة وجب عليه أن يتوقف عنها ويذهب إلى المسجد لأداء الصلاة مع الجماعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ • فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: ٩ -١٠). بيد أن العادة جرت بين عدد كبير من المسلمين بأن يتوقفوا عن العمل صباح يوم الجمعة، أو على الأقل، يأخذوا وقتاً كافياً للتهيؤ كما يجب للصلاة، والذهاب إلى المسجد لأدائها.

وتدرجت الأمور إلى أن اتخذت معظم الدول الإسلامية رسمياً الجمعةَ يوم عطلة أسبوعية، ولكن تظل غالبية النشاطات التجارية وغيرها تتواصل خلاله بشكل طبيعي.

٢٢ -غالباً ما ينظر الغربيون إلى المسلمين نظرةً خاطئةً، فيرونهم كإرهابيين أو متطرفين. ما رأيكم في ذلك؟

لا جدال في أن الإرهاب يَسْتخدم، بشكلٍ مباشرٍ ومنتظم، وسائل ينتقيها الإرهابيون لممارسة أعمال عنيفة تثير الرعب، يسخّرونها كأداةٍ ردع سياسي أو مجتمعي، أو كوسيلة للفت نظر الرأي العام إلى ما يبدو لهم من انتهاك للحقوق وخرق للقوانين وتمادٍ في الظلم، يريدون بذلك تحريض المسؤولين على تدارك الأوضاع وتصحيح الأمور وإعارتها ما يجب من اهتمام. ظهر لفظ "Terrorisme" في البلدان الأوروبية بصدد أحداث الثورة الفرنسية التي سادت خلالها، مدةً طويلةً، أعمالُ العنف والتنظيمات الإرهابية. كان أول استعماله في اللغة الإنجليزية سنة ١٧٩٥، ولم يُعرف لمدلوله مرادف في منطقتنا العربية إلا في العقود الأخيرة من القرن الماضي، حين ظهر في اللغة العربية لفظ "إرهاب"، من المصدر "أرهبَ"، أي أخافَ وأرعبَ وأكرهَ.

يبدو لنا، أن من الأولى أن نتساءل: من عَلَّمَ الإرهاب؟ ولمن علّمه؟ أو بعبارة أخرى: الذي تعلّم الإرهاب مِمَّن تعلّمه؟

مهما يكن الأمر، نؤكد أن الإسلام، انطلاقاً من مبادئه وتعاليمه السامية، دين معادٍ للإرهاب كل العداء ومنافٍ له. لا يقبل، بأية حال، مهما كانت الدوافع، الاستخدام الجائر والعبثي للعنف والإكراه والابتزاز، ولا يصفح بتاتاً عمن يُدخل الرعبَ على قلوب البشر، ويوقع الأذى بالأبرياء، ويقضي على حياتهم تحت أية ذريعة، وفي أي ظرف من الظروف.

إن قيام جماعة من الإسلاميين، خلال العقود الأخيرة، بأعمال إرهابية باسم الإسلام والدفاع عنه لا يسوّغ قَرْنَ الإرهاب بهذا الدين العظيم ولا إلصاقه به، مثلما لا يسوّغ اللجوء إلى الإرهاب في إيرلندا، مثلاً، قَرْنَهُ بالكنسية الكاثوليكية.

إن ما يعرفه العالم المعاصر من أعمال الإرهاب والعنف التي يدبرها ويدير أمر تنفيذها متطرّفون إسلاميون وغيرهم، يُعدّ ممارساتٍ بعيدةً كل البعد عن روح الإسلام الصحيح. إن تعاليم الإسلام، كما جاء في القرآن، تدعو إلى التفاهم واعتماد الشورى في إدارة الشؤون العامة، أو بتعبيرٍ آخر، إنها تدعو إلى نهج مسالك "الحوار" و "الاستشارة". أضف إلى ذلك أن اللغة العربية، لكي تعبّر عن هذه الحمولة الدلالية المستحدَثة والدخيلة عليها، أي التطرّف المقرون بالعنف والاستبداد، اقتبست من اللغات الأوروبية ألفاظاً وُلدت من رحم هذه اللغات بفعل بروز ظاهرة التطرف السياسي التي عرفتها أوروبا، وذلك مثل "الفاشية" و"الدكتاتورية"...

٢٣ -ما رأيك في ارتداء النساء المسلمات الحجاب وتغطية وجوههنّ؟

أمرَ الإسلامُ المؤمنين، رجالاً ونساءً على السواء، بالتحلّي بالحشمة والوقار، وحضّ النساء على الاعتدال في المظهر وعدم التبرج. فالقرآن ينص على ذلك بصريح القول، ومن دون غموض أو لبس: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ • وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ** ﴾ (النور ٣٠ – ٣١).

كانت المسيحية قد أمرت، من قبل، النساء بالتعليمات نفسها على لسان القديس بولس، بتوسع وإطناب كبير في تقديم الحجج والمسوّغات اللاهوتية، يقول:

"فأمدحكم أيها الإخوة على أنكم تذكّرونني في كل شيء وتحفظون التعاليم كما سلّمتها إليكم. ولكن أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح. وأما رأس كل امرأة هو زوجها. ورأس المسيح هو الله. كل رجل يؤدي الصلاة أو يشهد ورأسه مغطى يسيء إلى حرمة رأسه (يعني المسيح)، ولكن أي امرأة تصلي أو تشهد ورأسها مكشوف تنال من شرف رأسها (ويعني ذلك زوجها). ونفس الأمر إذا كان الرأس محلوقاً، ذلك أنه إذا لم تضع المرأة الحجاب على رأسها، عندها يجب عليها أن تحلق شعرها، ولكن إذا كان مخزياً أن تكون حليقة الرأس دعها تضع حجاباً، ذلك أن الرجل يجب أن لا يغطي رأسه لأنه صورة الله ومجده. وأما المرأة فهي مجد الرجل. إن الرجل لم يُخلَق من المرأة، ولكن المرأة خُلقت من الرجل، كما إن الرجل لم يُخْلَق من أجل المرأة، بل المرأة خُلقت من أجل الرجل. هذا هو السبب الذي من أجله يجب على المرأة أن تضع الحجاب على رأسها. غير أن الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل في الرب. لأنه، كما إن المرأة هي من الرجل هكذا الرجل أيضاً هو بالمرأة. ولكن جميع الأشياء هي من الله. احكموا في أنفسكم. هل يليق بالمرأة أن تصلي إلى الله وهي غير مغطاة. أم ليست الطبيعة نفسها تعلّمكم أن الرجل إن كان يرخي شعره فهو عيب له. وأما المرأة إن كانت ترخي شعرها فهو مجد لها لأن الشعر قد أعطي لها عوض برقع. ولكن إن كان أحدكم يحب الخصام ويود المجادلة حول هذا الأمر فليس لنا نحن عادةً مثل هذه، ولا نعترف بأي سلوك مغاير لكنائس الله". (بولس الرسول، من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح الحادي عشر، ٢ – ١٦).

لكن، باستثناء الراهبات، تخلّت النساء المسيحيات منذ زمن طويل عن ارتداء الحجاب. وآخر ما تبقّى من مظاهر للحجاب المتوارث في الأوساط المسيحية هو الخمار الذي يغطي وجه العروس في حفل زفافها. في حين لم تطرح مَن اختارت ذلك من النساء المسلمات المعاصرات الحجاب إلاّ من بضعة عقود. مما لا شك فيه أن اختيارهن جميعاً –مسيحيات ومسلمات– للسفور، يخالف التعليمات التي جاءت بها الكتب السماوية المقدّسة، ويُعدَ خروجاً عنها. بيد أن دوافع هذا الاختيار عند المسلمين ليست هي نفسها عند المسيحيين، خصوصاً في الغرب. فبينما ينطلق الغربيون، في مناداتهم بسفور المرأة، من اعتبار يرى أن إجبار المرأة على ارتداء الحجاب يشكّل تعدّياً غير مقبول عليها، ومساساً بحقوقها المجتمعية من حيث مساواتها مع الرجل، لا يعطيه مناصرو السفور في المجتمع الإسلامي –حيث لا يزال الحجاب التقليد السائد– البُعدَ والاعتبار نفسيهما، ويبقى أمر ارتدائه متروكاً عموماً للاختيار الشخصي للمرأة وقرارها. إن مسألة الحجاب تعود، بالأساس، إلى فرق الثقافتين في الوسطين، المسيحي والإسلامي. السؤال الجوهري الذي يطرحه المسلمون بإلحاح هو: إذا كانت نساء الغرب قد اخترن العري واللباس الشفاف، ولا أحد يشجبهنّ، أو يتدخل في شؤونهنَ بوصف ذلك أمراً يعني الغرب وحده، فلماذا حينما اختار عدد من النساء المسلمات ارتداء الحجاب، ووضْعَ خمار فوق الرأس، قامت قائمة الغرب اعتراضاً عليهنَ وإدانةً لاختيارهنّ؟

٢٤ –هل العالم الإسلامي، حقاً، كما يُقال، مسرحَ صراعات عديدة؟

يضمّ العالم الإسلامي عدداً كبيراً من الدول–القومية التي تنتمي إلى إثنيات متنوعة، لها لغات وثقافات وأعراف وتقاليد وتوجهات سياسية مختلفة، فليس، إذاً، من المعقول، وقد يكون من العبث، أن يخطر ببال أحد أنّ بوسع هذه الدول–القومية أن تنصهر جميعها في قالبٍ واحد، وتكون لها ذهنية واحدة وتفكير واحد، أو روح واحدة وقلب واحد.

قد يؤدي أحياناً تضارب المصالح الخاصة لبعضها إلى نزاعات حادة تستمر في بعض الحالات أمداً طويلاً، وسعياً للتقليل من عوامل قيامها والتقليص من حدتها، ورغبةً، كذلك، في تدارس أمور أخرى ذات طابع إسلاميٍّ مشتركٍ تهم جميع المسلمين، وقضايا تتعلق بمصالح الأمة الإسلامية عموماً، تُعقد مؤتمرات قمة إسلامية بشكل دوري.

٢٥ -يبدو أن لبعض البلدان الإسلامية تشريعاتٍ دينيةً وأحكاماً أكثر صرامةً وتشدداً مما لأخرى. ما هي طبيعة العلاقات بين مختلف تلك البلدان؟

يعيش المسلمون في مناطق مختلفة ومتنوعة - وأحياناً متباعدة - من العالم، لذا ليس من المستغرب أن توجد بين بلدانهم المتعددة اختلافات تشريعية لا تمسّ جوهر العقيدة الإسلامية وثوابتها. إن البلدان الإسلامية، كبقية مجموع بلدان العالم، تقف ضدّ كل الانتهاكات لحقوق سيادتها، وتعارضها بشدة، ولو صدرت عن بلدان إسلامية أخرى، باسم الدين المشترك. وفي مثل هذه الأحوال يُفترض، بل لا بدّ من أن يقوم العلماء والمفكرون المسلمون بواجبهم في إسداء النصح للأفراد وللمجتمعات الإسلامية ورعاتها لتلافي ما يقوّي الاختلاف، ويعمّق الفوارق بين الأحكام والتشريعات المعمول بها في كل بلد.

٢٦ -ما هو نوع العلاقات التي تربط العرب فيما بينهم؟

يربط عرب مختلف البلدان والأقاليم، بمن فيهم المهاجرون في بلدان غير عربية، شعورٌ قوي بالانتماء إلى ما اصطُلح على تسميته "العروبة"، أي الشعور بالوحدة العربية المتجذر في أعماق كل عربيٍّ، إلى درجة أنه غالباً ما يسمو عن التقسيمات والفوارق التي يقوم عليها تمّيز المجموعات في الانتماء الوطني إلى هذا البلد أو ذاك. أضف إلى ذلك أنه يجب علينا أن لا ننسى أن جميع العرب يتكلمون

لغةً مشتركةً، هي اللغة العربية التي تُعدّ، من حيث شكل حروفها الأبجدية المكتوبة، وجُلّ ألفاظها وتعابيرها الفصحى، من أقدم لغات العالم التي ظلّت تُستعمل استعمالاً متواصلاً، ومن دون انقطاع، إلى اليوم.

إن اللغة العربية لا تشكّل فقط رابطة أساسية بين العرب في مختلف البلدان، بل، أيضاً، تُعدّ رابطةً قاعديةً بين عرب عصرنا الحالي وعرب القرون الماضية، تحافظ على استمرار التواصل بينهم. يعزّز هذا الترابطَ التراثُ الإسلامي-العربي، وروحُ الثقافة الإسلامية. فمثلاً، يحدث أن يختلف، أحياناً، بعضُ كبار حكام الدول العربية ومسؤوليها في التوجهات والبرامج السياسية والأولويات، ولا يتقاسمون دائماً المواقف والآراء نفسها حول قضايا معينة، لكن الشعوب العربية تظلّ، بشكل عام، ملتحمةً ومتضامنةً فيما بينها، لها قلبٌ واحدٌ، وتفكر بعقل واحد، ولا تؤثر فيها الأحداث الطارئة، بل قد تزداد انسجاماً وترابطاً وصموداً في وجه ما قد يؤدي إلى التفريق بينها، مما يجبر دولها وحكوماتها على أن تأخذ مشاعرها وتضامنها بالحسبان في تحديد معايير العلاقات الرسمية فيما بينها. هكذا تتغلب رابطة العروبة والشعور بوحدة المصير العربي على الخلافات السياسية بين البلدان العربية، فتعمل على رجحان مصالح القضايا العربية المشتركة، خصوصاً عند اشتداد الأزمات.

٢٧ - ثمة عرب مسلمون، وآخرون مسيحيون.. ما هي نظرة بعضهم إلى بعض؟

يتقاسم العرب، مسيحيين أكانوا أم مسلمين، اللغة والتراث التاريخي والإرث الثقافي والحضاري نفسه، وينحصر ما يميّز بعضهم عن بعض في انتمائهم الديني. وبفضل الحماية التي ضمنها الإسلام، منذ مجيئه، لغير المسلمين من أهل الذمة - وطبعاً من بينهم المسيحيين - عاش المسلمون والمسيحيون حياةً مشتركةً جنباً إلى جنب، في انسجام قلما شابته نزاعات تُذكر، وما كان يطرأ منها يُفَضّ

عن طريق الحوار والتفاهم. ولو لم يكن الأمر كذلك لما أمكن للمسيحية أن تظلّ قائمةً في الأوساط العربية تمارسُ طقوسها بكامل الحرية إلى يومنا هذا. ينقل لنا التاريخ أن العرب المسيحيين هم الذين اتخذوا، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بادرة بلورةِ فكرة "العروبة" كعنصرٍ أساسيٍّ ينصهر فيه العرب المسلمون والمسيحيون، ويوثق عراهم في أمة واحدةٍ تتميز عن غيرها من الأمم. كما تسجّل الأحداث التاريخية أن المسيحيين العرب كانت لهم، أيضاً، الريادة في تأسيس الحركات القومية ، فبرزوا من خلال نشاطاتهم ضمنها، بروزاً واضحاً، قادةَ فكرٍ وسياسةٍ، وفاعلين أساسيين في برامجها ونشاطاتها ومنجزاتها.

٢٨ -ما هي المبادئ والتعليمات الأساسية التي يجب على المسلم أن يلتزم بها؟

إن المبادئ الأساسية في الإسلام هي الإيمان بوحدانية الله الواحد الأحد، وبنبوة ورسالة نبيه ورسوله محمد، وبالآخرة، والحساب والجزاء. تأمر تعاليم القرآن المسلمين بالتحلّي بالسلوك الحسن، والتسامح مع الغير واحترامه وإنصافه في جميع المعاملات، وفعل الخير واجتناب الشر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (الحج: ٧٧)، وجاء في آية أخرى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (آل عمران: ١٠٤). ولا يختلف التمييز في الإسلام بين ما هو خير وما هو شر عما هو عليه الأمر في المسيحية. ورغم أنهما يختلفان في بعض الشعائر الدينية وفي جوهر العقيدة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، فإنهما يتقاسمان المبادئ والقيم الأخلاقية الأساسية نفسها.

٢٩ -ماذا يُقصد بصوم رمضان، وكيف يُمارَس بوصفه فرضاً؟

يُعدّ رمضان أحد شهور السنة الهجرية وأجَلُّها، اختاره الله ليكون شهرَ صيامِ المسلمين، يُحرَم عليهم خلاله الأكل والشرب وإشباع مختلف الشهوات والغرائز

طوال النهار، من بزوغ فجر كل يوم إلى غروب شمسه. يتحدد عادةً أول يوم في شهر الصوم برؤية هلال شهر رمضان حسب السنة القمرية، وآخره بمشاهدة هلال شهر شوال، الذي يليه.

اقترح بعض قادة الرأي المسلمين المعاصرين اعتماد الحسابات الفلكية في تحديد بداية شهر رمضان ونهايته بدلاً من الاستمرار في الاعتماد على رؤية الهلال بالعين المجردة، قصدَ توحيد يوم بدء الصوم ونهايته في جميع الدول العربية، لكن، لم يحظَ اقتراحهم هذا بموافقة إجماعية من لدن كل الدول الإسلامية، وهو ليس مُلزِماً لها.

يبدأ الصيام عند تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، وينتهي عند بداية غروب الشمس. يتناول المسلمون وجبة السحور قبل أذان الفجر، وعند الأذان يكفّون عن الأكل والشرب والتدخين وإشباع الرغبات الجنسية.. بنيّة الصوم، فيُحرَم عليهم كل ذلك إلى أذان صلاة المغرب، إذ ذاك يجب عليهم الإفطار وقطع الصيام اليومي. ولا يجوز للصائم أن يتناول عن طريق الفم أو بالتطعيم أي نوع من الأدوية. وإذا فسد صومه، أو فاته صومُ يوم أو أكثر لمرض عارض، أو لسفر، أو لأي سبب آخر من الأسباب، وجب عليه أن يعوّض صومَ ما فاته من أيام بعد انتهاء شهر رمضان، وفق ما يناسبه من توقيت. وإذا كانت الحال الصحية للمسلم لا تسمح له بالصوم لمرض، أو خوف من الإصابة به أو استفحاله، ولا يستطيع تعويضه لاحقاً للأسباب نفسها، وجبت عليه كفارة إطعام مساكين عن الأيام التي فاته صومها: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ • أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة: ١٨٣ – ١٨٤).

ليس المقصود من الصوم الكفّ عن الطعام والشراب فحسب، بل الكفّ، كذلك، عن كل الشهوات الجنسية وغيرها، وعن النميمة والكلام البذيء، وأفعال الشر، والإساءة للآخرين. ويُعدّ الصوم مناسبةً تذكّر الصائمين بما يعانيه الفقراء والمساكين من فاقة واحتياج لما يسد رمقهم، وتحثهم على مساعدتهم والتصدق عليهم بما يستطيعونه من مؤونةٍ وطعام، وتحفزهم على الإكثار من أعمال البرّ والإحسان عموماً. وقد جرت العادة أن تجتمع خلال شهر رمضان العائلاتُ والأصدقاء للإفطار والسهر جميعاً، يتبادل الأفرادُ الأحاديث، ويثيرون الذكريات في جوّ من المرح والابتهاج. وتختلف مظاهر تلك السهرات وأنشطتها تبعاً لثقافة الوسط المجتمعي وعاداته المحلية.

يتميز رمضان، إضافةً إلى كونه شهرَ صيام، بحرمة تبجيليةٍ عند المسلمين، لأنه الشهر الذي أنزل فيه الله أول سورةٍ من القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (البقرة: ١٨٥). هكذا يتفرّد شهر رمضان بجوّ روحانيٍّ متميز، فرض الله على المسلمين الصومَ خلاله مُرغّباً لهم في التحلّي بالتقوى، ومهيئاً لهم الأسباب لشحن قلوبهم بالمزيد من القوة الروحية، وذلك بما يبذلونه من جهد في الصوم، والإكثار من الصلوات النوافل، وتلاوة القرآن، والتأمل في قدرة الله، والسعي إلى التقرّب إليه بالعمل الصالح وفعل الخير، والامتناع عن الشر. فكما جاء في حديث للرسول صلى الله عليه وسلم: "من لم يدَع قول الزور والعمل به فليس له حاجة أن يدَع طعامه وشرابه"[1]. إن إخلاص النية في الصوم

---

(١) انظر: محمد ناصر الألباني، صحيح سنن ابن ماجة (بيروت، المكتبة الإسلامية، ١٩٨٦، المجلد رقم ١، الحديث رقم ١٢٧٠، ص ٢٨٢).

والقصد الكلي به لله يجزي به اللهُ الصائمَ بتعهّد منه كما ينصّ على ذلك حديثُ قدسي: "كل عمل ابن آدم هو له، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به".

٣٠ -ماذا يُقصَد بالأذان؟ وماذا يقول المؤذّن الذي يُسمَع عبر البلاد العربية والإسلامية في مواقيت محددةٍ من اليوم وهو يؤذّن؟

لقد شرّع النبي محمد صلى الله عليه وسلم الأذان للنداء إلى الصلاة ليحلّ محلّ النفخ في البوق/ القرن، الذي يستخدمه اليهود، وقرع الأجراس الذي يستخدمه النصارى للهدف نفسه. يعلن المؤذن عن حلول وقت كل صلاة من الصلوات اليومية الخمس، داعياً المسلمين إلى أدائها، إنْ في المسجد إذا استطاعوا، أو خارجه. يردد العبارات الآتية:

- الله أكبر، الله أكبر (مرتين).
- أشهد أن لا إله إلاّ الله (مرتين).
- أشهد أن محمداً رسول الله (مرتين).
- حيَّ على الصلاة (مرتين).
- حيَّ على الفلاح (مرتين).
- الله أكبر (مرتين).
- لا إله إلاّ الله (مرة واحدة).

ثمة تقليد متأخر يضيف إلى الأذان، الدعاء للنبي محمد ولآله وأصحابه أجمعين: "اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت سيدنا محمداً الوسيلةَ والفضيلة، وأعطه من الجنة الدرجةَ الرفيعة، وابعثه اللَّهم المقامَ المحمود الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد". باستثناء صيغته في بعض البلدان الإسلامية

المتشدّدة، يرتّل المؤذنون عموماً عبارات الأذان، وبعضهم يجودها حسب أنغام مختلفة. لقد أصبح رفع الأذان، في بعض البلدان الإسلامية، مثل ترتيل القرآن، فناً رقيقاً ومهذباً عاليَ الإتقان. وتُستخدم في العصر الحديث مكبرات الصوت لإيصاله إلى أبعد مدى، ويُرفع للغاية نفسها في محطات الإذاعة وعلى شاشات التلفزة. وحيث أن الآذان من الطقوس الدينية فإن رفعه لا يقتصر على البلدان العربية والإسلامية، بل يُرفع، كذلك، في كل بقعة بها مسلمون، ويُسمح فيها برفع أذان الصلاة علناً.

٣١ -ما هو السلوك الذي يجب أن يلتزم به المسلم داخل المسجد؟

يُعدّ المسجد، بالنسبة للمسلمين، مكاناً للصلاة وتعبد الأفراد والجماعات، سواء على انفراد أو جماعة، بتلاوة القرآن وترديد بعض الأذكار، وأيضاً مكاناً للراحة والخشوع والتدبر والتأمل. ويُعدّ كذلك منبراً للتوعية والإرشاد الديني، ومكاناً للاجتماع من أجل تدارس وبحث الشؤون العامة، التي تخص مصالح أهل الحي والمسلمين عموماً. وبما أن المسجد يُبنى أساساً لتُؤدى فيه الصلاة، فإن أرضه تُفرش بسجادٍ أو حصيرٍ. يخلع المسلمون أحذيتهم عند دخولهم إلى المسجد، ويطأون أرضه بأرجلٍ حافيةٍ، أو يلبسون جوارب نظيفة، أو ينتعلون خفافاً طاهرةً خاصةً لا تُستعمل إلاّ في المسجد، احتراماً لما يجسده المسجد كبقعةٍ مخصصة لعبادة الله والتواصل معه، وحرصاً على الحفاظ على نظافته ويلتزم من يدخل المسجد أن يكون لباسه نظيفا طاهراً ومحتشماً. لا تختلف آداب السلوك داخل المسجد عما هي عليه بالنسبة للمسيحيين في الكنيسة. ويجب على المسلمين أن يتحلّوا داخل المسجد بالوقار والاحترام، لا يرفعون أصواتهم، ولا يصدر عنهم ما يخلّ بحرمة المكان، أو يزعج المصلين والعبّاد. نعم، يمكنهم أن يتنقلوا من ركن إلى آخر بحريةٍ، وأن يجلسوا على الأرض جماعاتٍ وفرادى، وأن يتحدثوا في شؤون دينهم ودنياهم

بصوت منخفض واحترام، ومن دون لغو أو هزلٍ. لا توجد محظورات صارمة، فقط يجب أن لا يصدر عمّن هم في داخل المسجد ما يمسّ بشعائر الدين، وما يخلّ بما تستلزمه الصلاة عموماً، وصلاة الجماعة على وجه الخصوص، من هدوءٍ وسكينةٍ شاملةٍ ووقار. وإذا كان يسمح لغير المسلمين بزيارة بعض المساجد لأهميتها التاريخية أو الأثرية، أو لطابعها المعماري، أو فقط لحب الاطلاع، فإنهم يُمنعون من ذلك في أثناء صلاة الجماعة، تقديساً لهذه العبادة، وتلافياً لما قد يقلق المصلين، ويشوّش عليهم في خشوعهم. والحقيقة أن المصلين، سواء على انفرادٍ أو في جماعةٍ، لا يتقبلون، على أية حال، أن يُزعَجوا في صلواتهم، ولا أن يكونوا هدفاً للفرجة وكأنهم في مشهد غريب يثير الدهشة. لذا، لا يحبذون تطفّل الزوار غير المسلمين أو فضولهم، وينزعجون لكل تصرفٍ لا يراعي احترام المسجد والشعائر الدينية، ولو صدر عن المسلمين أنفسهم.

٣٢ -هل تنعزل النساء داخل المسجد عن الرجال؟

المساجد في الإسلام مفتوحة في وجه الرجال والنساء على السواء، لكن الصلاة داخلها تجري بانعزال بعضهم عن بعض، رغم أن كليهما يصلي خلف الإمام نفسه الذي يؤم صلاة الجماعة، إذ يتوفر بعضُها -عادة المساجد الكبرى- على أماكن خاصةٍ بالنساء اللواتي يرغبن في الصلاة بالمسجد على انفرادٍ أو في جماعة.

إن ما يستدعي الفصل بين الجنسين هو ما تفرضه صلاة الجماعة من وقوف المصلين صفاً متراصاً مستقيماً، من دون ثغراتٍ، والركوع والسجود معاً جنباً إلى جنب، وهذا الوضع يفضي، من دون شكٍّ، إلى بعض الحرج، لذا يُعد انعزال بعضهم عن بعض أنسب، وأدعى للخشوع والراحة.

٣٣ -ما هي الامتيازات الخاصة بكلٍّ من الرجال والنساء في الإسلام؟

للرجال والنساء في الإسلام التشريعُ نفسه عموماً. إنهم شقائق في الأحكام بنصّ القرآن الصريح الذي يخاطبهما معاً وعلى السواء، مبشراً ومنذراً. لكن، وكما هو الشأن عند اليهود والمسيحيين، يعدّ المسلمون الرجلَ، زوجاً كان أو أباً أو أخاً كبيراً، ربَّ الأسرة الشرعي، شريطة أن يرعى المسؤولية التي يتحملها حقّ رعايتها، ويسلك سلوكاً سوياً ومسؤولاً طبقاً لضوابط الشريعة الإسلامية. إلاّ أن هذا الامتياز لا يخوّل الرجل أو الزوج حق التصرف في الممتلكات الخاصة التي في حوزة المرأة أو الزوجة، ولا سهم له فيها. فللزوجة حق إدارة شؤون ممتلكاتها والتصرّف فيها كما يحلو لها باستقلال عنه. ينصّ القرآن على أن للمرأة المسلمة نصيباً محدّداً من إرث أبويها وزوجها وأبنائها، وغيرهم من الأقارب المنصوص عليهم. لها أيضاً، كونها زوجةً، المهر العاجل الذي يدفعه لها الزوج عند عقد النكاح، والمتأخر منه كذلك. كل ذلك يدخل ضمن الممتلكات الخاصة بالمرأة، ولا تأثير له في واجب إنفاق الزوج عليها، وإعالة أسرته طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية. لكن، جرت العادة أن يتعاون الزوج والزوجة في تدبير شؤون المنزل اقتداءً بما كان يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣٤ -لماذا يُباح للرجل المسلم أن يجمع في زواجه بين أربع زوجات؟

الأصل في الشريعة الإسلامية أن ينكح الرجل زوجةً واحدةً، ولكن الإسلام يستشرف ما قد يحدث ويستجدّ من ظروف تستدعي تعدّد الزوجات، فيفسح له المجال تلافياً للكثير من المشاكل الأسرية والمجتمعية. من ذلك، مثلاً، ما قد يتولد عن نشوب بعض الحروب من تضاؤل عدد الرجال وتضخم عدد النساء، وأيضاً قد يحصل أن تكون الزوجة عاقراً لا تستطيع الإنجاب، أو تشكو من مرض لا يسمح لها بتلبية رغبة زوجها الجنسية،... أليس من الأفضل آنذاك أن يتزوج

الرجل من أخرى من دون أن يكون مضطراً إلى طلاق زوجته. أضف إلى ذلك أن إباحة الإسلام تعدد الزوجات مشروط بقدرة الزوج على إعالتهن جميعاً، والعدل بينهن في جميع المعاملات، وإلاّ فلا يجوز له أن يتزوج سوى واحدة. جاء في الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ﴾ (النساء: ٣).

إن السماح بتعدد الزوجات يلزم الزوج بالاعتراف لجميع زوجاته، ولجميع أبنائه الذين أنجبهم منهنّ، بما لهنّ ولهم عليه من حقوق، إذ تؤكد أحكام الشريعة الإسلامية تقلُّدهُ مسؤوليةَ إعالتهم جميعاً، وضمان حقهم في وراثته بالتساوي. والملاحَظ أن كل هذه الأمور لم تعد شائعةً في المجتمعات الإسلامية، فالالتصاق بالواقع المعيش يُظهر أن التوجه السائد عند المسلمين، في العصر الحالي، يميل بشكلٍ متزايدٍ إلى الزواج من امرأةٍ واحدةٍ ليس أكثر.

٣٥ -هل يبيح الدينُ الإسلامي الطلاقَ؟

إن الزواج الإسلامي، ليس ارتباطاً دينياً مقدّساً كما هو شأن الزواج المسيحي. إنه عبارة عن عقد (ميثاق غليظ) بين الزوج وزوجته، مثل الزواج المدني في الغرب، كما تذكّر بذلك الآية القرآنية التي تستنكر على الزوج استرجاع قيمة الصداق في حال تطليقه زوجَته بعد الدخول بها: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ٢١). قد تختلف شروط العقد بين زواج مسلم ومسلم آخر تبعاً لما يشترطه كل من الزوج والزوجة في العقد ويمضي على قبوله. مهما يكن الأمر، لا بدّ من موافقة الطرفين على ذلك. وللزوج، إذا لم يكن راضياً عن زواجه، حق فسخ عقد الزواج بإعلان تطليقه زوجَتَهُ، ويكون مُلزَماً بدفع المتأخر من مهرها في حال وجوده، وبالنفقة عليها مدة ثلاثة أشهر، كما تنص

على ذلك تعاليم القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ (الطلاق: ١)، وإلى أن تضع الزوجة حملها إذا كانت حاملاً. وللزوجة، هي أيضاً، الحقُّ في أن تطلب الطلاق من زوجها إذا لم تكن راضيةً عن الزواج منه، إذا كانت عصمتها بيدها، ومنصوصاً عليها في عقد القران، وإلاّ فلا بدّ من موافقة زوجها على ذلك. وتستطيع الزوجة أيضاً أن ترفع أمرها إلى القاضي ليطلقها منه. والحقّ أن كلّ هذه الأحوال تشكّل استثناء، إذ الغالب هو دوام عقود زواج المسلمين إلى الوفاة، وقليلاً ما يُفسخُ عقد القران بالطلاق.

٣٦ -ما نوع العلاقات التي تربط المسلمين بأُسَرِهم؟

إن العلاقات القائمة بين أفراد الأسَر المسلمة لا تختلف عنها في غيرها من الأسَر غير المسلمة، فالأزواج كالآباء والإخوة يهتمون جميعهم بشؤونها، ويبذلون قصارى الجهد لرعاية الأبناء وإرضائهم، والسهر على مصالحهم. ويمكن أن نؤكد أن العلاقات التي تربط، عموماً، بين أفراد الأسرة المسلمة متينة جداً. تسهمُ في الحفاظ عليها تلك المكانةُ التي يحتلُّها الوالد عند جميع أفرادها، واعترافهم بسلطته وتقديرها، إذ من الواجبات الأسرية الأولية، طبقاً لما تأمر به تعاليم القرآن، احترام الوالدين والبرّ بهما، ورعاية الأبناء، والأخذ بيد ذوي القربى، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ (النساء: ٣٦). يشكّل هذا السلوكَ نمطاً للتضامن المجتمعي بين أعضاء الأسرة الذين يجمعهم، كذلك، حقُّ الوراثة ومؤازرة بعضهم لبعض كلما دعت الضرورة إلى ذلك. إن أحسن وجوه البرّ مساعدةُ الإنسان أقرباءه، ومدّهم مما آتاه الله: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾

(البقرة: ١٧٧)، وكذلك إعطاؤهم قسطاً من الميراث إذا حضروا قسمته، ولو لم يكن لهم حق الوراثة شرعاً: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ (النساء: ٨). كما أن من تمام التقوى أن يوصى المرء لوالديه وأقربائه بنصيب محدد من ماله بعد وفاته: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٨٠).

٣٧ -ما هي نظرة المسلمين إلى الموت؟

يؤمن المسلمون بأن الموت أمر حتمي من قضاء الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: ١-٢). إنهم يتقبلونه برضا، ويتناهون، طبقاً للتعاليم الإسلامية، عن الإفراط في الحزن على الميت، والمبالغة في إظهار مشاعر الحزن بالعويل والنواح والندب. لذا فإن مآتم المسلمين وجنازاتهم تتسم بالهدوء والرزانة والإحترام. يُدفن الميت يوم وفاته أو في اليوم التالي، بعد أن يُغسل ويُكفَّن في ثوبٍ أبيض، ثم يُقَبر مباشرةً بعد صلاة الجنازة. ويُعدّ دفن الميت أعظم تكريم له حسب حكمة يحرص المسلمون على العمل بها، تقول: "إكرام الميت دفنه". أما صلاة الجنازة فتُؤدّى، عادةً، في المسجد، وتكون قصيرةً، وتُقام وقوفاً من غير ركوع ولا سجود بأربع تكبيرات وتلاوة الفاتحة، ثم الصلاة والسلام على رسول الله، والدعاء للميت ولجميع الأموات والأحياء، والالتماس من الله له ولهم الرحمةَ والمغفرة والثواب. غالباً ما تكون صلاة الجنازة بعد صلاة الظهر أو العصر، يشارك في تشييعها، وفي مراسيم دفن الميت كل من يريد من المسلمين لما في ذلك من ثوابٍ ومواساةٍ لأفراد أسرته وأصدقائه.

يتكون القبر عند المسلمين من صفائح لَحْدٍ حجرية، تُرصّ طبقةٌ سفلية منها في قعر حفرة الدفن، وتُسجّى فوقها جثة الميت ممددةً على اليد اليمنى، مع مراعاة

توجيه وجهه صوب القبلة، وتوضع فوق الجثة سقيفة من اللحد، ثم يُوارى القبر بالتراب. جرى التقليد بأن يوضع شاهدٌ عند رأس الميت، يُكتب عليه اسمه ونسبه وتاريخ ولادته وتاريخ وفاته. لكن، حسب حكمة شعبية، إن أفضل القبور هي تلك التي لا يوضع عليها أي دليل، ويبقى راقدها مجهولاً: "خير القبور الدواري"، وأيضاً يُرغب في الاعتدال في بنائها. إن الموت ليس نقيض الحياة. إنه فقط مرحلة انتقالية للعودة إلى الله، لذا يحيّي الأحياءُ الموتى عند زيارة أضرحتهم بالتحية نفسها التي يحيّي بها بعضهم بعضاً، إذ يخاطبونهم بقولهم: "السلام عليكم يا أهل لا إله إلاّ الله/ يا أهل القبور، أنتم السابقون ونحن اللاحقون". وسوف يبعث الله الجميع يوم القيامة، ويحاسَبون على أعمالهم إنْ خيراً أو شراً: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا • وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا • وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا • يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا • بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا • يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ • فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ • وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (الزلزلة: ١-٨).

٣٨ -هل يؤمن المسلمون بأن ثمة حياةً بعد الموت؟

يؤمن المسلمون بخلود الروح في البرزخ، وبالبعث الفعلي للأجساد ونشورها يوم القيامة، حيث سيُجازى المؤمنون الطيبون وفاعلو الخير بدخول الجنة، بينما يقاد الكافرون والمجرمون الأشرار إلى جهنم مدة لا يعلمها إلاّ الله. إن الإيمان بالبعث والحياة بعد الموت وباليوم الآخر يُعدّ من أسس العقيدة الإسلامية. ويُذكّر المسلمون بهذه الحقيقة في كل حين، فكلما دعت تعاليمُ القرآن المسلمين إلى توحيد الله والامتثال لأوامره، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذكّرتهم بلقاء ربهم وبما ينتظرهم من حساب وجزاء يوم القيامة: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ (الكهف: ١١٠).

مما لا شك فيه أنه لو لم تكن مساءلة وجزاء لما حرص المسلمُ على الامتثال للأوامر والنواهي التي يطالبه بها الدين حرصاً شديداً. إن انتظار الجزاء في الآخرة، حيث لا ظلم ولا جور كما هو الشأن فيما يجري في الحياة الدنيا على وجه الأرض، يحرِّض الأفراد على ضبط أعمالهم وسلوكاتهم للفوز بالجنة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٧٣)، وفي آية أخرى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر: ١٧).

٣٩ -ما السبيل إلى اعتناق الإسلام؟ أو بتعبير آخر: ماذا يُشترط في اعتناق المرء للإسلام؟ هل يتطلّب منه ذلك القيام بوضوء أو طهارةٍ معينة؟ ما هي نظرة المسلمين إلى الذين يودّون الدخول في الإسلام؟

لا توجد شروط ولا تدابير معقدة. يكفي لكي يعتنق المرء الإسلام أن يعلن إيمانه الصادق بوحدانية الله وبرسالة نبيه محمد. فبمجرد ما يعلن الشهادة قائلاً: "أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله" يصبح مسلماً. لكن من المستحسن لمن يودّ اعتناق الإسلام أن يغتسل بنيّة الطهارة تهيوا لذلك، وإن كان الإسلام لا يفرض أية شعيرة، ولا يُلزم بطقوس خاصة لاعتناقه، مثل طقوس سرّ التعميد/ التنصير، أو التشبث الذي تفرضه الديانة المسيحية على من يريد اعتناقها، والتنسيب (الميتزفا) الذي تفرضه الديانة اليهودية على من يريد الدخول فيها.

يطرح بعض الناس الكثير من التساؤلات حول ختان الذكور عند المسلمين، ويتساءلون عما إذا كان يُلزم من يريد اعتناق الإسلام من الرجال إجراء عملية الختان. والحقّ أن الختان سُنّة جرى العمل بها، وليس فرضاً أو شعيرةً دينيةً إجباريةً عند بعض المذاهب الإسلامية. أضف إلى ذلك أن عملية الختان، كما يعلم

الجميع، ظاهرة قديمة جداً في الشرق الأوسط، تُمارَس منذ عصور ما قبل التاريخ. وكما كانت تُجرى على الذكور فإنها كانت تُجرى، كذلك، على الإناث، ولا تزال إلى اليوم تُمارَس على عدد من بينهن في بعض البلدان الإسلامية، خصوصاً في مصر والسودان. ورغم أن ختان الذكور إجراء عام عند الشعوب الإسلامية فإنه ليس شرطاً، لمن يريد من الرجال اعتناق الإسلام، أن تُجرى عليه عملية الختان.

٤٠ -هل توجد عنصرية في العالم الإسلامي؟

إن الإسلام كالمسيحية، يَعُدّ جميع المؤمنين متساوين لا فرق بينهم، فالله خلق الناس شعوباً وقبائل قصد التعارف فيما بينهم، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى وفعل الخير كما تنص على ذلك الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات:١٣). ثم إن اختلاف أجناس البشر وألوانهم ولغاتهم يدل على عظمة الخالق: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ**﴾ (الروم:٢٢). وقد كان من بين أقرب صحابة الرسول أفارقةٌ وفرسٌ وبيزنطيون، لكن ذلك لا يعني أنه لم تكن لبعض المسلمين نزوعات عنصرية، أو لم تصدر عنهم سلوكات تنم عن التمييز العنصري، لكن تظل مظاهرها أقل بكثير مما هو عليه الأمر في الأوساط المسيحية، إذ إن الإسلام يُعدّ أقوى الأديان إيماناً بالمساواة بين الناس، وأَلحَّها دعوةً إليها.

٤١ -هل الإسلام عنيف إلى الحدّ الذي يتصوّره الغربيون ويعتقدونه؟

خلافاً للانطباع السائد في الغرب، إن الإسلام، وإنْ كان قد أمضى قروناً عديدةً في فتوحات البلدان الأجنبية، لم يمارس العنفَ والإكراه، ولم ينتشر بالسيف، ولا بوساطة الحروب والغزوات، وإنما بالدعوة المتبصرة، والكلمة الطيبة، والخطاب

المقنع. ذاك ما سمح للديانة اليهودية أن تظل حيةً تمارس شعائرها في رحاب العالم الإسلامي، تحت ظل حكم الإسلام، وتزدهر ثقافتها عصوراً طويلةً في كنف عدد من البلدان العربية والإسلامية حتى يومنا هذا. وذاك، أيضاً، ما مكّن المسيحية من أن تستمر قائمةً إلى اليوم ديناً لإسبانيا، وأن تظل الهندوسيةُ الديانةَ السائدة في شبه القارة الهندية على الرغم من القرون العديدة، وطول المدة التي تولى المسلمون خلالها الحكم في تلك المناطق. إن المقولة الأوروبية المسيحية: "الناس على دين حكّامهم" لا تنطبق على المجتمعات الإسلامية.

لقد قيل الكثير في الغرب المسيحي حول مفهوم "الجهاد" في الإسلام، ويؤوَّل هذا المفهوم عموماً بأنه يعني "الحرب المقدسة"، ويُعطى مدلولاً يُقصَد به إلزامُ الإسلام المسلمينَ بمحاربة غيرهم لإجبارهم على اعتناق دينهم، وغالباً ما يُتَّخذ ذلك حجةً لما يُرمى به الإسلام من عنف. بينما نجد الألفاظ "جهاد" و"جاهد" و"مجاهد" تعني، في القرآن الكريم، تقديم العون العسكري والمالي، وبذل النفس والجهد لمؤازرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في صراعه ضد كفّار مكة الذين اضطهدوه، وحاربوا رسالته وأتباعه من المؤمنين: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ**﴾ (الأنفال: ٧٢)، وفي آية أخرى نقرأ: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (العنكبوت: ٦٩).

إن الجهاد في الإسلام يعني مشروعية حق الأمة في الدفاع عن نفسها متى اقتضى الأمر ذلك، بما تستطيعه من وسائل وقوة ضد من يهاجمونها. من هذا المنطلق مارس المسلمون، عبر التاريخ، حقهم في الجهاد. وقد استُعمِل هذا التعبير تاريخياً، في حرب المسلمين ضد الصليبيين الغزاة لصد الحملات المسيحية، حيث شاع خلالها استعمال هذا المصطلح الديني. ليس ذلك ما حصل في أثناء الفتوحات الإسلامية أو الغزوات، ولا ينطبق عليها بتاتاً مفهومُ "الجهاد". ولسماحة الإسلام، أمرَ القرآنُ الكريم النبيَّ محمداً صلى الله عليه وسلم بإيقاف جهاده وحربه الدفاعية ضد كفار

مكة وإعلان السلم معهم إذا هم أبدوا رغبةً في ذلك وجنحوا إلى السلم: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنفال: ٦١).

وكما أشرت سابقاً، إن ممارسة بعض الأفراد والفئات ممن يدّعون الإسلام، خلال العقود الأخيرة، أعمالاً إرهابية على غرار ما قام به كثيرون غيرهم من الجماعات التي لا تنتمي إلى الإسلام، لا يسوّغ الربط الشائع في الغرب بين الإسلام والإرهاب، وتلازمهما تلازم تضايف.

٤٢ -هل يتّبع المسلمون جميعهم، في تطبيق تعاليم الإسلام، نهجاً واحداً؟

إن الأغلبية العظمى من مسلمي العالم تمارس شعائر الإسلام حسب نهجه الرئيسي، نهج السُّنة. ثمة أربعة مذاهب سنّية فقهية كبرى معترَف بها، توجد بينها بعض الاختلافات في أمور محددة. هذه المدارس الفقهية هي: الحنفية، والشافعية، والمالكية، والحنبلية. ويُعدّ المذهب الأخير أكثرها تشدداً وصرامةً. فالجماعة التي يعرّفها بعضهم بـ "الوهابيين" في المملكة العربية السعودية هم مسلمون سنّيون، ويتّبعون المذهب الحنبلي كما جرت الدعوة إليها في صيغة جديدة خلال منتصف القرن الثامن عشر، على يد المصلح الديني محمد بن عبد الوهاب. أما المسلمون من غير أهل السنة فأغلبهم شيعة، أي يسيرون على نهج المذهب الشيعي، وأقّليتهم خوارج، لا تتجاوز نسبتهم معاً نحو عشرين بالمائة من مجموع مسلمي العالم.

إن السبب الرئيس الذي فرّق بين الشيعة وأهل السنة، وأدى إلى انقسامهم وانفصال بعضهم عن بعض هو اختلافهم حول من يخلف النبي محمداً صلى الله عليه وسلم في القيادة الشرعية للأمة. يرى الشيعة أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم كان قد اختار ابن عمه وزوج ابنته علي للخلافة، وأن الإمامة، أي القيادة الشرعية في الإسلام، لا بدّ أن تظل محصورةً في سلالة الإمام علي بعد وفاته،

بصرف النظر عمن تولّى خلافة النبي قبله. لقد كان الإمام علي رابع الخلفاء بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، واحتدّ الخلاف بين الشيعة وأهل السنّة يوم اغتيل الخليفة علي، ولم تنتقل الخلافة بعده إلى ذريته بشكل وراثي، كما كان يجب أن يحدث في نظرهم.

في مقابل هذا الرأي يرى الخوارج أن عَلِيّاً تولّى قيادة المسلمين خليفةً رابعاً عن طريق الانتخاب، ولم يتقلدها بموجب الوراثة التي يقتضيها الانتساب إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما يعتقد ذلك الشيعة، فجماعة أهل الشورى من المسلمين هي التي عينته للخلافة، إذ إن كل مسلم تتوفر فيه شروط الإمامة يمكن، حسب اعتقادهم، أن يُنتخب إماماً، فالمسلمون جميعاً، من حيث المبدأ، متساوون سياسياً، بصرف النظر عن أصلهم وسلالتهم. ويشكّل الأباضيون اليوم أكبر جماعة مسلمة تنتمي إلى الخوارج في عُمان.

تختلف فرق الشيعة فيما بينها حول من هم أحقّ بالخلافة من نسل الإمام علي، وأيّ تسلسل يجب أن يُراعى في ذلك ويُعترَف به. يعتقد الشيعة الزيديون (أتباع زيد أحدَ حَفَدة الإمام علي، وهي طائفة موجودة في اليمن) أن كل واحد من ذرية علي له الحق في أن يتقلّد إمامة المسلمين، بشرط أن يضمن لها أمنَها واستمراريتَها، وينجح في تقلّدها، بينما تعتقد طائفة الاثنا عشرية أن الإمامة تنحصر في اثني عشر إماماً من نسل الإمام علي يُعترف لهم بالعصمة، اختفى آخرهم في "غيبة"، ويُنتظر أن يعود منها بأمر الله، بصفته المهدي، ليعيد بناء النظام الإسلامي الشرعي، وليملأ الأرض عدلاً ونوراً بعد أن مُلئت جوراً وظلاماً، أي ليقيم الشريعة الإسلاميةَ الحقَّة في العالم. في حين ترى طائفة الشيعة الإسماعيلية أن العصمة تتوقف عند الإمام السابع من ذرية علي، إسماعيل الابن البكر للإمام السادس، وهو آخر الأئمة الذين اتفق الاثنا عشرية والإسماعيلية على الاعتراف بإمامته، سواء بسواء. لقد أثارت

وفاة إسماعيل في حياة أبيه الخلاف بينهم، إذ تشبّث الإسماعيلون بأحقية ذرية إسماعيل بالإمامة، رغم أنه لم يتقلّدها لوفاته قبل والده، لاعتقادهم أنها محفوظة لنسله من وجهة نظر الحق الشرعي، وأن آخر أئمتهم الغائبين ظهر من الخفاء/ الغيبة سنة ٩٠٩م، وأسس الخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا (سميت "الفاطمية" تيمناً بفاطمة بنت الرسول محمد وزوجة علي)، ثم انتقلت عاصمة الفاطميين، فيما بعد، إلى مصر، حيث استمرت العائلة الفاطمية تتولى الحكم حتى سنة ١١٧١م.

وبينما لا يختلف الشيعة الزيديون والخوارج مع أهل السنّة، الذين هم الأكثر انتشاراً في العالم الإسلامي، حول مبادئ أو معتقدات دينية أساسية، وينحصر خلافهم حول القيادة السياسية وتقلّد الإمامة، نجد الخلاف بين الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية خصوصاً، وبين أهل السنَّة خلافاً جذرياً لتبنّي الاثني عشرية والإسماعيلية تأويلاتٍ خاصةً لبعض المفاهيم المتعلقة ببعض المعتقدات الدينية والتشريعات الفقهية، لا يقرها أهل السنة ولا الجماعة ولا يتقبلونها. يشكّل الاثنا عشرية أغلبية الشيعة، وتُعَدّ إيران أهم مركز لهم، ولهم أتباع عدّة في بعض البلدان الإسلامية الأخرى. بينما لا تمثّل الشيعة الإسماعلية، التي تتوزع بين فرق متعددة عبر العالم الإسلامي، سوى نسبة ضئيلة جداً، وتعتقد أغلبيتهم اليوم بإمامة الآغا خان.

٤٣ -يخاف الغربيون والمسيحيون، عموماً، من المسلمين الذين يهاجرون من أوطانهم إلى أوروبا، من دون أن يكونوا مُهيَئين للحلول بين ظهرانيهم. بماذا يمكنك أن تنصح العالم الغربي؟

تُعدّ هجرة أعداد كبيرة من المسلمين إلى أوروبا وإقامتهم فيها حدثاً جديداً، ومعطى تاريخياً قريب العهد. سببها ما كانت تعانيه البلدان المستعمَرَة من وطأة الاستعمار، ومن الأزمات الاقتصادية، الأمر الذي أرغم جماعاتٍ كبيرةً من

مواطنيها على الهجرة إلى أوروبا بحثاً عن حياة أفضل. لكن، أعتقد أن بوسع هؤلاء المسلمين المهاجرين أن يشكّلوا اليوم جسرَ تواصل بين مختلف الثقافات. ولحسن الحظ، ذاك ما بدأنا نلاحظه، إذ اندمج أغلب مواليد الجيلين، الثاني والثالث، في المجتمعات التي استقبلت آباءهم وَوُلدوا بين أحضانها. لكن ذلك لا يعني أنهم مرتاحون كامل الإرتياح لظروفهم الحيوية، فكل صيرورة، مهما كانت إيجابياتها، تظلّ بها حمولة آلام تعوق انسيابها على السليقة. إن المهاجرين المسلمين عموماً، يعانون من التمييزَين العنصري والديني اللذين لا يزالان قائمَين في المجتمعات الأوروبية، يزيد من أوارهما ما يشهده عالم اليوم من تصاعد في موجات النزاعات القومية والعصبيات الدينية. في اعتقادي، أنه مهما كانت الجهود المبذولة لإدماج جماعات المسلمين بشكل مُرْضٍ في الأوساط المجتمعية التي تعيش فيها، لن يسود الاطمئنان والارتياح إلاّ إذا اعترف الجميع بالقيم الأساسية للقوانين التي تضبط تعايشهم والتعامل فيما بينهم، وأكدوا حرصهم على تطبيقها. على أنّ لي كامل اليقين بأن جميع المسلمين المهاجرين، باستثناء عدد قليل منهم، يحترمون قوانين الدول التي يقيمون فيها، خصوصاً ما يتعلق منها بإقامتهم ومصالحهم. والواقع أنهم بذلك يطبّقون تعاليم الإسلام التي تأمر المؤمنين باحترام الغير على الإطلاق، ويعني ذلك ضمنياً احترام قوانين الدول الأجنبية التي يقيمون في رحابها، ومراعاتها، مثلما تفرض التعاليمُ نفسُها، على غير المسلمين الذين يقيمون في دار الإسلام، أن يحترموا قوانينها.

عندما يتدبّر الإنسانُ الأمرَ يجد أن المسلمين في أوروبا لا يطالبون بامتيازات خاصة، ولا يطمحون في الحصول على ما ليس لغيرهم ممن هم في مثل أوضاعهم. إنهم يرغبون فقط في أن يُعترَف بدينهم، وأن تحترم الأوساطُ الأوروبية المعروفة بعراقتها طقوسَهُم، وتقدم الدولة المضيّفة لمؤسساتهم الإسلامية المساعدات والتسهيلات نفسَها التي تقدمها للمؤسسات المسيحية وغيرها. أعتقد أنهم محقّون

في التماس ذلك من المجموعات الأوروبية ليتمكّنوا من تدبير شؤونهم وقضاياهم الدينية بحيوية، وبنوعٍ من الاستقلال الذاتي والاقتصادي.

إن قضية الجيل المسلم الجديد في أوروبا ليست قضية اختيار بين الاندماج في المجتمع الأوروبي واستيعاب نمط حياته وتمثل سلوكاته، وبين انكفاء على الذات وانعزالية واغتراب، ما دام هؤلاء الشباب يشعرون في أعماقهم أنهم مسلمون بقدر ما هم كذلك أوروبيون، ولا يشعرون بأي تناقضٍ جوهريٍّ بين هاتين الهويتين. إن المشكل الذي يعانون منه، بوصفهم شباباً يجسدون آمال المستقبل، هو مشكل سلوك مجتمعي عام، إذ يتساءلون عن مدى قدرة المجتمع الأوروبي على التكيف مع متطلبات الأوضاع المعيشة، والتعامل باحترام وتسامح مع مختلف شرائحه من دون تمييز بينهم وبين من لهم معتقدات مغايرة لمعتقداتهم. وأعتقد أن أوروبا، ذات الأصول العريقة، التي استطاعت أن تتغلب على مآسي الحروب الدينية التي كانت مسرحاً لها خلال القرن السادس عشر، وأصبحت فضاء حيادٍ سياسي يسمح لمختلف التيارات المسيحية أن تمارس طقوسها بحرّية، وتتعايش فيما بينها تعايشاً سلمياً، أعتقد أن أوروبا هاته ليست عاجزة عن أن تظل اليوم فاتحةً صدَرها للفئة المسلمة من مواطنيها ليمارسوا، هم كذلك، تعاليمَ دينهم بما يليق من حريةٍ واحترام.

٤٤ -يبدو أن السلم لا يزال مُهدَّداً في الشرق الأوسط. متى يمكن، في رأيكم، أن يتحقق هذا السلام بشكل نهائي في القدس؟

إن أية محاولة للسلم ستكون فاشلةً، وغير قارةٍ إذا لم تحدث في ظل تسويةٍ شاملة وعادلة ودائمة، إذ إن أدنى خرق للاتفاقات، وأقل انحراف عنها أو عثرة يمكن أن تحول الأمور، حيناً وبسهولة، إلى وضع أسوأ مما هو عليه، مثيرة أعمال عنفٍ همجيةً، كما يَشهد على ذلك ما يجري حالياً في الشرق الأوسط. فعلى

المسؤولين عن المفاوضات المتعلّقة بالسّلْم، إذا أرادوا أن يتغلبوا على الحواجز التي تعرقل عملهم، أن يكونوا حازمين في اتخاذ قراراتهم، وأن يتلزموا بالبحث المستمر عن الحلول الملائمة، الجذرية الدائمة. يجب عليهم، بدءاً، أن يبلوروا مفاهيم جديدةً للسلم، ويضعوا خطاطات تضمن له مسيرةً متواصلةً، من دون تعثرٍ أو توقفٍ وانقطاع وتجاوز ما. يبدو لبعضهم أن القضية قضية غالبين منتصرين ومغلوبين منهزمين. ليكن في ذهن الجميع أن القضية الفلسطينية- الإسرائيلية لن يتسنى حسمها بمنطق المغالبة، ونجاح غالب وانهزام مغلوب، بل ببذل كلٍّ من الطرفين الجهد لاستبطان مشاكل الآخر عن طريق الحوار، ومحاولة الغور في أعماقه، وتلبُّس مشاعره وإحساساته وتقديرها، أيْ معايشته من الداخل، وتحسُّس قضاياه وهمومه، والعمل جهد المستطاع على حلّها. ليست القضية، أيضاً، قضية عدْل مقابل جور، بل إنها، كما يبدو لي، قضية انعدام إنصاف متبادَل. إن ما يجب أن تتوصل إليه المفاوضات هو الالتزام بحلّ متوازن وشامل وعادل يرضي الطرفين. وبكل صدق، نرى أن الفسطينيين محقّون في الشعور أنهم يقادون، دوماً، إلى قبول كل ما يُطلب منهم من تنازلات لتحقيق السلم، لأنهم، في نظر الرأي العالمي، يمثلون الطرف الأضعف في سيرورة السلام، ولا محيد لهم عن ذلك. أعتقد أنه لا يمكن، بأية حال، أن تتمادى التنازلات إلى ما لا نهاية له، ولا أن تزداد الأوضاع استفحالاً على حسابهم.

لا جدال في أن للقدس أهميةً خاصةً بالنسبة لمعتنقي الديانات التوحيدية الثلاث، وأن ما تحتله القدس من مكانة عندهم يستلزم معالجة مشكل السيادة العويص، والإشراف على الأماكن المقدّسة بحذر كبير وتفهم عميق. لا جدال، أيضاً، في أن ذاك ما يدعو إلى عقد مفاوضات متوالية للتوصل إلى حلول ملائمة تخفف من حدة المشكل، والالتزام بوفاقات ثنائية تتوخى الحفاظ على حرمة تلك الأماكن، والسهر على حمايتها.

يخطر إلى بالي، وأنا أتلفظ بهذا الكلام، الوضعُ المتميز للفاتيكان. إنه ليس عاصمةً للجمهورية الإيطالية، ولا مركزاً سياسياً لها. كما ترتسم أمام عيني صورةُ مكة والمدينة، فلا واحدة منهما، أيضاً، هي عاصمة أو مركز سياسي للمملكة العربية السعودية. إنني على يقين بأن الانطلاق من منظور كهذا يجعل الأماكن المقدّسة في منأى عن الانقسامات والمزايدات السياسية، وسيمكّن من إيجاد حل لمشكل القدس يرضي جميع المؤمنين من أتباع الديانات التوحيدية الثلاث، ويحافظ على وحدة المدينة المقدّسة، وتظل القدس بموجبه العاصمةَ الروحية لجميع المؤمنين ورمزاً للسلام والمصالحة، وتكون، في الوقت نفسه، عاصمةً لكلٍّ من الفلسطينيين والإسرائيليين.

٤٥ -لماذا تتولى الولايات المتحدة وروسيا تدبير شؤون الشرق الأوسط ومشاكله، بينما نرى أوروبا صامتةً؟

الأوروبيون وحدهم هم الذين يمكنهم أن يجيبوا عن هذا السؤال. على أنني أعتقد أن أوروبا ليست صامتة. إنها فقط، أو على الأصحّ، قليلة التأثير والفاعلية. ولا شك في أن ذلك يرجع إلى اختيارها السياسي، وعلاقاتها بالولايات المتحدة، وتفاعلها مع ما يعيشه العالم من أحداث. لقد أصبحت أمريكا، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي القوة العظمى الوحيدة في العالم، فمن البديهي أن يخوّلها هذا الوضع الجديد، الذي ينضاف إلى ما تتوفّر عليه من موارد اقتصادية ومالية مهمة، سلطة ممارسة نفوذها لتحقيق مصالحها في منطقة الشرق الأوسط، والتأثير الفاعل في كل الأطراف المعنية والمهتمة بشؤونه، ومن بينها أوروبا، وما لها هي أيضاً، من مصالح حيوية في المنطقة. وحيث أن مصالح الجميع لا يمكن أن تتحقق إلاّ في ظل السلام والأمن والاستقرار، فإن الحرص عليه والرغبة في السيادة بالمنطقة يشكّل هدفاً أساسياً من أهداف السياسة الأمريكية اتجاهها بقدر ما هو، كذلك، أساسي

بالنسبة للسياسة الأوروبية. هكذا يتبين أن المصالح الخاصة تطغى على ما يجب من إنصاف وعدل في حق الآخرين. إنني لا أتردد في أن أؤكد أن بوسع أوروبا الغربية، لو اختارت ذلك، أن تسهم بكيفية أنجع في بلورة حلول مبتكرة وملائمة لحسم المشكل الإسرائيلي -الفلسطيني. لكن، يبدو أنها فضّلت بناء نفسها أولاً، متلافيةً ما قد يجرّها قهراً إلى الانخراط في حرب لا ترغب فيها. يمكن تلخيص طبيعة العلاقات المتميزة، وميزانها، القائمة حالياً بين أوروبا والشرق الأوسط في ثنائية التواصل الخارجي والتبعية الضمنية. إننا في الشرق الأوسط، نَعدّ، مثلاً، التقارب بيننا وبين أوروبا، الذي تسجله اتفاقات برشلونة، أمراً مشجعاً وإيجابياً. إنه بكل وضوح في صالحنا معاً، خصوصاً أن تلك الاتفاقات لم تقف عند المواضيع التقليدية التي تشكّل اليوم بؤرة انشغالات العالم ومحور اهتماماته، مثل التطرف الديني، ومشاكل الهجرة، وأسلحة الدمار الشامل، بل تجاوزتها فتناولت التخطيط، على المدى البعيد، للفعاليات الاقتصادية والبيئية والإنسانية والأمنية التي تحدد طبيعة المستقبل المشترك لضفتي المتوسط.

أعتقد أن تقارباً يقوم على مصالح من هذا المستوى سيساعد، من دون شك، على التخفيف من حدة التوترات التي تتولد عن النزاع في الشرق الأوسط، ويسهم في خلق منطقة رخاء مشترك تتحقق فيها للجميع مصالحهم الخاصة، إذ سيكون لنمو البنيات التحتية، من شبكات اقتصادية ومنظمات وهيئات وتجهيزات، فاعلية إيجابية تستفيد منها جميع الأطراف. كما سيعمل هذا التقارب، مع مرور الزمن، على تجديد الآمال في قيام وحدة متراصة حول حوض البحر الأبيض المتوسط.

بيد أن تحقيق هذه الأهداف في ظل أمن جماعي وتنمية مستدامة، رهينٌ بمدى إيمان كل طرف بواجبه تجاه الآخر، وبما يبذله الجميع من أجل تحقيق المبادئ

الأساسية التي تسعى إلى التواصل والتآزر والاندماج، بدل التنافر والتطاحن والانعزال.

٤٦ -كيف يستطيع الزعماء العرب المعتدلون أن يضبطوا المتطرّفين؟

إذا أراد الزعماء السياسيون العرب أن ينجحوا في ممارسة سلطاتهم، يجب عليهم، كما يجب على نظرائهم في مختلف الدول، أن يبرهنوا لشعوبهم على قدرتهم على مزاولة مهامهم، وعلى صلاحيتهم في إدارة الشؤون العامة. فمتى اقتنعت الجماهير الشعبية بصواب الخطة التي ينهجها زعماؤها، وتبينت، بوضوح، جهودهم الإيجابية والمخلصة لتحقيق مطالبها، والتصدي لمعالجة مشاكل الفقر والتخلّف الاقتصادي والاجتماعي التي تعاني منها، انقادت تلقائياً لمساندتهم والتعاون معهم. ولا شك في أن هذا الانقياد يشكّل وسيلةً سلميةً ومنضبطةً لتحكمُّ القيادات العربية في جميع عوامل اليأس المتفشية بين الجماهير، والتي تُعدّ المصدر المتجدّد الذي يغذّي كل أشكال التطرف.

٤٧ -ما هي الأهداف والبرامج التي يسعى المسلمون اليوم إلى تحقيقها؟

يتصدر برامجَ المسلمين العملُ من أجل استتباب الأمن، وترسيخ قوائم السلام. إنهم متمسّكون بذلك وعياً منهم بأن الواجب يدعو كل واحد منهم إلى أن يعمل على تحقيق عالم تسوده العدالة والإنصاف واحترام الآخر، وأيضاً على ضمان بقاء الحياة الإنسانية واستمرارها، وحماية البيئة والحفاظ عليها. إن معاناة عدد كبير من المسلمين اليوم جرّاء الصورة التي للآخر عنهم تؤلمهم وتأخذ من اهتمامهم، إلى درجة أنهم يعتقدون أنهم ضحايا مؤامرة عالمية.

لقد تصاعدت خطورة مسلسل المآسي والأحداث الدامية الذي بدأت مع القضية الفلسطينية بشكل فظيع، وبلغت الذروة مع "الآيات الشيطانية"، وحرب الخليج، ومأساة البوسنة والكوسوفو، فخلق ذلك عند المسلمين شعوراً أنهم في حصار دائم

مخطَّط له، يراقب كل حركاتهم وسكناتهم. شخصياً لم يخطر إلى بالي، ولو لحظةً واحدةً أو عرضاً، أن ثمة مؤامرةً عالميةً ضد المسلمين. رغم ذلك أجدني أقدّر ما يحس به مَن يحملون هذا الاعتقاد من نبذ واحتقار. ليس القصد من تقديري لإحساسهم محاولة تسويغ أعمال العنف والقتل التي ارتفعت إلى انفجارات انتحارية، وإنما أودّ، فقط، القول إن منطق الواقع يؤكد أن هذه العمليات لن تتوقف ما دام المسلمون يعانون مآسي التهميش والطرد والملاحقة. أعتقد أن الفهم الصحيح للإسلام، ولمواقف المسلمين المعتدلين أمرٌ ضروري للخروج من هذه الحلقة المفرغة. يلزم كلا الطرفين، الغربيين والمسلمين المتطرفين، أن يعملا على تحسين ظنّ بعضهم ببعض، ويكفّا عن التقاذف بالشتيمة، وإضمار الحقد، والتعامل بشيطنة. على المسلمين، من جهتهم، أن ينبذوا من ذهنهم فكرة وجود مؤامرة عالمية ضدهم، وأن يقتنعوا أن التقدم الأوروبي، الفكري والمادي، لن يفضي إلى المسّ بمعتقداتهم وشعائرهم، ولن يقلّص نشاطهم وحيويتهم، بل على العكس من ذلك، سيعمل على إنعاشها وإثرائها. وعلى الغربيين أن يبذلوا بعض الجهد لتصحيح مفاهيمهم عن الإسلام كدين يمثل أتباعه خمسَ مواطنيهم، ويعاملوا المسلمين بما يجب من الاحترام اللائق بهم، فيبرهنوا، قولاً وعملاً، على أنهم لا يرون فيهم العدو الذي تجب محاربته. طبعاً، لهم الحق في أن يدينوا كل الأعمال التي تنتهك القوانين الدولية، فنحن لا نطالبهم بأن لا ينددوا بمرتكبيها مهما كان انتماؤهم الديني.

٤٨ -هل يصعب عليكم، يا صاحب السموّ الملكي، أن تكونوا سفيراً للسلام في عالم اليوم؟

ذاك أمر أضحى من الصعوبة بمكان. إن الأحادية القطبية التي يجتازها عالمنا اليوم تدعو المرء إلى أن يكون حذراً، ويظل على الدوام مرهفَ السمع، يتتبع عن كثب، مجريات الأحداث والتوترات التي تتجاذب أطراف العالم، ويحاول الإسهام

في إيجاد حلول تخفف من وطأتها. لي كامل اليقين بأن الطريق الأنسب للتغلب على مختلف الأزمات هي الحوار والإقناع، وليس عندي أدنى شك في جدواهما. لكن، ويا للأسف، إن المفهوم الأصيل للحوار أضحى ملتبساً يغلّفه الغموض، ونادراً ما يختاره المسؤولون لحل القضايا. لقد اتخذتُ شخصياً، منذ سنوات، بادرةَ دعوة عدد من المفكرين وكبار المسؤولين من معتنقي الأديان التوحيدية الثلاثة للتحاور فيما بينهم، واستخلاص قواعد سلوك متخلّق يقوم على قيم أخلاقية عالمية يتقاسمها جميعُ المؤمنين، وكان هدفي من وراء ذلك محاولة التأسيس لنظام قيمي أخلاقي مشترك، يمكّن من التعايش السلمي بين مختلف الشعوب والأمم والأجناس، مع احترام الذات، واحترام الآخر والاعتراف به والتسامح معه، ويعمل على إقامة جسور للتواصل والتفاهم فيما بينها، بدل حفر الخنادق والوقوع في التنافر والتطاحن. إنها جهود لا تزال متواصلة. لكن، رغم إيجابيات نتائجها يظل تأثيرها محدوداً، لأنها لم تستطع الوصول إلى آفاق بعيدة. فمن المؤسف أن مثل تلك المبادرات لا تحظى، من لدن أجهزة الإعلام، بالتغطية نفسها التي تحظى بها وقائع أعمال العنف والتفجيرات المهولة.

لعلكم تتفقون معي على أن هذا التقصير، وعدم إعارة اهتمام كبير لجهود كهذه يبعث على الشعور بالخيبة والإحباط. إن الرأي العام يجهل أن من الممكن التغلب على مشاكل كثيرة، بما تمهده مثل تلك المبادرات من سبل ووسائل لتدارسها، وأن حلها رهين بما تستطيع أن تقدمه لها جلسات الحوار والتشاور من اقتراحات. لا يخفى على أحد أن تَوَفُّق مختلف المبادرات في تقريب الشقّة بين أهل الأديان الثلاثة، ورصّ أسس التفاهم بينهم، وأن نجاحها فيما تصبو إلى تحقيقه من أهداف سامية، كل ذلك رهينٌ باعتراف الجماهير العامة والأجهزة الرسمية بما يبذل في نطاقها من جهود، ومساندتها وتشجيعها لها. إن لحوار الأديان والثقافات تأثيراً كبيراً ومهماً

في صيرورة السلام ومسيرته. ذلك أن تعاليم الدين وأخلاقياته، ومفاهيم الثقافة السياسية وأبعادها، تشكّل، جميعها، عناصر جوهريةً في هوية الأفراد والمجتمعات وسلوكاتهم. إن لقاءات صريحة وصادقة يجري خلالها تبادل وجهات النظر، هي وحدها الكفيلة بأن تعمل على تصفية الأجواء، وبناء مستقبل تنجلي عنه كل الغيوم، وتنمحي منه كل الخصومات والأحقاد المنبثة بين أوروبا والمسلمين، مستقبل لن ينظر فيه بعضهم إلى بعض نظرة عداء وأنانية، بل يتبادلان في أجوائه نظرة محبة وتضامن تفرضه روابط الجغرافيا والتاريخ والثقافة. ذاك ما سيمكنهم، جميعاً، من استغلال ما يتوافر عندهم من مؤهلات، ومن أن يضعوا يداً في يد، لتحقيق مصالحهم المشتركة، وكل ما فيه الخير للبشرية جمعاء.

القسم الثالث

مع صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن بن طلال

في حديثه عن: الديمقراطية و تقاليد الآخر ومنظومة قيم عالمية

الإسلام والمجتمع المدني والديمقراطية

عن التنوع والتعددية:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢).

عن الإيمان والدين:

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

عن يوم الحساب:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ • لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ • إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ • فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ • إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ • ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (الغاشية: ٢١-٢٦).

عن الوفاق والتعايش:

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

عن التمييز العنصري:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤).

لقد عملت الموجة العارمة للأيديولوجيات والمطالب التي انطلقت في أعقاب الحرب الباردة على تغيير المشهد السياسي لخريطة العالم، وأحدثت تحولاً جوهرياً في كل جزء من أجزائه. لقد تزايد، بشكل مدهش وبأكثر من أي وقت مضى، عدد من يبحّون أصواتهم مطالبين بحقهم في تقرير مصيرهم وبناء مستقبلهم. وأضحت عبارات من مثل "المشاركة السياسية"، و"الشفافية"، و"المسؤولية العامة" تشكّل معالم الحقبة الحالية، وشعارات النضال المتأجج على شتى الجبهات. أهم ركائز مقوّمات هذا الاندفاع الهائل لموجة التحول السياسي هاته ما اصطُلح على تسميته "المجتمع المدني"، بالمفهوم الحديث، ونشاطاته المتزايدة.

إن كل فرد في المجتمع يحتاج، كما تثبت ذلك فلسفة الفكر السياسي المعاصر، إلى إفراغ طاقاته عبر تفاعلٍ ديمقراطي، ضمن منظماتٍ وهيئات مجتمعية يتبلور وجودها بتجاوز البيئة الأسرية، والخروج من دائرتها، والاستقلال عن الدولة، والانفلات من حيز نفوذها المطلق، لكنّ موقعها يظل من دون أن يصل إلى حدود الحكم المركزي. يشمل نشاط تلك التنظيمات جميع شؤون المواطنين في علاقاتهم مع بعضهم بعضاً ومع الدولة، كما تقوم بدرء وحسم ما قد يحدث من خلافات بينهم وبين السلطات المركزية في حالة هيمنة نظام استبدادي.

إن كل جمعيةٍ مستقلة، أو رابطة تتأسس بمبادرةٍ من أعضائها، وبمحض إرادتهم وبفضل جهودهم، رغبةً في تحقيق مصالح مجتمعيةٍ، تُعدّ جزءاً من المجتمع المدني وصورةً له.

بيد أن هذا النمط التنظيمي يتطلّب، أيضاً، من الفرد، الخضوعَ لقواعد سلوكٍ محددةٍ والالتزام بها في نشاطاته داخل المجتمع. ومما لا شك فيه أن الاعتراف بالآخر المغاير، وبحقه في الوجود، واحترام آرائه، والتسامح معه يشكّل البند الأساسي لتلك القواعد، والرهان الذي يضمن قيام مجتمعٍ مدنيٍّ ديمقراطيٍّ حقٍّ.

سيتمكن الفرد، في ظل المجتمع المدني، من تحقيق هدفين ساميين: مشاطرة مواطنيه القيمَ الأخلاقية وقواعدَ السلوك نفسها التي توافقوا على وضعها لتنظيم العلاقات فيما بينهم كمجتمع مدنيٍّ، ومقاسمتهم التفكير نفسه حول ما يجب القيام به مما فيه خير لهم، وما يجب تفاديه مما ليس في صالحهم. أما الهدف الثاني فهو تمكّن الفرد من التعامل مع حكومة تمثيلية تخضع للمساءلة طبقاً لقواعد تضبط علاقاته مع الدولة بوصفه عضواً داخل المجتمع المدني.

يعتقد بعض المفكرين أنه لا توجد عند العالم الإسلامي بنيات أساسية لتنظيمات المجتمع المدني ونشاطاته، بل يذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك ويرى أنه لا يمكن أن تتوافر له، فهي إما منعدمة تماماً، أو غير فاعلة في حال ما إذا كانت موجودة أصلاً. نتيجة لذلك، فإن البلدان الإسلامية ودول الشرق الأوسط، بصفةٍ خاصةٍ، لا تسهم في عملية نشر الديمقراطية الشاملة التي تسري عبر امتداد العالم. وسبب ذلك بالدرجة الأولى في اعتقادهم، هو الإسلام الذي يشكّل حاجزاً يَحُول دون قيام نظم تمثيلية، وسياسات تعددية يشارك فيها عامة الناس. ودليلهم على ذلك، كما يبدو لهم، عدم وجود أي نظام مماثل لنظام الحكومات التمثيلية المعاصرة في تقاليد النظم السياسية الإسلامية، وأيضاً، فقدان مجتمعات البلدان الإسلامية لتنظيماتٍ متكاملةٍ مؤلفةٍ من جمعياتٍ واتحاداتٍ وهيئاتٍ مستقلةٍ منبثقة عنها، وقادرةٍ على أن تدبّر نفسها بنفسها.

ويدّعي هؤلاء المفكرون، أيضاً، أن الثيوقراطية المستبدة والخنوع اللذَين سادا مختلف مراحل التاريخ الإسلامي يجعلان من المستحيل توفر العالم الإسلامي على مجتمعٍ مدنيٍّ فعّالٍ، لا الآن ولا مستقبلاً، ما يفضي، حتماً، إلى دوام افتقاده لنظام حكم تمثيليٍّ قائم على المشاركة الشعبية. إن اقتناعهم باستمرارية هيمنة نموذج النظام الإسلامي التقليدي القائم على استبداد الحكام، وخنوع الشعوب ورضاها، الصريح والضمني، عن سلطاتهم، يسوقهم إلى الجزم بأن البلدان الإسلامية، حسب توصيفهم لها ولطبيعة سياستها، لن تعرف أبداً طريقها إلى الديمقراطية.

إذا وضعنا جانباً بعض تأثيرات الموقع الجغرافي للبلدان الإسلامية، وخصائص تراثها الحضاري، فإننا لن نتردد في أن نؤكد أن قيام الدولة الإسلامية الحديثة، على مبادئ تستجيب لمقتضيات العالم المعاصر، حظيت بتأييد كبير من لدن معظم المسلمين، لأنهم يرون في ذلك توافقاً مع مجمل معتقداتهم وتعاليم دينهم التي تحدد سلوك الفرد داخل المجتمع عموماً، وتعامله مع الآخر المغاير له. من ذلك، مثلاً، حق كل فردٍ في الاحتفاظ بهويته، واحترام حقوق الأقليات، وإشاعة ثقافة التسامح مع الآخر، واحترام أحكام القانون، وقبول التعددية الثقافية، وتنمية عوامل الاندماج العرقي والإثني، وترسيخ مبدأ المساواة والإنصاف في جميع الميادين. لا شك في أن من شأن هذه المبادئ، إنْ هي رُوعيت وجرى تطبيقها، أن تضمن سير المجتمع سيراً سليماً. ليس معنى ذلك ضرورة تطابق خطوات مسيرته في جميع البرامج والمخططات مع المجتمعات غير الإسلامية، بل فقط تحقيق الأمن والاستقرار والديمقراطية. إنها أمور رهينة بمدى وعي الأفراد والجماعات بواجباتهم وحقوقهم، واحترامهم للآخر، واعترافهم بكرامته كمكتسب طبيعيٍّ، وبحق كل إنسان في العيش داخل مجتمع آمنٍ خالٍ من الخوف والتعصب والتمييز العنصري.

تستقي هذه المبادئ جذورها من تعاليم القرآن الكريم التي لا تجيز أية حربٍ عدوانية، ولا تبيح العنف والإجرام في حق الآخر، ولا تتسامح مع مَن يمارس ذلك. إنها تشترط في الإذن بمشروعية القتال أن يكون بهدف الدفاع عن حقوق المستضعَفين وحمايتهم، لا من أجل الهيمنة. لا توجد أيَّةُ آية قرآنية تقرّ استعمال القوةَ ضد غير المسلمين، أو الدخول عنوةً إلى أراضيهم. إن الحرب المسموح بها، كما يتبين من مختلف السياقات، مقيدة بهدف دفاع المسلمين عن أنفسهم وبخوضها "في سبيل الله"، أي في سبيل حماية حقوق الفقراء والمساكين. إن العديد من الآيات القرآنية تلحّ في الدعوة إلى مساعدة الأقرباء واليتامى والأرامل، والوقوف إلى جانب المحرومين والمستضعَفين، وغيرهم من المهمَّشين والمضطهَدين، وتأمر المسلمين بأداء الزكاة لهم، وترغّبهم في الصدقة والتسابق لفعل الخيرات. إن "سبيل الله" تقوم على أسس من الرحمة والتعاطف، والإحساس بآلام الآخرين، وتقاسمها معهم. لا يستطيع الناس أن يكونوا رحماء إذا لم يكن لهم شعور بمعاناة المحرومين، ولا الرأفة بهم، والإيمان بواجبهم تجاههم. ذاك ما يحثّ عليه نبي الإسلام في العديد من الأحاديث النبوية الشريفة كقوله مثلاً: "مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى".

في مقابل هذا الرأي الذي يقول باستحالة توفر البلدان الإسلامية على مجتمع مدنيٍّ، وافتقادها القدرةَ على إقامة نظام حكم منفتح يقبل بمشاركةٍ أوسع لفئات المجتمع، ويكون أكثر تمثيليةً لعموم الشعب، يلاحظ اليوم تزايد عدد المفكرين الذين يعارضون هذا الاعتقاد، ويستشهدون على خطاه بمستندات تاريخية تنقل لنا صورة عما عرفه العالم الإسلامي من نظم مجتمعية مماثلة للمجتمع المدني المعاصر، تتميز بقيامها على قواعد تنظيم جماعيٍّ، وبسهرها على تطبيق مبادئ الشورى

والتمثيل السياسي. بناءً على ذلك، يرى هؤلاء المفكرون أن من الممكن الاستفادة من تلك التجارب وتعميمها، ويخلصون إلى التأكيد أنه توجد، بالفعل، في مختلف بلدان العالم الإسلامي، إمكانات هائلة ومؤشرات واعدة لقيام حكومات تستند إلى التمثيل الشعبي.

شخصياً، أؤيد أصحاب هذا الرأي، لأنني أعتقد أنهم أقرب ما يكونون إلى الواقع. لقد عرف العالم الإسلامي، طوال تاريخه، وعلى الدوام، تنظيماتٍ مجتمعيةً تمارس نشاطات متنوعةً وقواعد سلوكٍ جماعيٍّ منبثقةً من المجتمع، على شاكلة ما يُعدّ اليوم من خصائص المجتمع المدني في عالمنا المعاصر وميزاته، وشكلت الحضارة الإسلامية، قبل اكتشاف العالم الجديد بقرون عديدة، بوتقةً انصهرت فيها الثقافات والأعراف. فلن يكون من قبيل الرومانسية إذاً أن نذكر بأن العالم الإسلامي كان، قبل نشوء الدولة القومية، المكانَ الآمن الذي يلجأ للعيش في رحابه العديدُ من الذين يتعرضون للاضطهاد الديني والفكري في بلادهم، وأنه كان المنطقة الوحيدة، في كوكبنا الأرضي، حيث الدين يحثّ على طلب المعرفة، ويدعم التقدمَ العلمي، وحيث تُبذل جهودٌ كبيرة للحفاظ على توازن المجتمع وتماسكه لا تقل عما يُبذل لحفظ الأمن وسيادته، وذلك من دون تعسفٍ أو إكراه، خصوصاً فيما يتعلق بالشؤون الدينية وأحكام الشريعة الإسلامية وقوانين التنظيم المجتمعي. كان النهج المتّبع هو الإرشاد والنصح والتعليم والتوعية، وإنماء روح المسؤولية المدنية. وكان العالم الإسلامي، كذلك، مركزاً منفتحاً يرحب بالتنوع والاختلاف، ويسعى إلى التنوير المدعوم بالوعي، والشعور المتخلق في جميع الممارسات، وضمن مختلف مجالات الحياة. من كل ما تقدم يبدو واضحاً، أن بين تنظيمات المجتمع المدني ومبادئ النظام الإسلامي علاقة عضوية توافقية واندماجية.

إنني أؤمن بأن آفاق المستقبل واعدة. لكن يبدو أننا لا نحتاج إلى أن ننصّ على أن من الطبيعي أن لا ننتظر قيام ديمقراطية في العالم الإسلامي على غرار ديمقراطية "ويستمنستر" في بريطانيا، فذاك أمر بعيد عن التحقق، لأن ديمقراطيةً من النمط الإنجليزي تحتاج إلى جذورٍ ضاربةٍ في الأعماق. كل ما أود قوله هو أن أصحاب الرأي الأول، الذين يستبعدون إمكان قيام مجتمعات مدنية ديمقراطية، يجهلون السيرورة الحتمية للتطور التاريخي، ويتغاضون عن عَدّ ما تعيشه منطقتنا من سيرورة التحول التدريجي المستمر، الذي يعمل على تغييرها تغييراً جذرياً صوب مسارٍ ديمقراطيٍّ، لا يقل في مفعوله عن التغيير الذي تحدثه الثورات، بل يتميز عنها، ويمتاز بتجذّره واستمرارية فعّاليته.

ولكي أوضح أكثر بعض مرتكزات هذه النظرية، سأتحدث، بدايةً، عن تقاليد النظام الإسلامي، وأقف، بصفة خاصة، عند ما له علاقة منها بقواعد التنظيم الحديث، وأنماط السلوك في المجتمع المدني الديمقراطي ومستوياته وخصائص دولة القانون. بعد ذلك أنتقل إلى استعراض بعض توجهات التنظيم السياسي في العالم الإسلامي اليوم وعلاقاتها بالمجتمع المدني.

يعتقد بعض المسلمين أن الإسلام، بوصفه ديناً، جاء جامعاً لكل الأحكام والتشريعات المتعلقة بالوجود الإنساني، وأنه وحده الدين والنظام الذي يبلور الحقيقة المطلقة حول هذا الكون، ويمتلك وسائل تدبير شؤونه والمحافظة على استمراريته. من هذا المنظور، يرى هؤلاء أن الإسلام يتعارض مع تنظيمات المجتمع المدني، وأنهما نقيضان لا يلتقيان. ثم يستخلصون أن النظم العقائدية، والتشريعات السماوية التي يَعدّونها المرجعية الوحيدة لكل الأحكام والقيم، قلّما تقبل التعدديةَ والتسامح مع الآخر. أعتقد، شخصياً، أن القائلين بهذا الرأي هم الذين يفتقدون روح التسامح، ويجهلون مزايا الاختلاف والتعددية التي تجسّد،

على خلاف ما يعتقدون، قاعدةً أساسيةً في التصور الإسلامي لحقيقة الوجود الإنساني، ويجهلون، لانعدام بصيرتهم، ما في ذلك من نفع، أو يتغافلون عنه ولا يقرّونه. إن الله، لحكمةٍ أرادها، جعل الناس شعوباً مختلفةً، ودعاهم إلى التعارف فيما بينهم، واحترام بعضهم لمعتقدات بعض، تقول الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: ١٣). إن إلحاح الإسلام في دعوته إلى الاعتراف بالآخر، والتعرّف عليه، وتقدير قيمه، وإلى الفهم العميق لحكمة التنوع البشري هو ما مكّنه من الانتشار والنمو المتزايد، على امتداد القرون، عبر مختلف أنحاء العالم، وإثراء تراثه وحضارته بثقافات البلدان المفتوحة وحضاراتها.

إن العالم الإسلامي، وهو يتحرك، بجدٍّ، في اتجاه التحول الديمقراطي، متأكد من قدراته وإمكاناته لشق مسار اختاره عن اقتناع. لكنه يرغب في أن يُنظر إليه نظرة احترام تعزز ثقته بنفسه وتبوأَهُ المكانة اللائقة به ضمن كوكبة الأمم والشعوب التي لها وزن حضاري، بدلاً من أن يُستهدَف ويُنَظر إليه كتجمع دولٍ مارقةٍ تبيض الإرهاب وتفرّخه، وتأوي النُّظُمَ الاستبدادية. والحقّ أنه لا توجد أولوية وحيدة متفردة، بل مجموعة أولويات وتحديات لها المستوى نفسه، وذات استعجالية ملحّة. إن القول إنّ استنبات الديمقراطية هو السبيل السهل الكفيل بحل قضايا عديدة ومعقدة إنما هو تبسيط خيالي للحقائق، وتغافل عما يعيشه العالم من أحداث خطيرة سوف ندفع جميعاً ثمنها لتواطئنا في العزوف عن بذل الجهد لمعالجة الأوضاع المتردّية، والقضاء على ما يعمل على استفحالها، وعلى اختمار الأحداث وتأججها.

إن القرآن الكريم، وهو ينص على ما أراده الله من خلق البشرية شعوباً وقبائل مختلفة ألوانها ولغاتها، يؤكد أن في ذلك حكمة، وآية من الآيات التي تدلّ على قدرة الخالق، وتثبت عظمته وكمال تدبيره لشؤون المخلوقات. يقول تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ**

خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (الروم: ٢٢). لقد جاء الإسلام في مرحلة بلغت فيها الإنسانية درجة من النضج الفكري ما يخوّلها القدرة على تدبّر آيات الكون، والتعايش السلمي بين شعوبها وأممها، والتَّحابّ والتعاون فيما بينها على تدبير شؤون الحياة. لقد اختار الله الإسلام ليكون آخر الأديان السماوية، وديناً للناس جميعاً لا لشعبٍ مفضَّل، مكملاً لهم دينهم الذي ارتضاه لهم، ومُتِمّاً نعمته عليهم، وداعياً إلى احترام تنوع الشعوب والقبائل وتعددها، والاستفادة من ذلك بالتعارف والإثراء الفكري والحضاري، وفَرَضَ على معتنقيه عدمَ إلزام من لا يدينون بدينهم، من الأفراد والجماعات والأمم، بالدخول في الإسلام وإكراههم على ذلك، كما جاء في الآية: ﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

ويُذكر للنبي محمد صلى الله عليه وسلم قصة حمايته لرموز السيد المسيح وأمه السيدة مريم العذراء في الكعبة المشرّفة حينما حُطمت وأُزيلت جميع الأصنام. هذه الحادثة لا تؤكد فقط تسامح الإسلام مع من لا يدينون به من أصحاب الديانات التوحيدية الثلاث، بل تبّين، كذلك، مدى إلحاحه على الاحترام الذي يجب أن يكنّه المسلم لمريم الأم، وابنها عيسى نبي الله ورسوله[1].

إن ملازم هذا الأمر القرآني هو أنه ليس من اختصاص أيٍّ كان، وبالأحرى المسلم، تقييمُ عقيدة الآخر، ولا محاسبته أو محاكمته لاختلافه معه في دينه، لأن الحساب والجزاء أمر يرجع إلى الله وحده. إن تعاليم الإسلام تأمر المسلمين أن يجادلوا الآخرين، خصوصاً أهل الكتاب، بالتي هي أحسن، ويحثهم على التسامح، والتعايش السلمي معهم، ومع غيرهم من الأمم، واعتبار كرامتهم، وتقدير قيمهم، واحترام عقائدهم وحقهم في ممارسة تعاليم دينهم.

---

(١) أ. د ويترينغ (د. جومبير)، الكعبة، في كتاب. أ. رجب "إنسيكلوبيديا الإسلام"، الطبعة الجديدة، لايدن، ١٩٦٠، المجلد الرابع، ص ٣٢٠.

هكذا يبدو جلياً أن من المبادئ الأساسية في الإسلام عدم التمييز بين المقيمين في رحاب داره من يهود ومسيحيين وغيرهم، فالقرآن يدين كلّ من يمارس العنف والإكراه كإدانته فرعون بمصر لِمَا ارتكبه من عنفٍ ضد بني إسرائيل. إن ما عرفته بعض الحقب من معاملة مخالفة لهذه التعاليم، معاملة استثنائية، إذ يسجل تاريخ العالم الإسلامي أن مجتمعاته ودوله، فتحت صدرها لغير المسلمين امتثالاً لتلك التعاليم، منذ نزولها، والتزمت بها في سلوكاتها وتعاملها معهم، ومنحتهم ما للمسلمين من حقوق مدنية، إضافةً إلى رعايتها وحمايتها لهم. وتُعدّ المعاهدة المعروفة باسم "ميثاق المدينة" التي بلورت بنود الاتفاقات المبرمة بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبين القبائل غير المسلمة، أقدمَ وثيقة في تاريخ الإسلام تنص على الالتزام بالتعاليم القرآنية التي تحدد معاملات المسلمين مع غيرهم. لقد خوّل الميثاق لكل طرف من أطرافه حقَّ تطبيق تعاليم دينه، وأحكام شرائعه، وممارسة أعرافه وتقاليده الخاصة، ومنح حقوق الرعاية لجميع من يقيمون تحت راية الإسلام، وفرض عليهم ما تستلزمه من واجبات مع مراعاة خصائص معتقداتهم الدينية. لقد كان ميثاق المدينة، في التصور الإسلامي، بمثابة قانونٍ مدنيٍّ، ومدوّنة تضع أسسَ نظم سياسة تعددية منفتحة، كما يؤكد ذلك الدكتور عزيزة الهبري، أحد علماء الفقه الإسلامي، الذي كتب يقول: "واضحٌ تماماً أن ثمة تطابقات مهمة بين المبادئ التي تضمنها ميثاق المدينة ونُفذت في القرن السابع الميلادي، وبين المبادئ التي تضمنها الدستور الأمريكي الذي وُضع في القرن الثامن عشر. فلقد سبق أن منح ميثاقُ المدينة حريةَ الدين والحقوق والواجبات الدستورية للمسلمين وغير المسلمين على قدم المساواة"[1].

بمقتضى دستور المدينة هذا، لم يكن النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو نفسه الذي يُصدر التعليمات، ويسنّ القوانين المتعلقة بإدارة شؤون المدينة، بل يتشاور في

---

(١) انظر: "القانون الدستوري الإسلامي والأمريكي: إمكانية الاستدانة، أو تاريخ استدانة". مجلة القانون الدستوري، جامعة بنسلفانيا، المجلد ١: ٣، ربيع ١٩٩٩.

شأنها مع قادة العشائر والطوائف لتبنّي ما يجري عليه الاتفاق معهم في شأنها. لم يكن توفّقه الدائم في جميع مهام القيادة والتحكيم وفضّ النزاعات، وكذا احترام شيوخ القبائل وعلية القوم له، وامتثالهم لأحكامه، ليتحقق لولا حكمته، ورجحان عقله، ومنهج الشورى الذي كان يسلكه في معالجة مختلف القضايا، والعدل والإنصاف فيما يقضي به. أضف إلى ذلك شيمه الكثيرة، وليونة طبعه، وحسن معاشرته، كل ذلك جعله يتقلّد زمامَ القيادة وأمور السلطة بانقياد الآخرين إليه عن طواعيه منهم، وليس بالقوة العسكرية أو الإكراه وادعاء حقٍّ مكتسب في تولي الحكم[1]. بعد قرون من حياة الدولة الإسلامية سَنّ نظامُ "الملة" على عهد الإمبراطورية العثمانية قوانين مدنيةً خاصةً بغير المسلمين، تخوّلهم إدارة شؤونهم الطائفية وفق ما يشاؤون، وتمنحهم ما للمسلمين من حقوق، وتلزمهم بما عليهم من واجبات، ما عدا الخدمة العسكرية والجهاد، فلقد أعفاهم منهما مقابل جزية يؤدونها للدولة. لقد كان لهم الحق في تحمّل المسؤوليات كافة، فتقلّدوا المهام الإدارية المختلفة، باستثناء المناصب العليا المتعلقة بقيادة شؤون الدولة ومراكزها التنفيذية التي كانت حصراً على المسلمين، تلافياً لما قد يحصل مما هو في غير صالح الأمة الإسلامية. أعتقد شخصياً، أن من الممكن أن تشكّل تلك المواثيق أسساً مرجعيةً مهمةً لتنظيمات المجتمع المدني في العالم الإسلامي.

ثمة أمثلة تنظيمية أخرى رائدة، وسوابق متعددة في تاريخ الأمة الإسلامية يجب أخذها في الحسبان، والنظر إليها بمزيدٍ من الاهتمام، والعمل على الاستفادة مما حققته من نجاحات.

كانت تقاليد النظام في المجتمع الإسلامي تتمحور حول سلطة سياسيةٍ مركزية تتولّى الإشراف على المهام الدينية والدنيوية، وعدد من التنظيمات المجتمعية المدنية تتولى حقولَ العمل العام، وتدير شؤون الحياة اليومية للأفراد والجماعات،

---

(١) غب، موسوعة إنسيكلوبيديا الإسلام، المجلد الخامس، ص ١٩٩٦.

ترعى مصالحهم، وتسهر على إقامة قنوات التعاون وتبادل المساعدات فيما بينهم. كانت جمعياتها ونقاباتها تتكوّن من طبقة التجار والحِرفيين، وهيئة العلماء المسلمين وغير المسلمين الذين يمثلون الطوائف والأجناس المختلفة، وكان أعضاؤها يتمتعون، عموماً، باستقلاليةٍ ملحوظةٍ عن السلطة المركزية من حيث الصلاحيات الموكولة إليهم بما فيما يمارسونه من أعمالٍ، ويتخذونه من قراراتٍ، ويقترحونه من وسائل لجمع الموارد المالية وصرفها. يدير معظم شؤونهم الداخلية قادةٌ منتخَبون، أو معيّنون من كبار القوم ووجهائهم، يُطلق عليهم "أهل الحل والعقد"، ويُعَرفون بـ "المنفّذين" أو "الناطقين" باسم الجماعة. يقع على عاتق هؤلاء الرؤساء القادة تدبير المهام العليا لشؤون التنظيم الداخلي، وفضّ النزاعات التي كانت تنشب، أحياناً، في صفوف جماعاتهم، أو بينهم وبين جماعات أخرى، كما كانوا يمثّلون عند السلطات المركزية مصالحَ الناس عامةً، ومصالح فئاتهم بصفة خاصة، وفي الوقت نفسه يعملون على ترسيخ وتقوية مشروعية السلطة المركزية عند أعوانهم، ويحرصون على تنفيذ قراراتها في أوساط العامة، بينما كانت السلطة المركزية تتكفّل بجبي الضرائب، وتتولى مهمة القضاء، والسهر على الحفاظ على النظام العام للدولة، واستتباب الأمن، إضافةً إلى تحمّلها مسؤولية الدفاع عن البلاد. لم يكن يُنتظر منها تقديم أية خدمات مجتمعية، ولا ممارسة أعمال، ولا وظائف اقتصادية بشكل مباشر. كانت هذه المهام، في أغلب الأحوال، من اختصاص التنظيمات المجتمعية التي كانت تضم من بين أعضائها، بشكل تلقائي، أفراداً لهم انتماءات دينية وإثنية غير إسلامية ولا عربية، تربطهم اهتمامات مشتركة، وانشغالات مهنِية وحرفية متعددة. يتعاون معهم المسلمون امتثالاً لما تمليه عليهم تعاليم دينهم، وقيمه الأخلاقية السامية من واجبات إزاء غيرهم، ويتبادلون فيما بينهم المصالح والخدمات المختلفة. هكذا، كانت تقاليد النظام في المجتمعات الإسلامية توكِل إلى التنظيمات المجتمعية ممارسةَ الشؤون المجتمعية والسياسية

والاقتصادية، والأنشطة والأعمال المختلفة المتعلقة بها، وتمكّنها من تحقيق وجودها الفاعل، والإسهام في التوجّهات العامة للدولة، الأمر الذي يتماثل وخصائص المجتمع المدني في عالمنا المعاصر، وإسهامه في سيرورة عمليات الدمقرطة التي يسهر على تحقيقها.

يجب التذكير، كذلك، بأن التجارة كانت تمثل نشاطاً أساسياً في المجتمعات الإسلامية، وتحتلّ مكانةً مركزيةً فيها. أُنشئت لتفعيلها آلياتٌ ومراكز خاصة ضمن المنشآت المجتمعية، وسُنَّت لها قوانين جعلت من الشرق الأوسط وريثَ أقدم سجلٍّ في تاريخ القانون المدني والتجاري، ينصّ على حقوق التجار وممتلكاتهم ويحددها. ومن الراجح أن أنماط التعاقد التي تنظّم مثل تلك الحقوق صيغت، أول مرةٍ، في الشرق الأوسط، وأنها الأولى من نوعها في الميدان التجاري.

إن التكتلات ذات المصالح المشتركة، من منظمات وهيئاتٍ وجمعيات غير حكومية وهيئات نقابية، التي ربما شهد العديد منها ميلاده فقط في العصر الحديث في بلدان أوروبية، ومناطق أخرى من العالم غير إسلامية، كانت قد ازدهرت من قبل، واحتلت مواقع الصدارة في مختلف المجالات بالعالم الإسلامي، خلال القرون الوسطى.

كانت المراكز التجارية، كمثيلاتها من التنظيمات الجمعوية المعاصرة، أي الغرف التجارية، تتمتّع بنفوذ قويٍّ، وكان لها تأثير كبير في قرارات السلطات المركزية دفاعاً عن مصالح أعضائها، وإن لم تكن أحياناً منسجمةً مع أهداف السياسة العامة التي يخطط لها المسؤولون من ذوي الأمر، إضافة إلى ما تقوم به من أدوار مهمة وبارزة، إذ لم تكن تعمل فقط على إنشاء العلاقات التجارية وتسهيل أعمال التجار، بل تشجّع على تقديم وقفيات، وتتيح الفرص للقيام بأعمال البِرّ والإحسان، وتَسنّ أنظمةً لضمان حقوق الكسب والعيش للمحرومين، وغير ذلك مما يخدم

المصالح العامة. ولا شك في أن ما كان لتلك التنظيمات من قيم إسلامية سامية، وبعد إنسانيٍّ متخلق، هو ما جعلها فريدةً من نوعها في الإطار الإسلامي. يسجّل التاريخ أن انتشار الإسلام في الكثير من مناطق العالم، والاندماج الذي تحقق له على مختلف المستويات، لم يكن صدفةً ولا هرولةً غير مستَوعَبةٍ ولا منضبطة، وإنما كان حركةً رصينةً ومسؤولةً، تستند، في منطلقها، إلى الاعتراف بما يوحِّد الناس، بوصفهم بشراً، من اهتمامات مشتركة، وقيم أخلاقية في سلوكاتهم الحيوية. ذاك منطلق يدعو حتماً إلى النظر في تقييم الأولويات القمينة بتحقيق الخير العام للجميع، ووضع معايير جديدة للعمل الإيجابي الفعّال، محدِّدة لضوابط تعامل الأفراد والجماعات فيما بينهم، في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

يقودني هذا الحديث إلى تأمل الوضع الراهن للعالم الإسلامي، والتساؤل عمّا إذا كان لمواطنيه، أفراداً وجماعات، حضور فاعل، ومؤثر فيه. هل يتوافر لهم من الآليات والمصداقية ما يمكّنهم من أن ينظّموا أنفسهم ونشاطاتهم بالطريقة التي تخدم مصالحهم، وتنقل وجهات نظرهم وآراءهم ومطالبهم إلى حكوماتهم، وأن يؤثروا في سياساتها تأثيراً إيجابياً وفعالاً؟

إن ما يمكن أن نختم به حديثنا عن هذه الخلفية الدينية والتاريخية التي قدمناها أعلاه، هو التأكيد أن العالم الإسلامي فيه، اليوم، شرائح واسعة من ذوي المصالح المشتركة، تمارس نشاطاتها ضمن تنظيمات المجتمع المدني. إنّ في كل بلد من بلدانه، لا أحزابٌ سياسية متعددة حسب، بل أيضاً، جمعيات خيرية وثقافية ودينية ونقابات مهنية، لكن نادراً ما يلتفت إليها الغرب ويعترف بها. ثمة على امتداد المنطقة عدد لا يحصى من التنظيمات التطوعية غير الحكومية، نذكر من بينها: منظمات حقوق الإنسان، والاتحادات النسائية، والجمعيات المدافعة عن حقوق الأقليات، جميعها

تمارس نشاطات متنوعةً بفاعليةٍ وإخلاص كبير. يلتقي المواطنون، دوماً، بشكل تلقائي، أو حسب مواعيد يحددونها، لتهيئة مشاريع مجتمعية، والحديث عن قضايا تهمّهم، والبحث في شؤونها، بدءاً من الصحة والتعليم إلى الاقتصاد الوطني، والسياسة الداخلية والخارجية، ثم يتقدمون للسلطات المعنية بتقرير عمّا تبلور عن مناقشاتهم من مطالب ومشاريع يسعون إلى تحقيقها.

توجد نماذج متميزة حديثة لنشاطات المجتمع المدني في البلاد الإسلامية، ومبادرات لإقامة مؤسسات مهمةٍ غير حكومية لخدمة التنمية، مثل "بنك غرامين" الذي أنشئ في بنغلادش، و"مشاريع كاتشي أباديس للإسكان" في باكستان[1]. لكن لا بدّ أن نشير إلى أنه إذا كانت ثمة حكومات إسلامية تفتح صدرها لمثل تلك المشاريع وترحّب بها، فإن ثمة أخرى لا تفسح لها المجال، وتَحُول دون قيامها. ورغم ذلك يظل المواطنون صامدين يمارسون نشاطاتهم المتنوعة، لا تحدّ من لقاءاتهم وطموحاتهم مواقفُ السلطات السلبية، ولا يثبط عزيمَتُهم ردُّ فعلها اللامشجّع. ولحسن الحظ أن هذا الصنف من الحكومات آخذٌ في التضاؤل، إذ إن العالم الإسلامي، عموماً، يسير اليوم سيراً حثيثاً إلى التوجه الديمقراطي، ويفسح المجال لمختلف الكفاءات كيما تسهم في نشاطات تدبير الشؤون المجتمعية.

نسوق، كمثالٍ على ذلك، ما يعيشه الأردن حالياً. إننا ملتزمون بمسار ديمقراطي يسعى إلى تعميم الديمقراطية، وبانفتاح سياسي يعمل على إشراك مختلف الفعاليات. إننا نشجّع جميع مبادرات تنظيمات المجتمع المدني ونرحب بمشاريعها، ونحرص على مساندتها لتحقيقها. لقد عَبّر المواطنون الأردنيون عن انخراطهم في هذا المسار السياسي الديمقراطي بإقبالهم الكبير على التصويت، والمشاركة المكثفة في الانتخابات المحلية والبرلمانية المباشرة، وبإسهامهم الفعلي في تحديث

---

(١) من المؤسف أن صناديق الزكاة الفردية لم تعد قائمةً، وربما حان الوقت الآن لإنشاء مؤسسة الزكاة الدولية من أجل تقديم المساعدة لأعمال الخير والتعليم ومشاريع التنمية المستدامة.

المجتمع المدني وتفعيل نشاط تنظيماته. إن مختلف التنظيمات القائمة في الأردن، من نقابات مهنية، ومؤسسات دينية، وجمعيات حماية الأقليات، وجمعيات الأعمال الخيرية الإنسانية، وغيرها من الهيئات، تزاول نشاطاتها المتنوعة بحريةٍ، وتعبّر عن آرائها من دون حَظْر، وتتخذ مواقفَ ملتزمةً دفاعاً عن مصالح أعضائها، وتحريض المسؤولين على ضمان حقوق المواطنين.

تسهر تنظيمات المجتمع المدني في الأردن على نشر ثقافة الحوار الوطني، وإشراك المواطنين في تخطيط مسار السياسة العامة وتحديد معالمها. وبالمقابل، لا تألو الدولة جهداً لتشجيعها ومساعدتها بما توفره لها من حرية، وتمدّها به من إمكانات، لكنها تحرص على أن تظل الضامنَ الفعلي للحقوق المدنية والدستورية لجميع المواطنين. من هنا امتناعها عن السماح لبعض الجمعيات بمزاولة نشاطاتها، لما يبدو من منافاتها للدستور، ومسِّها بأمن المجتمع واستقرار نظامه. بينما تساند كل من يعمل في إطار احترام بنوده، ويحرص على تحقيق المصالح العامة للمجتمع، وفي الوقت نفسه تفرض عليهم جميعاً، أحزاباً سياسيةً وهيئات وتنظيمات ونقاباتٍ مهنيةً، بأن يتقيدوا بقواعد السلوك المجتمعي المتسامح، ويحترموا الآخر وقيمه مهما كان مخالفاً، كما تمكّن جميعَ المواطنين من التمتع بحقوقهم الكاملة، وتتيح لهم الفرص نفسها لممارسة نشاطاتهم، والإسهام في تدبير الشؤون العامة، طبقاً لما ينصّ عليه الدستور والميثاق الوطني.

مما لا جدال فيه أن مساندة السلطات المحلية لمثل هذه التنظيمات الجمعوية التي تنهج مسلكَ الديمقراطية أمرٌ ضروري، ذلك أنه إذا لم توفّر لها الدولةُ الظروفَ المناسبة التي تسمح لها بمزاولة نشاطاتها بحريةٍ مسؤولة، لن تكون عمليات الدمقرطة، التي تُبذل لها الكثيرُ من الجهود وتبحّ، مناداةً بها، الكثير من الأصوات، سوى أعمالٍ فوضوية وشعاراتٍ مزيفة. إن قيام مجتمع مدني ديناميكيٍّ،

سواء في صيغ تقليدية (مثل التكتلات القبلية)، أو في صيغ تنظيمية حديثة (مثل الجمعيات والنقابات المهنية)، وتمتعه بما يلزم من حرية ووسائل لمزاولة نشاطاته، هو الضمانة الأساسية والفعالة لمسيرة الديمقراطية، وتوسيع آفاقها، وتقوية بنياتها.

يؤكد الكثير من المختصين أن ما يعيشه الأردن اليوم، من سيادة روح التسامح والتعايش، وازدهار نشاطات المجتمع المدني وفعالياته، له إسهام كبير ومهم فيما ترفل به المملكة، منذ سنواتٍ، من استقرارٍ، وتحققه من إنجازات.

إن ما يمكن استخلاصه من الملاحظات والتوضيحات السالفة، هو أن تنظيمات المجتمع المدني في العالم الإسلامي اليوم، وما تقوم به من أعمالٍ مهمة، وتحققه من منجزات في مجالات عدّة، قد وجدت في رحاب الثقافة الإسلامية تربةً خصبةً، مكنتها من ازدهار بذور العمل الجمعوي التطوعي، وأجواءً حضاريةً منفتحةً لقيام دولة القانون، والسير قدماً في مسار الديمقراطية والشفافية والمسؤولية. هذا ما يجعلني أعتقد أن مستقبل التجربة الديمقراطية وآفاقها واعدٌ ومثمر، ليس في الأردن فحسب، بل أيضاً في العديد من الدول الإسلامية، كما تؤكد ذلك بعض الدراسات التي أُنجزت حول هذا الموضوع، في تركيا وإفريقيا الشمالية ودول الخليج العربي وأندونيسيا وماليزيا وغيرها.

لقد أثبتت تلك الدراسات أن الأنشطة المختلفة التي يمارسها المواطنون المسلمون ضمن تنظيمات المجتمع المدني، تؤكد أن عندهم كامل الاستعداد، بل لديهم رغبة كبيرة في الإسهام الفعلي في رسم السياسات التي تنظم شؤون حياتهم، وأن لهم من الكفاءة والإمكانات ما يخوّلهم القيام بأدوار مهمة في مجال التنظير والممارسة، وأدائها على أحسن وجه. هذا ما يؤكد - إن احتاج الأمر إلى تأكيد- أن الإسلام لا يقف عائقاً أمام أي عملٍ يفيد المجتمع وفيه إصلاح وصلاح له، بل على العكس من

ذلك، تشكّل تعاليمه، وكذا الموروث من تقاليد نظمه، أرضيةً صلبةً لنمو المجتمعات المدنية وازدهارها. إن حسن التعامل والتسامح والقبول بالاختلاف والتعددية، تُعدّ مبادئ أوليةً وأساسيةً في جميع النظم التي عرفها الإسلام عبر تاريخه.

استخلص بعض المفكرين المسلمين المعاصرين من دراسة تقاليد النظم الإسلامية وتحليلها من المنظور التاريخي، خصائص تلك النظم، وما تميزت به من امتثال لتعاليم الإسلام وقيمه، تجلّى في نهجها نهجَ الوسطية والاعتدال، والحثّ على العدل والمساواة، والعمل من أجل النماء والتطور. لا شك في أنها مبادئ تشكّل قواعدَ وأسسَ بناء المجتمعات الديمقراطية الحديثة.

يبدو أن نتائج أعمال هؤلاء المفكرين لا تصل إلى الغرب، ولا علم له –ولا للآخر عموماً– بما يبذله هؤلاء من جهود، ومن ثَمّ فإن إسهامهم في تصحيح صورة الإسلام عنده ضعيف جداً. إن عدم اطّلاعه على ما يتوافر للمجتمعات الإسلامية من إمكانات، وما تعيشه من تطورات حيوية، وجهْله بحقيقة الإسلام الصحيح، يقوده إلى تجريد هذا الدين من تعاليمه السمحة وأخلاقياته، وتبنّي صورةٍ مشوهة عنه وعن المسلمين، وفهم تقاليد المسلمين فهماً خاطئاً يفضي إلى سوء معاملتهم. كتب إيان بورما في جريدة "الغارديان"، بتاريخ ٢١ أيار/ مايو ٢٠٠٢، يقول: "إذا ما قارنا أوضاع المسلمين بتلك التي يعيشها أتباع الديانات الأخرى غير المسيحية، فإننا نتبين بوضوح أنهم يعيشون فتراتٍ عصيبةً وظروفاً شائكةً، وأنه لا تزال توجد عوائق كثيرة تَحُول دون التحاقهم بالمجتمعات الأوروبية واندماجهم مع جماهيرها. لكن، نعتقد أنها أحكام مسبقة وخاطئة، ذلك أن انطباعات غير المسلمين عن الإسلام وعن العالم الإسلامي مشوهة إلى أقصى حد"[1]. إن ما تبديه الصحافة وأجهزة الإعلام الغربية، عموماً، من امتهان للإسلام، واحتقار

---

(١) يمكن الحصول على معلومات أوفى عبر الإنترنت www.grameen.Info.Org. (بنك غرامين)، و www.skaa.cutecity.Com (كاتشي أباديس).

للمسلمين، لن يزيد الأمور سوى خطورةً وتعقيداً. إن مظاهر التطرف الديني، وأعمال العنف الهمجية المترسخة صورها عند الغرب ليست من الإسلام في شيء، ولا تنقل حقيقته، ولا يستسيغها المسلمون، بشكل عام، ولا تلقى قبولاً في الأوساط الإسلامية. كما إن فئات المتطرّفين الإسلاميين لا تمثل، بأي شكلٍ من الأشكال، الإسلام الصحيح، ولا تقدم نماذج حقيقيةً للمسلمين. ومما يؤسَف له أن النماذج البديلة الممثّلة لجوهر الإسلام، والفئات القيادية الملتزمة بتعاليم الإسلام، التي تأمر بالاعتراف بالتعددية، والتحلي بأخلاقيات التسامح والتعايش والاعتدال، لا يُذاع صوتها في الغرب، ولم تجد طريقاً إليه للتعريف بالإسلام ومبادئه وقيمه على وجهه الصحيح.

تقول الباحثة ياسمين البهائي: "إن تجاهلنا، أو على الأصحّ، تقاعسنا عمّا تجب مباشرته من إصلاح في مجتمعاتنا الإسلامية، يعني أننا جميعاً فقدنا الأمل في المستقبل". إن الإصلاح، حسب ما ترى، "يجب أن يتصدى، بدءاً، لكيفية التعامل مع المبادئ العالمية لحقوق الإنسان والحريات والديمقراطية والعدالة، لأنها مبادئ تستهدف الإنسانَ، عموماً، بصرف النظر عن عرقه وانتماءاته. فبقدر ما ترعى غير المسلمين، فإنها ترعى كذلك المسلمين، وتهتمّ بمصالحهم ولا تقصيهم. لذا، فإنّ أمْرَ المسلم بالتسامح مع غير المسلم يولّد عند هذا الأخير الشعورَ بالإهانة والدونية، إذ لكلٍّ منهما الكفاءة والحيوية نفسيهما للعمل معاً، بوصفهما مواطَنين، وبكيفيّة ندية وديمقراطية، في تدبير شؤون الحياة المجتمعية"[1]. وتخلص ياسمين إلى التأكيد أنه لا يوجد أي مبدأ في الإسلام يتعارض وحرية الاختيار والمساواة بين الجنسين، والديمقراطية، والدولة العلمانية.

لن أدع الفرصة تمر من دون أن أذكر هنا ما حاول بذله بعض الشخصيات المرموقة في العالم الإسلامي والنخبة من مفكّريه، من جهودٍ لتأسيس سياسية

(١) "المصلحون الإسلاميون يعطون أملاً جديداً للإسلام"، ذي أندبندنت، ٩ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢.

للحوار على مختلف الأصعدة، وفي شتى المجالات. لقد اتخذتُ، شخصياً، منذ سنوات، مبادرَة تنظيم لقاءات حوار بين الأديان، كان من بين أهدافها التعريف بالإسلام وقيمه، وما يدعو إليه من وسطيةٍ واعتدالٍ وتسامح، وتقديم صورة واضحة عن أبعاده التقدمية، وآفاق نظرته المستقبلية. لكن، لسوء الحظ، إن مثل تلك المبادرات لا تحظى في الصحافة الغربية بمثل الاهتمام الذي تحظى به أعمال العنف الهمجية التي تسيء إلى الإسلام والمسلمين. لا شك في أن هذا التقصير لا يفسح المجال للاستفادة من الجهود التي تُبذَل، ويثبط العزائم، ويفضي إلى الشعور العميق بالخيبة والإحباط. فإذا كانت ثمة قضايا، مثل تصحيح المغالطات والأخطاء، والتقريب بين الأديان، وسيادة الأمن والاستقرار، وأمور أخرى كثيرة، رهينة بنجاح أمثال تلك المبادرات، فإن نجاح هذه المبادرات، حسب ما نعتقد، هو، أيضاً، رهينٌ في جزء كبير منه بالتعرف عليها، والاعتراف بها، وتشجيعها، والاستفادة من أعمالها.

تقدير تقاليد الآخرين وقيمهم

يبدو اليوم وكأن سيرورة تاريخ العالم تجري بشكل استثنائيٍّ مغايرٍ للقاعدة المعتادة. إن التفجيرات المريعة التي استهدفت مركز التجارة العالمي بنيويورك، وفي البنتاغون يوم ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، تلزمنا جميعاً بالعودة، من جديد، إلى دراسة قيم ثقافتنا، وقيم ثقافات الآخر وتأملها. إننا نقف اليوم على حافة وجودنا نفسه، والفاصل هو الخيار الذي سنأخذ به: فإما أن نتحرك منفصلين بعيدين بعضنا عن بعض، كل واحد منا لا يرى نفسه ومصالحه الخاصة إلاّ من خلال "الآخر" الذي يهدده، وعلى أساس ما لذاك الآخر من تصوّر عنه؛ أو أن نتحرك صوب تقاربٍ أقوى فيما بيننا كأفرادٍ، لكل منا خصوصياته المميزة، وفي الوقت نفسه، لنا جميعاً قيم مشتركةً تمكّننا من الاتحاد كعائلةٍ إنسانية.

ثمة أشخاص تقودهم الرغبة في اكتساب القوة السياسية إلى نهج سبل استغلال العقائد الدينية، والتلاعب بها لتحقيق هدفهم. ورغم أنه ليس بوسع أية ثقافة، ولا أي دينٍ ادّعاء احتكار الحقيقة، فإن بعض المتطرّفين يعدّ الدين، أولاً وقبل كل شيء، وسيلة سياسية لتحقيق طموح شخصيٍّ، ولا يعترف بأية تعددية، ولا بتأقلم ما مع أيّ ظروف جديدة. فليس من بين معتقداته ولا برامجه ما يسعى إلى رفع مستوى حياة الأفراد والمجتمعات، لأن ذلك في نظره أمر ثانوي وربما عرضي.

كامل التقدير والشكر لقادة العالم ولرجال الدين، خصوصاً العلماء المسلمين والفقهاء من مختلف المذاهب الإسلامية، لاستجابتهم الفورية إلى الدعوة للتأكيد

على ضرورة تمتع المجتمعات الإسلامية، من سنّةٍ وشيعة، بحقّها في العيش بسلام، وضرورة تعاونها مع الآخرين للعمل جميعاً على معالجة القضايا المشتركة التي تواجه مختلف المجتمعات على امتداد العالم.

لكن، رغم الجهود التي يبذلها هؤلاء جميعاً، يُلاحَظ أن الجاليات الإسلامية في الغرب، وإن كانت جذورُها متوغلةً فيه، حيث تنتمي إلى الجيل الثالث أو الرابع، لا تزال تعاني الكثيرَ من سوء المعاملة والإجحاف من لدن الغربيين، لأنها تُعدّ في نظرهم "الطرف الآخر" الذي يهددهم، أو الطابور الخامس في المجتمع الذي يجب أن يعامل بالمثل.

يمكن أن يُعزى رَدُّ فعل الغربيين هذا، في الكثير من الحالات، إلى الجهل بالإسلام كما نزل به القرآن الكريم، وجاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. إن القرآن يأمر البشرية بطلب العلم والمعرفة، وبتعليم الأطفال، بنين وبناتٍ على السواء، من دون تمييز، ويعطي المرأة والأقليات حقوقاً لم يسبق لها مثيل في الجزيرة العربية، ولا في غيرها من البلدان الأخرى، عبر مختلف الأزمان، قبل نزول الوحي الإلهي على النبي محمد، كما يحدّد ضوابط المعاملات وأحكامها بين الأفراد والجماعات التي تحقّق مصالحهم، وتوفّر لهم الرخاء المجتمعي، ويحثّ المؤمنين على الإيثار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى القيام بأعمال البِرّ والإحسان.

من المؤكد أن تلك مبادئ وقيم تتطلّع إلى تحقيقها جميعُ الشعوب المتمدّنة. لكن من المؤكد، أيضاً، أنها، وإن كانت من صميم النسيج الإسلامي، فإن الإسلام لا يحتكرها، ولا يدّعي أنه يمتلكها وحده، وأنها حصر عليه دون غيره. لذا يجب أن لا يكون رد الفعل، ضد الهجومات الوحشية وأعمال العنف الهمجية التي تمارَس باسمه، هو شجب هذا الدين العظيم، جملةً وتفصيلاً، ومن دون تمييز بين الإسلام الحقّ والإدعاءات التلفيقية.

لا بد، إذاً، من التعريف بالإسلام في حقيقته السامية، والعمل -بمختلف الوسائل وعلى جميع الجبهات- على إبراز رؤاه وأبعاده الوسطية وأحكامه ومواقفه الاعتدالية التي تجعل منه ثقافةً تتعايش مع الثقافات الأخرى المتنوعة. إن الإسلام يرحّب بالتنوع والتعددية، ولا يجيز، تحت أية ذريعة، أفعال الشر والتدمير والإرهاب، وكل الأعمال غير المسؤولة المنافية للإنسانية، كتلك التي يمارسها الإرهابيون. إن مثل تلك الأعمال يخالف التعاليم الدينية، ويتنافى وكل التقاليد والممارسات الإسلامية، كما يتضّح من خلال حديثنا في هذا الكتاب، مثلما يُخالف تعاليم اليهودية والمسيحية والبوذية والهندوسية، بل تعاليم جميع الأديان والعقائد الأخرى التي تعتنقها البشرية، وتقاليدها وممارساتها أيضاً. لقد شجب المسلمون الإرهاب وأدانوه، معربين عن إيمانهم بأن جميع الأعمال الإرهابية تنافي الشريعة الإسلامية، وتعالت أصوات كبار فقهائهم منددةً ومنذرةً بما يتوعّد به الإسلام مرتكبيه من عقاب. من بين هؤلاء الفقيه العالم الشيخ زكي بدوي، الذي يؤكد أن أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ تُعدّ انتهاكاً للشريعة الإسلامية وأخلاقياتها. فلا الأجواء المريعة التي خلقتها، ولا الناس الأبرياء الذين قُتلوا أو جُرحوا، ولا الأموال والممتلكات التي أصابها الدمار، مما يمكن أن يوجد له مسوّغ في أي نظام أو قانون من القوانين عبر العالم، ولا في أحكام أية شريعة من الشرائع الدينية، خصوصاً الشريعة الإسلامية التي تحرّم إراقة الدماء، والقتل من غير سبب.

وقد وصف السيد عبد المجيد الخوئي تلك الهجمات بأنها: "عمل إجرامي ووحشي، بعيد كل البعد عن مجموع القواعد الأخلاقية عبر العالم، وعن كل المبادئ الإنسانية".

مما جاء في خطبة الوداع، التي وجهها النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى آلاف الحجاج الذين كانوا يقفون عند سفح جبل الرحمة في عرفات، قوله: "إن

دماءكم وأموالكم عليكم حرام حتى تلقوا ربّكم يوم القيامة"، مؤكداً تحريم القرآن لذلك، وعظم جرمه كما تنص على ذلك الآية الكريمة: ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ (المائدة: ٣٢).

لا يبيح أي مذهب من المذاهب الإسلامية استهداف المدنيين، وتَعدّ هذه المذاهبُ جميعُها العاصيَ أو المتمردَ الذي يقتل غير المحاربين مذنباً باغياً، وتُجمع على حكم الشريعة الإسلامية فيه بالإعدام. لذا، فإن جميع من يمارسون أفعال الشر، ويقومون بأعمال تسيء إلى الإنسانية وتضرّ بها باسم دينٍ من الأديان، رافعين شعاراته المقدّسة، نَعدّهم أعداءً لنا جميعاً، بل إنهم الأعداء من الداخل. مثل هؤلاء القوم لا يسدون إلى الدين ما فيه من صلاح له، بل على العكس، إنهم يحملون السلاح ضد الذين يؤمنون به حقاً، ويجعلون بعض الناس يربط ربطاً خاطئاً بينه وبين مرتكبي تلك الجرائم الرهيبة، فيسيئون بذلك أعظم الإساءة إليه وأخطرها. لقد عمل إرهابيو الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ على الترويج لتصوّر موهوم كاذب وغاشم، هو أن العنف الطائش يشكّل عنصراً قاعدياً في العقيدة الإسلامية، ويلعب دوراً رئيساً في نشاطاتها. إنه تصورّ وتمويه لا يمكن أن يستسيغه ويقبل به إلا من يخلطون بين السياسة والدين، ومن هم من ذوي الرؤى الضيقة العقيمة، الذين يَعدّون البطش والإكراه والتقتيل واجباً دينياً يفرضه الإسلام، ويضفون على ذلك صفة الحماسة الدينية.

كل مجتمع من المجتمعات المعاصرة يؤمن بأن ثمة تقاليد وموروثات وقيماً للسلوك الإنساني الفاضل المتخلّق: احترام الحياة، العدالة، الإيثار، الصدق، الثقة، الكرامة، التفاهم،... الخ، من واجب كل مواطن من مواطني أي مجتمع مدنيٍّ أن يتقيد بها في سلوكه ويحترمها. بيد أن سلامة بنية أي مجتمع مدنيٍّ تستلزم، إضافةً إلى ذلك، توفّر شرطين اثنين، أولهما: حق كل مواطن في التعامل مع حكومةٍ منتخبةٍ

تتحمّل واجب المسؤولية، وتخضع للمساءلة؛ وثانيهما: الحفاظ على مجموعةٍ من القوانين التي تحكم وترشد سلوك المواطنين وتعاملهم فيما بينهم كأفرادٍ وجماعاتٍ داخل المجتمع المدني من جهة، وتضبط قواعد التعامل بينهم وبين الدولة من جهة أخرى. إن الحديث الذي سقناه، من قبل، في هذا الكتاب تحت عنوان: "الإسلام والمجتمع المدني والديمقراطية"، تناول بتفصيلٍ موسع صور هذا التفاعل والتعامل في العالم الإسلامي، ومظاهره وحدوده.

يجب على المجتمع الإسلامي اليوم، أكثر من أي وقت مضى، أن يبذل الجهد الجاد للعيش وفق قيم العقيدة الإسلامية ومفاهيمها. لكنّ مثل هذا الجهد لا يمكن أن يكون مفيداً إلاّ إذا انطلق من مبادئ أساسية، على رأسها ضمان حقوق الإنسان، وتعميم التعليم بما في ذلك تلقين مبادئ الإسلام وقيمه. إن تفشّي الفقر والأمية واليأس يفضي حتماً إلى إفراز فئة مجتمعية منحرفة تنهج مختلف السبل، وتستخدم شتى الوسائل لكسب معاشها وضمان بقائها، وعندما تتحقّق من فشلها، وتبلغ درجة اليأس، تنقاد إلى ارتكاب أعمال شنيعة غير مكترثة بعواقبها. إن عدم الاكتراث بمعاناة شعوب العالم الثالث، وتغافل من هم في وضع يمكّنهم من مساعدتهم عمّا تكابده من الفاقة والاحتياج الذي يهدد وجودها، وأسوأ من ذلك معاملتهم لها بمعايير مزدوجةٍ مجحفةٍ وبخسة، كل ذلك من شأنه أن يقوّي الانجذاب إلى التوجهات التي يدعو إليها المتطرّفون المحليون والاستجابة لها.

إن الأزمة الأخلاقية التي يعيشها العالم أفضت به إلى أوضاع مهولة ورهيبة، وتستلزم منا جميعاً العودة إلى القيم الأخلاقية الوضّاءة التي اعتمدها الأسلاف على امتداد الأزمان، وازدهرت تحت ظلها حضارةٌ إنسانية راقية، لنستمّد منها القوة والتوازن والاتزان. فمثلاً، إنّ تأملَنا لقيم كالعدالة والرحمة والكرم والسخاء والتسامح التي انحدرت إلينا من بناة الحضارة العظماء، والتي كان لها إسهام

كبير فيما بلغوه من شأوٍ رفيعٍ، وتركوه لنا من منجزاتٍ حضاريةٍ، يمكّننا من تقييم مدى ضرورة سيادتها اليوم بيننا، ومدى تمثلنا لها، واستفادتنا مما تتيحه من إمكانات التفاعل مع الآخر والتعايش معه، وأيضاً، الحكم على نمط حضارتنا - بوصفنا مسلمين - بالنسبة للحضارة المعاصرة، وتقييم أوضاعنا، والتعرف على مدى قدرتنا على مواجهة مختلف التحدّيات بشكل إيجابيٍّ، وليس فقط مواجهة مشكلة الإرهاب دون سواها. إن انتصارنا، فيما نسعى لتحقيقه بصدق وحسن نية، رهين بالأساليب التي ننهجها، وبقدرتنا على تجنب المسالك المغلقة التي لا تفضي سوى إلى الضلال. إن اختيار المناهج الواضحة والدقيقة يُعدّ أمراً أساسياً، خصوصاً في دراسة الأزمات. إنه يُمَكّن من معالجتها، ورصد إسقاطاتها ونتائجها، ومحاولة حلّها بكيفيةٍ مناسبةٍ وإنسانية، بإشراك كل الكفاءات والشرائح المجتمعية على اختلاف مستوياتها، والاستفادة مما عندهم جميعاً من تجارب وخبرة وآراء. لا شك في أن توجهاً كهذا سيُحقّق، حتماً، الأمنَ لكل الناس، بما في ذلك الأمن الأدنى الذي يتمثل في كرامتهم وحقوقهم الثقافية، وأيضاً يضمن وجود النوع البشري الحقّ واستمراريته في المستقبل. إن ما نعانيه اليوم جميعاً من قلق، ونعيشه من أزماتٍ، يفرض علينا أن نعيد، من جديد، تدارس خريطة العالم كيما نتبيّن بوضوح موقعنا فيها، ومَن هم حلفاؤنا الحقيقيون، وأن نتجنّد جميعاً في نضال مشترك على امتداد العالم، حسب أجندات معتدلة وتقدمية، لاحتواء القضايا العالمية المزمنة، والعمل على حلّها.

جرت أحاديث كثيرة حول ضرورة العمل على سيادة تعاليم العقيدة الإسلامية المعتدلة. لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه هو: ماذا يُقصد بـ "المعتدلة"؟ إنه تعبير لا يخلو من هشاشةٍ وغموض. إن ظروفنا الحالية لا تسمح بتصوّر بذل جهدٍ، ضمن ما يُبذل من جهود إنسانية بشكل متأرجح وفي اتجاه يلفّه الغموض، لتحقيق المزيد

من انتشار التعاليم الإسلامية المعتدلة على أوسع نطاق. إن كل ما يُبذل من جهودٍ إنسانيةٍ لضمان كرامة الإنسان، واحترام الحياة، وتحقيق العدالة والمساواة، يجب أن يُمارسَ في اتجاه ثابتٍ، وبوثوقية، وعن اقتناع تام بأن تلك المبادئ لا تخضع لنسبية الاعتدال، لأنها جهود تُبذل ليس بوازع إيمان "معتدل" محض بحقوق الإنسان، أو لتحقيق رغبة "معتدلة" محضةٍ في السلام، بل تصدر عن إيمان جازم بتلك الحقوق، وسعي راسخ إلى ضمانها.

أفضت الحوارات والمناقشات التي دارت، على المستوى الدولي، حول الفوارق والاختلافات الثقافية والاجتماعية بين الأمم، إلى إعطاء بعض الأمل لوضع قانونٍ عالميٍّ للسلوك. لقد كشفت أنه باستطاعتنا أن نقوم بجرد تام ونهائيٍّ للقيم التي نتقاسمها جميعاً، ونتخذها قاعدةً أساسيةً وحجر الرحى لهذا القانون. لذا، فإن كل صيغة أو وجه من أوجه التوافق العالمي والانسجامية، يفرض على كل واحدٍ منا أن يعمّق معرفته بالآخر، ويكون له اطّلاع واسع على ثقافته وخصوصياته. من البديهي أن التعليم الجيد والفعّال هو مفتاح المعرفة، وكما نقول في اللغة العربية، الفهم يسبق التفاهم ويؤسس له، كذلك تسمح المعرفة لكل طرف أن يتبيّن أوجه التشابه، وأوجه الاختلاف بينه وبين الآخر. ولا شك أن في ذلك من النفع، وله من الأهمية ما نحن اليوم في أشدّ الحاجة إليه للسير معاً، قدماً إلى الأمام.

يبدو لي، في هذا الصدد، أنه قد أصبح من الضروري التفكير في قيام برلمان للثقافات، وفق ما اقترحه يهودا منوهين، الموسيقي الشهير، يشكّل إطاراً للحوار والتعاون بين التقاليد الحيوية والثقافات المختلفة. ذاك ما يتطلّب من كل إقليم بذل الجهد لإرساء تقاليد وقواعد للحوار بين أقطاره، كنقطة انطلاق لرصّ تقليد للحوار بين الأقاليم على امتداد العالم. من الأكيد أن هذه الحوارات، في حال تحققها، ستسهم إسهاماً كبيراً في إقامة جسور متينة بين حضارات العالم، بما ستفتحه من

آفاقٍ، وتوفره من سبل لاستخلاص القيم والرؤى والأهداف التي تشترك فيها جميع الحضارات، والعمل على تقويتها وترسيخها، وضمان استمراريتها بفضل تفعيل هذا التشارك المتوارث فيها.

إن مشاهد الدمار المروّعة التي ترسخت صورها في أذهاننا، والتي لا تزال تلازمنا بظلالها الداكنة، تجبرنا جميعاً على أن نعمل مستقبلاً، وبدءاً من الآن، على امتلاك الوسائل التي تمكّننا من تعزيز إنسانيتنا المشتركة، وتحديد الأخطار التي تتهدّدنا جميعاً، والسبل التي تساعدنا على تجنبها، والآليات التي تفسح لنا المجال لتحقيق آمالنا المنشودة: سيادة الأمن، وبث روح السكينة في النفوس. دعونا لا نخطئ الظنّ فنرى أن هجمات ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ كانت تستهدف الحضارة المعاصرة، التي هي حضارة واحدة من صنع أمم متعددة، وأنها لم تكن ضدّ أمة بعينها. إن التحدي الأكبر الذي يواجهنا هو التوفّر على القدرة التي تمكّننا من انتشال العالم من مخالب الهمجية، وتحويله من ثقافة العنف إلى ثقافة السلام. ذاك هو الموقف الفصل. إن النجاح في بلوغ هذا الهدف هو السبيل الذي يضمن نجاتنا جميعاً. علينا أن نتعلّم كيف نتعايش، أي نعيش معاً في سلام ووئام، وكيف نعمل على ترسيخ مبادئ تضامننا ووسائله، وإفساح المجال للتشارك في المعرفة وتبادل الخبرة. وبعبارة موجزة، علينا أن نتلقّن كيف نمارس تقدير قيم الآخرين وتقاليدهم.

لنا في ابن عربي، الصوفي والرحالة الشهير، القدوة في تقدير عقيدة الآخر وتقاليده وقيمه. إنه يرى أن انفتاح الصدر لمختلف الأديان يجسّد ينبوع الإيمان بالله وكتبه، ويسمو بالحب الإلهي الذي يسكن الأعماق، يقول[1]:

---

(١) انظر: "ذخائر الأعلاق، شرح ترجمان الأشواق"، الشيخ الأكبرمحيي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الطائي الحاتمي، المتوفى سنة ٦٨٢هـ. علق عليه، ووضع حواشيه خليل عمران المنصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ٢٠٠٠، ص ٣٦.

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورةٍ

فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ

وبيتٌ لأوثان وكعبة طائف

وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ

أدين بدينِ الحب أنّى توجّهتْ

ركائبُهُ فالحبّ ديني وإيماني

إن قبول بعضنا لبعضنا الآخر والاعتراف به يُعدّ خطوةً أساسيةً صوب تحقيق التعايش السلمي فيما بيننا، وسلوكاً إيجابياً لسيادة قيمنا التي تدعو إلى التصديق وحسن الظن بالآخر، ومبادلته النوايا الطيبة. نعتقد أن التعبير الصريح عمّا نؤمن به حقاً نحن المسلمين، وعما يضمره كلّ واحد منا للآخر، وأيضاً استعدادنا للانفتاح بعضنا على بعضنا الآخر، مهما كان مذهب كل منا، أمر يفرض نفسه بإلحاح. وليس أقل منه إلحاحاً، انفتاح أصحاب الأديان السماوية الثلاثة بعضهم على بعض، وسيادة التفاهم بينهم. ذاك هو الهدف الأساسي من هذا الحديث، والدافع لنشر هذا الكتاب، ومن الله التوفيق.

نحو منظومة قيم أخلاقية
عالمية للتفاهم الإنساني

جرت استشارتي مؤخراً، ضمن عدد من المفكرين، فَطُلب مني إبداء رأيي في الحوار الذي عقدته الأمم المتحدة حول الحضارات وتطورها. وبوصفي واحداً من هؤلاء، وكوني مسلماً أيضاً، أعتقد أن وضع مقاييس جديدة للعلاقات الإنسانية عبر العالم، يتطلب منا تصوّر مفهوم موازٍ يستوعب فحوى ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح "الأنثروسياسية"، أي السياسة الإنسانية. فعلى سبيل المثال، نذكّر هنا بما جاء في "إعلان البرلمان العالمي للأديان" الذي صدر تحت شعار "أخلاقيات عالمية". إنه دعوة إلى بناء أرضية قيم أخلاقية للعلاقات الإنسانية. إن المبادئ الرئيسة الأربعة التي ينص عليها، أساسا للأخلاقيات العالمية، قريبة جداً من نظرية الحقوق الطبيعية، وتشكّل من المنظور الأخلاقي الحدَّ المشترك الأدنى للتفاهم الإنساني. إننا اليوم، أكثر من أي وقت مضى، في أشدّ الحاجة إلى إقامة أخلاقيات للتآلف والحوار الإنساني، وسنّ نظام إنسانيٍّ عالميٍّ جديد للتعايش وتبادل المصالح فيما بيننا. فكَوْني مسلماً، كما قلت، أؤكّد لكم أن لهذين المطلبين؛ الحوار بين الحضارات، ونظام قيم أخلاقية عالمي، جذوراً كامنةً وأصيلةً في التصورات والمفاهيم الإسلامية، غابت عن الفكر الإسلامي المعاصر، أغفلها ولم يتمكّن من احتوائها.

إن فضّ النزاعات، وإيجاد حلول لها بطرق سلمية، أضحى اليوم أمراً حتمياً، وإلاّ لن يكون البديل سوى السباق على التسلّح بشكلٍ فظيعٍ، بالموازاة مع استفحال ما

يفرزه الوضع من تدهور وأهوال غير مرغوب فيها. سيصاحب ذلك انخفاض وتدنٍّ في التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وعرقلة التقدم صوب تحقيق حد أدنى من الأمن والاستقرار والحفاظ على الكرامة الإنسانية وتلبية حاجات الحياة، وستكون النتيجة الحتمية والطبيعية لذلك توالي الهجرات البشرية من الأقاليم التي تمزقها النزاعاتُ إلى الأقاليم والبلدان التي تتوفّر فيها فرصٌ لتحقيق تطلّعات المهاجرين في جو آمنٍ وبيئةٍ إنسانية كريمة. بيد أن الهجرة، كما هو معلوم، رغم ما توفره لفئات المهاجرين، على الأقل، من إمكانية العيش المقبول، لا تخلو من سلبيات تضرّ بمناطق الهجرة، قد تتسبب لها في خسارات، خصوصاً بالنسبة لتلك المناطق التي تجتاز مراحلَ انتقالية وتحولٍ في مجالات متنوعة، وعلى مستويات مختلفة.

إن الأوضاع التي يعيشها العالم، اليوم، تدعو إلى مباشرة تفكير جديدٍ، تفكير ينبثق من واقع تشابك العلاقات والاعتماد المتبادل بين الشعوب، ومقتضياتها، ومن الإيمان بضرورة احترام التنوع بالنسبة للبدان التي يُطلق عليها "النامية"، أو "العالم الثالث"، أو ربما بتوصيف أكثر ملاءمة "العالم الآتي أو القادم". يجب أن تُؤخذ في الحسبان، أيضاً، العلاقة المتشابكة بين الطاقة والسلاح والديون، وما ينتج عن تشابكها الجنوني من عوائق تَحُول دون ضمان مستقبل يسُوده السلام الشامل والدائم.

يجب أن يُعاد النظر في بعض المفاهيم والتعريفات والنظريات الأساسية. نتساءل، على سبيل المثال، ألا يمكن أن نعيد النظر في تعريف الفقر، وتحديد عتبته من منطلق الرفاه الإنساني، بدلاً من اعتماد لغة الثراء المالي؟ نعتقد أنه سيكون بوسع العالم النامي أن يشقّ الطريق إلى توجه اقتصاديٍّ سياسيٍّ أكثر إنسانيةً، إذا ما وُضع الرفه الإنساني في صدارة صنع القرار القومي والدولي. هل نحتاج إلى قيام حروبٍ لنذكّر أنفسنا بإنسانيتنا المشتركة؟ لماذا لا نبني هياكل للدفاع عن

الإسلام وحفظه إبان السلام؟ لماذا وُجهت الجهود الدولية، في العقود الأخيرة، إلى عمليات حفظ السلام بدلاً من أن تُوَجَّه صوب عمليات صنع السلام؟ ألا نستطيع الحديث عن إجهاض الأزمات وتلافي ما يولدها بدلاً من إدارة الأزمات، وكأن إدارة الأزمات هدفٌ بحد ذاته؟

إلى أن يصبح للإرهاب تعريف متَّفَق عليه ومقبول عالمياً، فإن "الحرب ضد الإرهاب" ستظل، هي أيضاً، مفتقرةً إلى تعريف عقلانيٍّ. ذاك ما يقود إلى تصاعد المزايدات في القوة الباطشة، واستخدام الحرب ضد الإرهاب بالآليات التي يستخدمها الإرهاب نفسه. إننا ندور في حلقة مفرغة من دون وعي منا. وإن ما يزيد الأمور تعقيداً هو عدم تبيُّن العلّة الأساسية لهذه الأوضاع الشائكة، والأكثر من ذلك كله هو أن لا أحد على ما يبدو يعير تلك الأوضاع اهتماماً، ولا أذناً صاغيةً. فلا رجال الدين، ولا العلماء، ولا القيادات المسؤولة، ولا منظمات المجتمع المدني، لا أحد منهم، جميعاً، تحرّك بشكل فعّال للدعوة إلى ثقافة وسلوكاتٍ منسجمةٍ مع الحقوق الإنسانية الدولية، وما تستوجبه كرامةُ الإنسان.

إن التجنّد من أجل تحقيق اتفاق أساسيٍّ حول مجموعةٍ من القيم المشتركة، على مستوى العالم، أضحى الآن أمراً استعجالياً يفرض نفسه بإلحاح، لا أمراً مرغوباً فيه حسب. ذلك أنه في غياب اتفاق دوليٍّ، وقبولٍ دوليٍّ بالقيم الإنسانية، لن تكون ثمة وقفة موحّدة ضد التهديد الدولي الذي يجسّده الإرهاب اليوم، بل لن تكون ثمة وقفة موحدة ضد أية قضية عالمية أخرى مثل الفقر والهجرة والتدهور البيئي والنزاعات. إن المقتضيات السياسية ليست موحدةً وواحدةً، ولا هي ذاتها عند جميع الدول، ولا حتى عند جميع الحكومات المتعاقبة في الدول نفسها. إنها تختلف من حكومة إلى أخرى، ومن دولة إلى دولة. لا محيد، إذاً، عن إيجاد قواعد مشتركة خارج نطاق الحلول العسكرية والاقتصادية التي تتحكم فيها المتغيرات السياسية.

إن أعمال العنف التي شهدتها أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، وببالي مثيلاتها في أندونيسيا وموسكو والسعودية، وجميع الجرائم الهمجية الأخرى التي ارتُكبت لاحقاً في مختلف أنحاء العالم مما يُعدّ إرهاباً دولياً، كل ذلك يستوجب منا ردّ فعلٍ إيجابيّاً بالتعاطف مع الضحايا، واستنكار صفقة مرتكبيها الذين اختطفوا ديني، واستخدموه ستاراً لتلك الأعمال الوحشية، والأسى والحزن على عبثية جميع تلك الممارسات، والغضب المدين لها، والتأمل - وما أعظمها نعمةً - تأملاً عقلانياً لإيجاد الوسائل الفاعلة في التعامل معها، من دون الوقوع في خزي الرغبة التي تراودنا في الانتقام. إنني، كوني مسلماً، أؤمن بأن الله لا يأمر الناس بالقيام بأعمال الشر، لذلك فإن على الإنسانية أن تضع أسس إطار عقلانيٍّ عمليٍّ جديدٍ، يَفْرِض علينا جميعاً، من منظورٍ أخلاقيٍّ ملحٍّ، مكافحة الفقر والعنصرية والإرهاب وعدم المساواة والكراهية والتعصب. يجب علينا أن نعطي للأجيال المقبلة، وخاصةً الناشئة منها، أملاً واعداً، ونجعلها تؤمن بأن في الإمكان، ليس فقط بناء عالم جديدٍ، بل بناء توجّهٍ إيجابيٍّ عالميٍّ جديد. إن الواجب الملحّ والضرورة المستعجلة، مما لا أزال أؤكده، هو العمل بجدٍّ على وضع منظومة قيم أخلاقية كونية، تشكّل إطاراً سياسياً للسلوك والتعامل الإنساني، والتعايش بين مختلف الأمم والأجناس والديانات، أي نظام أخلاقيٍّ عالميٍّ للتفاهم الإنساني.

إن السؤال الكبير الذي يطرح نفسه بإلحاح، والتحدّي الهائل الذي يواجهنا جميعاً هو: هل لنا من القدرات والإمكانات ما يسعفنا للانتقال من ثقافة الحرب إلى ثقافة السلام؟ نجد الجواب في ما يدعونا إليه القرآن، مراراً وتكراراً، من ضرورة تدبّر ظواهر الخلق، والنظر في تناسقها، وتأمل سيرورتها. من ذلك ما جاء في الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ**

بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤)، وأيضاً في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢). إن التأمّل في نظام الكون، كما أراده الله واختاره لعباده من اختلاف في الألسنة والألوان، وسخّره لهم من وسائل العيش على وجه الأرض في استمرارية وتداولٍ بينهم، قمينٌ بأن يجعلنا نتبين، بجلاءٍ، موقعنا في هذا الكون بالنسبة لمخلوقات الله الأخرى، ونعي تفاعل أنماطه وجمالية أنساقه، فنسعى جاهدين للحفاظ على طبيعتها، امتثالاً لما حمّلنا الله من أمانةِ الاستخلافِ في الأرض وتدبير شؤونها. علينا، إذاً أن نفهم ثقافة الآخرين ونحترمهم ونقدّر قيمهم. أعتقد أنه لن يتسنى لنا ذلك إلا بالفهم العميق لما يطيب لي أن أسميه "الأنثروبولوجيا" أو "علم المعاناة". يجب أن نتحسّس حقيقة أننا جميعاً نحمل أعباء نفسية وتاريخية، وأن نعي أن لا محيد لنا عن التعامل معها والاعتراف بوجودها، إذا ما أردنا سيادة سلمٍ حقيقيٍّ فيما بيننا.

ذاك ما يدعو إليه أحد أعظم شعراء العالم الإسلامي، جلال الدين الرومي المولود في أفغانستان في القرن الثالث عشر الميلادي، إذ نظم الأبيات الآتية قائلاً:

تعالوا الآن، أيّاً من كنتم،

تعالوا، بلا خوف من أن تكونوا مضطهَدين،

تعالوا، مسلمين كنتم أو مسيحيين أو يهودا،

تعالوا الآن، أيّا من كنتم،

بالله تؤمنون أو لا تؤمنون،

تعالوا، أيضاً، ولو كنتم تؤمنون بأن الشمس هي الله،

إن هذا الباب، ليس باب خوفٍ،

إنه باب المتمنّيات الطيبة.

القسم الرابع

دراسات مؤطرة لآراء صاحب السموّ الملكي

الأمير الحسن بن طلال

حول المجتمعات الإسلامية وصدام الحضارات

المجتمعات الإسلامية وآفاقها الديمقراطية

ديفيد ل. بورن [1]

تشهد الولايات المتحدة الأمريكية انتشاراً متزايداً وسريعاً للإسلام، وذلك لسببين: أحدهما هجرة العديد من المسلمين إليها، والثاني اعتناق الأمريكيين أنفسهم لهذا الدين. يسهم المسلمون الأمريكيون إسهاماً كبيراً ومهماً في جميع ميادين الحياة بأمريكا، إلاّ أن ما تجب الإشارة إليه هو أن انجذاب معظم الأمريكيين، اليوم، إلى الإسلام، ليس لإيمانهم بأنه عقيدة متميزة يرغبون في اعتناقها والتحول إليها، بل لاعتقادهم، أساساً، أنه أحد "الأديان العليا/ السامية" في العالم[2]، لما يتضمنه كتابه المقدّس من المبادئ والتعاليم الدينية التي تدعو المسلم إلى التسامح، واحترام الآخرين، سواء أكانوا يعتنقون أديانا أخرى مخالفة لدينهم، أم غير متدينين.

إن ما نسعى إليه هو:

١- سيادة السلام والوئام بين البلدان الإسلامية وغير الإسلامية، والتعايش والتعاون فيما بينها.

---

(١) شكري وامتناني للسفير إدوين جي كور من جامعة أوكلاهوما، وللبروفسور ديل إف. إيكلمان من جامعة دار تمورت، وللبروفسورة وداد القاضي من جامعة شيكاغو، لما قدموه لي من أفكار ومواد ساعدتني على تحرير هذا المقال.

(٢) إنني استخدم عبارة "الدين العالي/ السامي" بالمعنى الذي استخدمه آرنولد توينبي في مؤلفه "مقاربة المؤرخ للدين"، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٥٦.

٢- المساعدة على قيام مجتمعاتٍ ديمقراطيةٍ في الدول الإسلامية، وحكوماتٍ عادلةٍ تخضع للمساءلة.

باختصار، إن السؤال الوارد بالنسبة للعديد من الأمريكيين، والشعوب الناطقة باللغة الإنجليزية عامة هو: هل يوجد تعارض بين ممارسة تعاليم الإسلام المتعلّقة بالحياة اليومية وديناميكيتها، وبين متطلبات السلم العالمي والديمقراطية؟

سؤال تفرض طرحَهُ رغبةُ الأمريكيين الملحّة في تحقيق السلام عبر ربوع العالم، والتحرر من كل أصناف الاستعباد، والقضاء على العنف والجور، وأيضاً إيمانهم الراسخ بالديمقراطية وضرورة سيادتها، وبواجب ضمان جميع الحقوق الكاملة وغير القابلة للتصرف للإنسانية جمعاء. يرى الأمريكيون أن بين الأمرين ترابطاً وتداخلاً تكاملياً، ذلك أن الدول الديمقراطية قلما تنزع إلى عدوان على دول ديمقراطية أخرى، وتمنح مواطنيها وغيرهم من القاطنين فوق أراضيها فرصاً أفضل للعيش والحرية والرفاء. نجد الجواب في بحث لصاحب السموّ الملكي الأمير الحسن بن طلال حول: "جوهر الإسلام ديناً"، حيث يقول: "إن في تعاليم الإسلام حقائق ومبادئ مهمة يمكن للمسلمين أن يقيموا على أسسها مجتمعات ديمقراطية". كما يؤكد أن نشاطات المجتمع المدني، في الكثير من الدول الإسلامية، تشهد نمواً متزايداً يبشّر بالخير، ويعطي الأمل في نجاح المسلمين فيما يبذلونه من جهد، ويقطعونه من خطواتٍ ليقيموا، مستقبلاً، دولاً ديمقراطية. نجد لهذا الخطوات الإيجابية مؤشراتٍ في تقرير فريدم هاوس لعام ٢٠٠٢، بالفقرة الخاصة بالبلدان المستقلة[١]، حيث يذكر أن عدد حكوماتها التي جرى انتخابها، بشكل حرٍّ، ارتفع من ١٢١ إلى ١٩٢، وأيضاً في التقرير الذي أصدره برنامج الأمم المتحدة للتنمية، في

(١) أدريان كاراتنيكشي، المحرر العام آيلي بيانو، مدير التحرير لمجلة "الحرية في العالم": المسح السنوي العام للحقوق السياسية للحريات المدنية ٢٠٠١-٢٠٠٢، نيوجيرسي: ترانزاكشن بابليشرز، ريتجرز، ٢٠٠٢، ص ٧٠.

تموز/ يوليو ٢٠٠٢، تحت عنوان: "تقرير حول التنمية البشرية". إنه ينصّ، أيضاً، على تزايد عدد البلدان الديمقراطية[١].

يبدو أن الدول الإسلامية لم تبرز، إلى يومنا هذا، بشكل ملحوظ يجعلها في عداد أمم العالم التي حققت تقدماً متميزاً في مجال الديمقراطية. رغم ذلك، بناءً على التحليل المنطقي الذي يقدمه الأمير الحسن لتعاليم الإسلام في دراسته التي تستند إلى مرجعياتٍ مهمةٍ (الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتاريخ الإمبراطوريات الإسلامية في عهودها المتألقة السالفة، استقى منها حججاً وأمثلةً دقيقةً لما يسوقه من آراءٍ) رغم ذلك لا يسعنا إلا أن نؤكّد تفاؤلنا بمستقبل الديمقراطية في العالم الإسلامي، ولا نخفي ما يحدونا من أمل في أن تقود تعاليمُ الإسلام المسلمين، عموماً، إلى تقدير غيرهم، وقبولهم مهما اختلفوا معهم. لذا، لكي نضع الأمور في نصابها، وتكون نظرتنا إلى الواقع متزنةً ومتوازنةً، نعتقد أن من الواجب أن لا يكون حكمنا على الإسلام والمسلمين من خلال الأحداث والهجومات العنيفة التي تقوم بها الحركات الإسلامية المتطرفة التي اشتدّ أوارها، وأخذت تتصاعد منذ الربع الأخير من القرن الماضي. ومن الواجب، أيضاً، أن لا تقتصر دراستنا لهذه الأوضاع على تناول الجماعات المتطرفة، بل لا بد أن تستهدف، أساساً، التعرف على تعاليم الإسلام وقيمه، والاطلاع على مجمل تاريخ دين ينيف عمره على أربعة عشر قرناً، واستشراف الآفاق الشاسعة التي بوسعه أن يفتحها. إن الدراسات العلمية والموضوعية الجادة لتاريخ العالم الإسلامي تُظهر، بوضوح، مدى الاعتدال والتسامح اللذَين سادا المجتمعات الإسلامية خلال حقبٍ طويلةٍ من حياتها.

نشير، على سبيل المثال، إلى الوجود الإسلامي في إسبانيا وصقلية. إن ما يراه بعض الغربيين من أن المسلمين بطبيعتهم غير متسامحين هو وليد تصوّرهم لـ "الجهاد" في الإسلام، وتأويلهم له، وما يعتقدونه من أن ممارسة المسلمين له تُعدّ

(١) "تقرير التنمية البشرية، ٢٠٠٢"، نيويورك، منشورات الأمم المتحدة، ٢٠٠٢.

غزواً عسكرياً لغير المسلمين، أي "الكفّار". في مقابل هذا التصوّر الخاطئ الذي يرمي أصحابهُ الإسلام بالتعصّب والغلظة، يوجد توجّه آخر ينصف المسلمين. ثمة عدد من الباحثين في تاريخ العالم الإسلامي يثبتون في دراساتهم صوراً ونماذج للتسامح الذي ساد المجتمعات الإسلامية، خصوصاً في الحقبة الأولى لمجيء الإسلام، يقول مارك كوهن: "إن ما عاناه اليهود في ديار الإسلام من الاضطهاد، خصوصاً خلال القرون الأولى من بلورة أسس نظام الدولة الإسلامية وقيام مؤسساتها، بل وحتى القرن الثالث عشر الميلادي، هو أقل بكثير مما عانوه تحت حكم العالم المسيحي"[1].

يذكر الأمير الحسن أن النبي محمد وضع "ميثاق المدينة"، وطبّق بنوده في التعامل مع سكانها الذين كان عددهم آنذاك، عام ٦٢٢م، عشرة آلاف نسمة، ينتمون إلى ديانات عدّة. وقد راعى الميثاق ما يتسم به مجتمعُ المدينة من تعددية، فأعطى لمواطنيها حقوقاً متساويةً، وخوّلهم جميعاً إمكانية المشاركة في إدارة شؤونها.

"إن "ميثاق المدينة" الذي نص على الاتفاقات المبرمة بين النبي محمد صلى الله عليه وسلم والقبائل غير المسلمة في المدينة، لم يكتفِ بتمكين كل فريقٍ من المحافظة على شرائعه وعاداته فحسب، بل زاد على ذلك فساوى بين جميع الأفراد في التمتع بحقوق المواطنة، وحدد لهم واجباتها انطلاقاً من إقامتهم بالمدينة، وآخذاً بالحسبان انتماءاتهم وعقائدهم الدينية والمذهبية. إنه بذلك يُعدّ الدستور الأول والأساس لكل قانونٍ مدنيٍّ، ونموذجاً مثالياً لإقرار التعددية في البلاد الإسلامية. بعد قرون، مَنَحَ "نظامُ الملة"، في الإمبراطورية العثمانية، جماعات غير المسلمين المنضوين تحت لوائها، حقوقاً مدنيةً تخوّلهم كل الصلاحيات لإدارة شؤونهم

---

(١) دانيال بايبس، "الشر ليس في الإسلام"، نيويورك بوست، ٢٠ تموز/ يوليو ٢٠٠٢. يستند بايبس على كتاب مارك كوهن "اليهودية في ظل الهلال والصليب"، برينستن، مطبعة جامعة برينتتن، ١٩٩٤. انظر كذلك: كارول جريفيث، "الإسلام: الكتاب الأساسي، حوار مع روي متحدة وجي تولسن"، حوارات المركز، عدد ١٥، أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢، نشر مركز الأخلاق والسياسة العامة، واشنطن.

الداخلية بأنفسهم[١].

يؤكد أحد دعاة الديمقراطية، سعد الدين إبراهيم، الحاصل على جائزة "الديمقراطي المسلم لعام ٢٠٠٣"، أن "الإسلام يتوافق كلياً مع الديمقراطية". ويستند، كغيره من المسلمين الذين ينافحون من أجل سيادة الديمقراطية في البلاد الإسلامية، إلى "ميثاق المدينة" الذي يركز عليه الأمير الحسن، بوصفه وثيقةً إسلاميةً أساسيةً، وتجربةً يستطيع المسلمون أن يقيموا على أساسها أنظمةً سياسيةً ديمقراطيةً، يقول: "إن الميثاق يتضمّن مختلف أوجه التعددية والقبول بها، وهي الشروط الأولية للديمقراطية، فمن خلال هذا الميثاق، وضع النبي محمد مبدأ المساواة في الشؤون الدنيوية فيما بين أربع عشرة جماعة غير مسلمة كانت تعيش في المدينة، وقد جرى ذلك قبل ٥٠٠ عام من كتاب الماغنا كرتا"[٢].

توجد في الإسلام، كما يبين الأمير الحسن، في هذا الكتاب، تعاليم كثيرة يمكن الاستناد إليها في العمل على تزايد عدد المجتمعات الديمقراطية في العالم الإسلامي. يقول علي مزروي، الباحث في مركز دراسة الإسلام والديمقراطية، الذي سلّم الجائزة لسعد الدين إبراهيم: "تُعدّ بعض المبادئ الديمقراطية تعاليم أساسيةً في الإسلام منذ مجيئه". ويرى رضوان المصمودي، رئيس المركز، "أن من الضروري إقناع قادة العالم الإسلامي السياسيين، وعلمائه وفقهائه وجماهيره العريضة، أن لا تناقض بين الديمقراطية والإسلام. إن الجهل بذلك يقود إلى صراعات لا مسوّغ لها، إذ تقف أغلبية المسلمين ضد كل الاختيارات الديمقراطية

---

(١) الأمير الحسن بن طلال، "نظام عالمي جديد خال من الأيديولوجيات"، خطاب ألقاه سموه، بوصفه رئيساً لنادي روما، أمام المؤسسة الفدرالية السويسرية، زيوريخ، سويسرا، ٤ شباط/ فبراير ٢٠٠٣. انظر كذلك، ملاحظات الأمير الحسن حول "ميثاق المدينة" في الصفحة..... من هذا الكتاب.

(٢) واقل دانهايسر، "سعد الدين إبراهيم يدعو إلى الديمقراطية في العالم الإسلامي"، ملف واشنطن، ١٩ أيار/ مايو ٢٠٠٢ صدر عن مكتب برامج المعلومات الدولية، وزارة الخارجية الأمريكية. الموقع على الإنترنت: www.usinfo.state.gov.

التي تُعْرَض عليهم. هذا أمر يبعث، من دون شكٍّ، على الامتعاض"[1].

ثمة من بين الموثّقين لعملية نشر الديمقراطية في العالم من يؤيد الرأي القائل إن الإسلام يتضمن العديد من القيم التي يمكن على أساسها إقامة نظمٍ ديمقراطية في البلاد الإسلامية، في حين يدحض ذلك آخرون ويشكّكون فيه. من بين مؤيدي أصحاب الرأي الأول صامويل هنتنجتن، الذي يرى في كتابه "الموجة الثالثة: الديمقراطية في نهاية القرن العشرين"، أن حتمية انتشار الديمقراطية بين أمم العالم أمر مؤكد وواضح، بدليل ما تحقق، منذ عام ١٨٢٨، من خطواتٍ إيجابيةٍ، رغم ما شهدته الجهود المبذولة من انتكاساتٍ كبرى. يستند هنتنجتن في استشرافه هذا لمستقبل الديمقراطية، على ما بين بعض التعاليم الدينية ومبادئ الديمقراطية من توافق. ففي الإسلام، كما يبيّن ذلك، تُعدّ المساواة والعمل التطوعي مبدأين أساسيين في تعاليمه. ويسوق، بالنسبة للديانات الأخرى، نص أرنست جيلنر، الذي يقول: "إن مبادئ التضامن والقيم الأخلاقية، والمعتقدات الفكرية، والمعاملات الفردية والجماعية، جميعها عناصر تشكّل مجالاً للتأمل والبحث عن مدى توافقها مع متطلبات الحداثة"، ويعلق عليه مبدياً رأيه، ومؤكداً أنها، فعلاً، تتوافق مع الديمقراطية. لكنه لا يخفي تحفظه على عدم تفريق الإسلام بين معتقدات الطوائف الدينية ونشاطاتها، وبين الممارسات السياسية، وتخوّفه من إصرار عددٍ كبيرٍ من المسلمين على أن تكون الشريعة والأحكام المستمدة من القرآن والحديث هي القانون الأساسي لتدبير شؤون الدولة، وعلى إخضاع جميع البرامج السياسية التي تتقدم بها الحكومات لمراجعة العلماء المسلمين، وضرورة موافقتهم عليها[2].

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) صامويل هنتنجتن، "الموجة الثالثة: الديمقراطية في نهاية القرن العشرين"، نورمان، لندن، مطبعة جامعة أوكلاهوما، ١٩٩١، ص ٣٠٧.
انظر أيضاً: إرنست جيلنر، "الأعلى بسبب الإمبريالية"، دي نيوبيليك، ٢٢ أيار/ مايو ١٩٨٩، ص ٣٥-٣٦.
وكذلك: وليامس وجون ألبن، "من أجل فهم أفضل للشريعة"، "الإسلام"، نيويورك، جورج برازيلير، ١٩٦٢، ص ٩٢-١٣٥.

إن ما يسعى إليه اليوم بعض المسلمين، ولربما أغلبهم، هو العمل على جعل الشريعة إطاراً سياسياً شاملاً، ومرجعيةً جامعةً لمختلف شؤون الدولة، وفرضها دستوراً أوحد لبلدانهم. لا أخفيكم أنه بالنسبة لنا، نحن الأمريكيين، عموماً، وبالنسبة للمفكرين المتخصصين في شؤون الديمقراطيات الغربية، خاصةً، يصعب علينا أن نتصوّر كيف يمكن أن تصبح، في العصر الحديث، أحكامُ الشريعة الإسلامية القانونَ الأساسي للبدان الإسلامية، وأن يُخوَّل العلماءُ السلطةَ العليا والكلمةَ الفصل في سياسات حكوماتها وممارسة تدبيرها. إن الاعتقاد أن الدين والدولة هما شيء واحد، اعتقاد يولِّد عند معظم الأمريكيين انطباعاً غريباً، لأنهم يعتقدون أن نظاماً يخضع لهذا التوجّه هو نظام ثيوقراطي استبدادي، لا مكان للعلمانية ولا للحريات الفردية فيه، لا تنظيراً ولا ممارسةً. بل أكثر من ذلك، إنه نظام استبدادي تعسفي يستخدم الدين والمؤسسات الدينية وسيلةً لتمديد مدة سلطته، وتحقيق مآربه الدنيوية الخاصة. يعترف الأمريكيون بأن للدين دوراً حيوياً في حياتهم المجتمعية اليومية، وفي النظام السياسي للولايات المتحدة، وأن لا غنى لهم عن تلقّن مبادئه وتعاليمه والعمل بها. لكن، يرون أن من الأنسب أن تتولى العائلات، والأصدقاء، والمؤسسات الدينية المختلفة، مسؤوليةَ بثّ روح الإيمان، وغرس أسس العقيدة الدينية في نفوس الأفراد والجماعات، وتلقينهم أوامر الدين ونواهيه خارج الإطار الرسمي للتربية والتعليم. فإذا ما لُقّنوا تعاليم دينهم، وتحلّوا بقيمه ستصبح هذه التعاليم والقيم بالضرورة جزءاً من نسيجهم الثقافي والمجتمعي على مدى الحياة، وسيكون لها تأثير في سلوكاتهم، وجميع ممارساتهم وقراراتهم داخل الحلبة السياسية كأفراد. لذا، رغم ما للمؤسسات الدينية في أمريكا من مكانة مهمة، وتأثير قويٍّ في الحياة السياسية، فإنه لا يُسمح لها بممارسة أي نشاط سياسيٍّ، وليست لها سلطة رسمية في تنفيذ برامج الدولة، ويظل تأثيرها ونفاذها إلى المشاركة السياسية، فقط، عن طريق غير مباشرة. إن الأمريكيين يرون أن

لكلٍّ من الدين والسياسة ساحته المتميزة ومجاله المحدد، وإن كانا يتقاطعان في بعض الأحيان، لأنّ الحدود بينهما ليست دائماً قطعيةً وواضحة المعالم. إن مبدأ الفصل بين الدين والدولة يشكّل القاعدة الأساسية لنجاح الديمقراطية، ويحظى بتأييدٍ كبير، ومساندةٍ قصوى في الولايات المتحدة. ذاك ما يجعل الأمريكيين، اليوم، يتساءلون عن مدى إمكانية تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية تطبيقاً حَرْفياً في الدول الإسلامية، معترضين على ذلك اعتراضهم على تطبيق بعض تعاليم التوراة والعهد القديم في الغرب والولايات المتحدة، بشكلٍ عامّ. من ذلك مثلاً، عدم تقبّلهم معاملات بعض المسلمين المالية التي تُلجئهم إلى ترتيبات مصرفيةٍ مكلفة ومعقّدة، فقط لمحاولة تلافي الفوائد البنكية. كما لا يتقبّلون، في ميدان القضاء، الحكم بالإعدام، ورجم الزانية، وعقوبات جرائم المسّ بالشرف وانتهاك العرض، وفتاوى إهدار الدم التي يُصدرها علماء الإسلام، كالفتوى التي تبيح للمسلمين قتل المرتدّين والمارقين. تلك أمور لا يتفهّمها الشعب الأمريكي، ولا ترضى عنها أغلبيته. لا يخفي الأمريكيون، أيضاً، استغرابهم لما تشرّعه بعض الدول الإسلامية من قوانين منه إقامة الصلبان المسيحية والكنائس، وعدم السماح لمن لا يدين بدين الإسلام، من يهود ومسيحيين، بممارسة تعاليم كتابَيْهم المقدَّسَين، الإنجيل والعهد القديم، وأداء طقوسهم الدينية علناً. إن تشريعات وقوانين كهاته لا تفي بحسن الوفادة التي تُعدّ من سمات الدين الإسلامي، وتتناقض مع مبدأ التسامح الذي تلحّ عليه تعاليم القرآن، وتدعو المسلمين للتحلّي به، وأيضاً تخالف السلوكَ المتسامح الذي ساد معظم حقب الحكم الإسلامي. لا أدلّ على ذلك مما عاشته الأندلس خلال العصر الوسيط كما يثبت ذلك السجل التاريخي[1].

---

(١) ماريا روزا مينو كال، "زينة العالم: كيف خلق المسلمون واليهود والمسيحيون ثقافةَ التسامح في إسبانيا خلال القرون الوسطى"، نيويورك، ن. ي: ليتل، براون وشركاؤه، ٢٠٠٣.

يؤكد الأمير الحسن في إجابته عن السؤالين الحادي والعشرين والسابع والعشرين في الحوار الذي أجراه معه ألان إلكن، ونُشر في كتابه: "أن تكون مسلماً"، على أن اختيارات الأفراد والجماعات وقراراتهم التي يتّخذونها في شأن بعض القضايا، مثل حجاب المرأة ولباسها، ونظام أوقات العمل والأكل، وأسلوب العيش، ونمط ممارسة بعض شؤون الحياة اليومية، قد تختلف اختلافاً كبيراً من بلد إسلامي إلى آخر، تبعاً للثقافات السائدة في المجتمعات الإسلامية وتقاليدها وأعرافها المحلية، لأنها قضايا متروك الأمر فيها للاختيار الشخصي للمسلم. ويذكر الأمير أن ثمة تنوعاً كبيراً في أصناف المجتمعات الإسلامية، حث توجد بينها، أحياناً، فروق شاسعة، ورغم ذلك يتعايش أفرادها فيما بينهم في وئام وانسجام. لكن مما يُؤسف له، أن الأمريكيين نادراً ما يوجّهون أنظارهم إلى بلدان إسلامية كالأردن، مثلاً، ومالي، وقطر، حيث يسود بين أفرادها تسامح كبير، وتتميز مجتمعاتها بتنوع الاختيارات وحرية الممارسات. تجدر الإشارة إلى أن مختلف المذاهب الإسلامية، باستثناء الشيعة – وهم لا يمثلون سوى نحو عشرة بالمائة من مجموع عدد المسلمين في العالم– لا تصنف العلماء المسلمين حسب درجات متمايزة، ولا تخضعهم لتراتبيةٍ هيكليةٍ هرميةٍ، ولا تخصّهم بالتفرد بالتمثيل الإلهي فوق الأرض، كما هو الشأن بالنسبة لرجال الدين في العديد من الطوائف المسيحية. مما لا شكّ فيه أن افتقاد المسلمين لهيكل تنظيميٍّ كهذا يُضعف تجانس رؤى العلماء وآرائهم، وقوة نفوذهم في المجتمع. لقد انبثقت معظم عناصر فكرة الفصل بين الدين والدولة في الغرب عن ثورة الإصلاح الديني والحركة البروتستانتية التي عاشها الغربيون. يرى عدد من الباحثين المرموقين، الذين لهم اختصاص كبير في شؤون البلدان الإسلامية، أن ثمة حركةً إصلاحيةً جذريةً تسري، على قدم وساقٍ، في العالم الإسلامي، لها تأثير عميق في جماهير المسلمين. لقد غيرت نظرتهم إلى مكانة الفقهاء في بلدانهم، وإلى حكوماتهم، كما غيرت نظرتهم إلى العالم الآخر غير الإسلامي.

من بين هؤلاء ديل إيكلمان، الذي يؤكد أن حركة الإصلاح الإسلامي القائمة اليوم، رغم أنها تختلف اختلافاً كبيراً عن حركة الإصلاح البروتستانتية التي شهدها القرن السادس عشر الميلادي، سوف يكون لها في مجتمعاتها التأثير العميق نفسه الذي كان لهذه الأخيرة في الغرب. بعضُ عوامل هذه الحركة وليدُ ارتفاع مستوى التعليم، وانفتاح آفاق جديدة أمام المسلمين مكّنتهم من الاطلاع على مصادر متنوعة للمزيد من التعرف على العالم. يسهل، كذلك، في تعزيز حركة الإصلاح، انهيارُ بعض المحظورات، وتراجع أفكار السلطات الدينية التقليدية وتصوّراتها التي كانت تشكّل حاجزاً يَحُول دون بروز المفاهيم العلمانية الحديثة.

يرى باحث آخر مختص، أيضاً، هو جون اسبوسيتو، أن العالم الإسلامي يمرّ حالياً بمرحلةٍ إصلاحيةٍ، وأن مجتمعاته المدنية، كما يذكر صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن، تشهد نشاطاتٍ متزايدةً تحققت من خلالها بعضُ أشكال الديمقراطية، وأن المصلحين المسلمين يرغبون، كما يسجل رؤىً متحدة، في أن تعترف الدولة بالإسلام وتقرّه دينَها الرسمي، كما اعترفت الدولُ الأوربية بالديانة المسيحية المهيمنة، لكن عليها أن تسمح للأفراد بحرية العبادة، ولا تفرض تطبيق الشريعة الإسلامية على جميع المواطنين[1].

من بين الذين يؤكدون ظهور هذه الحركة الإصلاحية ونشاطها روبن رايت، الذي يؤيد رأيَ جيلز كيبل، المنصوص عليه في كتابه "الجهاد: مسار الإسلام السياسي"، ويقتبس منه قوله: "عاش الغرب مرحلة إصلاح ديني ومراجعةً لتعاليم المسيحية، مهدت الطريق أمام عصر التنوير، وولادة الديمقراطية الحديثة. لقد استغرق إصلاح المسيحية مسار أربعمائة عام، ولم يأخذ صيغته النهائية بعد. في حين يشرع الإسلام، الآن فقط، في ممارسة الكفاح من أجل حركته الإصلاحية التي انطلقت بقراءة جديدة للقرآن، وإعادة تفسيره وتأويل آياته، والعمل على التوفيق

(١) كارول جريفيث، "الإسلام: الكتاب الأساسي"، ص ٢-٨.

بين التعاليم الدينية ومتطلبات المجتمع الحديث. وإن ما شهده الربع الأخير من القرن الماضي من مظاهر التطرّف يُعدّ وجهاً من وجوه هذه الحركة، ويسجّل لمرحلة من مراحل تاريخها. ومن المؤكد أنه لا تزال بعيدةً عن أن تشرف على نهايتها، وأن الطريق أمامها لا تزال طويلة"[1].

إن البحث الذي قدّمه صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن حول "الإسلام والمجتمع المدني والديمقراطية"، يطلعنا على ما قطعته التنظيمات المدنية، والمؤسسات الخاصة، والهيئات غير الحكومية، من خطوات إيجابية في ممارساتها الديمقراطية، وما تشهده من تطورات مهمة في عدد كبيرٍ من الدول الإسلامية، بنسبة تفوق بكثير تقديرات معظم الغربيين لها. لكن الأسئلة الملحّة التي تطرح نفسها هي: ما نوع العلاقات التي تربط المجتمع المدني بالدولة؟ ما هي درجة الاستقلالية التي تتمتّع بها التنظيمات غير الحكومية والمؤسسات الخاصة؟ ما مقدار تحررها من سيطرة الحكومة؟ إلى أي حد تصل فعالية تطبيق قوانين حرّيات المجتمع المدني، وعدم التدخّل في شؤونه وعرقلة نشاطاته؟

أصدر برنامج الأمم المتحدة للتنمية عام ٢٠٠٢، "تقرير التنمية البشرية في العالم العربي، ٢٠٠٢"، الذي يُعدّ التقرير الأول من نوعه حول المنطقة. وهو يثبت أن ثمة نتائج نماء جوهريةً تُسجّل ما حققه اثنان وعشرون بلداً عربياً ينتمون إلى العالم الإسلامي، من تقدم كبيرٍ في مجال التنمية البشرية، وتؤكّد إسهامهم الكبير في تطور المجتمعات المدنية ونموها. لذا ارتفعت خلال العقود الثلاثة الأخيرة معدلات العمر إلى خمسة عشر عاماً، وانخفضت وفيات الأطفال تحت سن الخمس سنوات بمقدار الثلثين، وتضاعف عدد من تجاوزوا مرحلة الأمّية في جنس الذكور، وبلغ ثلاثة أضعاف في جنس الإناث، كما تحقّقت زيادات كبيرة في عدد الذين التحقوا

---

(١) روبين رايت، أكاديمي فرنسي، "المسجد والدولة"، يرى أن الحركة الثيروقراطية الإسلامية المتشددة قد بلغت مداها، نيويورك تايمز بوك ريفيو، الأحد ٢٦ آيار/ مايو ٢٠٠٢، ص ٨. ويستند ايت إلى كتاب جيل كيبيل، "الجهاد: مسار الإسلام السياسي"، كامبردج، ماشيسوستس، مطبعة جامعة هارفارد، ٢٠٠٢.

بالتعليم بمن فيهم الإناث.

وارتفع أيضاً مقدار الوحدات الحرارية اليومية، وأضحى الحصول على ماء الشرب عبر القنوات أمراً ممكناً في العديد من القرى. ويذكر التقرير، كذلك، أن نسبة الفقر في هذه البلدان هي أقل منها في أي بلد نام آخر[1]. ولكن، رغم كل هذه الإنجازات المهمة، فإن نخبة الباحثين والمفكرين العرب الاثني عشر الذين أنجزوا التقرير لا يخفون قلقهم من ضعف تأثير الموجة الديمقراطية –التي غيرت تغييراً جذرياً أنظمة الحكم عبر العالم– في دول العالم العربي، ويرون أنه يكاد يكون منعدماً بالنسبة لأغلبيتها. إن ما تعانيه شعوب هذه الدول من تضييق على الحريات يُعدّ من أكبر العوامل التي تَحُول دون تحركها وتطورها، ما ينعكس سلباً على التنمية البشرية. في مقابل ذلك، يؤكد هؤلاء الباحثون العرب استعدادَ جيل جديد من المفكرين المعتدلين في العالم الإسلامي للسير ببلدانهم صوب الحداثة، والتزامهم بالسهر على تحقيق الديمقراطية لشعوبهم.

كل الأمل في أن يتمكن العالم الإسلامي، مستقبلاً، من قطع مراحل مهمة في مجال الديمقراطية والتنمية، وتدارك تأخر دوله عن بقية مناطق العالم، ذلك التأخر الذي يُقَدَّر بنحو قرنين من الزمان قياساً إلى المدة التي استغرقتها جهود العالم المسيحي لبلورة أسس مجتمعات مدنية ديمقراطية، كما يستخلص ذلك من بعض الأبحاث التاريخية التي تناولت دراسة العلاقة بين الديمقراطية والكنيسة الكاثوليكية. يقول صامويل هنتنجتن، في كتابه "الموجة الثالثة": "بعدما كانت الكنيسة الكاثوليكية، خلال المرحلة الأولى (١٨٢٦-١٩٢٨)، والمرحلة الثانية (١٩٤٣-١٩٦٣)، تشكّل عقبةً في طريق الديمقراطية، رأيناها، ما إن حلت المرحلة

---

(١) مارك مالوك براون، مقدمة مدير: يو إن دي بي (UNDP)، "تقرير التنمية البشرية للبلاد العربية ٢٠٠٢: خلق الفرص الملائمة لأجيال المستقبل"، نشر برنامج الأمم المتحدة للتنمية، برعاية المكتب الإقليمي للدول العربية لاتابع لـ UNDP، والصندوق العربي للاقتصاد والتنمية الاجتماعية، نيويورك، منشورات الأمم المتحدة، ٢٠٠٢، ص ٤.

الثالثة (١٩٧٤)، تتقدّم الصفوف لتصبح قوةً فاعلةً في ترسيخها، ولم تبقَ حاجزاً يعرقل مسيرتها"[١].

يمكن الاستخلاص مما تقدّم أن الكتب الدينية المقدّسة لـ "الأديان السامية" تزخر بالمبادئ والتعاليم التي تمكن الديمقراطية من الازدهار، إذا ما التزم أتباعُها بالامتثال لها والتحلي بقيمها، وعملوا على سيادتها في سلوكاتهم الحيوية ومعاملاتهم اليومية. إن ما يجب أن يؤخَذ بالحسبان، بالنسبة لما يُلاحَظ من تخلّف وبطء في تقدّم نشر الديمقراطية في البلدان الإسلامية، هو حداثة استقلال تلك البلدان نسبياً، وتأخّر إعلانها دولاً قوميةً لها سيادتها. فكما يرى هنتنجتن، بينما كانت الديمقراطية الحديثة، بدءاً من عام ١٨٢٨، تخطو خطوات إيجابيةً في الغرب، كانت معظم بلدان العالم الإسلامي تخضع لحكم إمبرياليٍّ أو استعماريٍّ. أضف إلى ذلك نظرة اللامبالاة التي كان الغرب يوليها إلى الإسلام، وعدم إعارته أي اهتمام، إذ لم يبدأ ينظر إليه بجدية، ولم يتبيّن أنه يشكّل عقبةً في طريق تحقيق الديمقراطية والسلام العالمي إلاّ بعد الهزة القوية التي أحدثتها الثورة الإيرانية، التي قام بها "الثمانوني" الزعيم الديني الشيعي آية الله الخميني، وإطاحة حركته الشيعية السياسية بالشاه محمد رضا بهلوي، وطرده إلى المنفى، وإقامة حكومة ثيوقراطية (دينية)، ثم اختطاف تسع وستين رهينة من السفارة الأمريكية، اعتُقل أغلبهم مدة ٤٢٤ يوماً. لقد كانت الصدمة التي أصابت الولايات المتحدة قويةً جداً، اهتّز لها عدد كبير من بلدان الغرب. يرى السفير بيركنز في كتابه "صدام الحضارات" أن الثورة الإيرانية كانت السبب في الانطباع السلبي الذي تكوّن عند أمريكا والغرب، عموماً، عن الإسلام، والذي رسّخه في نفوسهم توالي أعمال العنف الهمجية التي يقوم بها المتطرّفون الإسلاميون. تشكّل هذه الثورة مظهراً لممارسات حركة أقليةٍ داخل أجزاء العالم الإسلامي، بدأت نشاطاتها في عقد الثلاثينيات

---

(١) هنتنجتن، "الموجة الثالثة"، ص ٧٥-٨٥.

من القرن العشرين، وقويت شوكتها في عقد السبعينيات، وترعرعت في عقدَيّ الثمانينيات والتسعينيات. ويبدو أنها أخذت تتراجع، منذ أواخر عقد التسعينيات، في معظم بلدانه[١].

سادت خلال عقد الستينيات ومعظم السبعينيات، في صفوف الأكاديمية الأمريكيين، خصوصاً منهم الذين كانوا يعملون في ميدان التنمية السياسية، مناقشات عديدة حول قضية نشر الديمقراطية في سائر أرجاء العالم النامي، وضمنه البلدان الإسلامية. لقد استهدفت برامج المساعدات الأمريكية غرس بذور الديمقراطية وتنميتها في العديد من البلدان، ومن بينها البلدان التي يشكّل المسلمون أغلبية سكانها. فمثلاً، كثيراً ما يدور الحديث، في باكستان، حول ضرورة إقامة وطن ديمقراطيٍّ، حسب تصورات ووجهات نظر تنبني على مبادئ إسلامية وقواعد بناء الدولة الحديثة كما يؤكد ذلك، إذ يقول: "إن التصور الذي كان لمحمد علي جناح، مؤسس باكستان الحديثة، حول إقامة دولةٍ إسلاميةٍ حديثةٍ، هو التأسيس لدولة الرفاه التي تستند إلى مبادئ الإسلام وتعاليمه، وتقوم على قواعد ديمقراطية تحمي الفرد وتحترمه، تعطي الرجال والنساء والأطفال حقوقاً متساوية، بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية وآرائهم السياسية. إنه نموذج يجب أن نحاكيه"[٢].

للقوميين الإسلاميين والقادة الأمريكيين تصورات وبرامج مهمة لنشر الديمقراطية، تنزع إلى "علمنة" الدولة، والفصل بين الوظائف الحكومية والدينيةاستلهموها من التجربة التركية التي أرسى دعائمها مصطفى كمال أتاتورك بثورته في عقد العشرينيات من القرن الماضي. إنهم يرون أن تجربة

---

(١) انظر: روبن رايت، "المسجد والدولة".

(٢) الأمير الحسن بن طلال، "وجهة نظر مفكر عربي حديث"، مقال نشر في جريدة "الحياة" اللندنية، ونشرت مقتطفات منه مؤسسة MEMRI MidleEast MediaReseareh Insthite واشنطن العاصمة، ووزع في ١٠ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢ عن طريق البريد الإلكتروني: memri@memri.org انظر: أيضاً، "المنتدى" (مجلة فصلية ينتشرها منتدى الفكر العربي، عمّان)، مجلد ٩، عدد ١١، أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢، ص ٨.

العلمنة التي عاشتها إيران ومصر وحكومتا البعث في كلٍّ من سوريا والعراق، خلال عقد الستينيات وأوائل السبعينيات، أعطت نتائج إيجابيةً خطت بهذه البلدان إلى إقامة نظمٍ أكثر ليبرالية.

لكن، مع إعلان الثورة الإيرانية، سنة ١٩٧٩، وقيام أحزابٍ سياسيةٍ قويةٍ ذات توجهاتٍ إسلامية على امتداد بلدان العالم الإسلامي، حدث تراجع ملحوظ بسبب انحسار التصوّرات والمفاهيم المتعلّقة بالتقدم والنماء، وما لحقها من تغيير سلبيٍّ عميق. يتجلّى ذلك، خاصةً وبشكلٍ متزايدٍ، في ممارسات بعض الحكومات التي تقلّدت السلطة، وفي نشاطات الأحزاب المعارضة وتنظيماتٍ أخرى، مثل حركة طالبان القمعية في أفغانستان، التي قوي نشاطها خلال عقد التسعينيات، والأحزاب السياسية الإسلامية المعارضة في الجزائر، التي حققت نجاحاً كبيراً في انتخابات عام ١٩٩٢، وكادت تتولى الحكم في البلاد لولا تدخل القوات المسلحة لإجهاضها ومنعها من تسلم زمام السلطة، من دون مراعاة لقواعد الديمقراطية، ما أدى إلى نشوب حربٍ أهلية ذهب ضحيتها زهاء مائة ألف مواطن جزائري. لقد كانت الانتخابات نزيهةً، وجرت بطريقة ديمقراطية أسفرت عن نجاح الحركات الإسلامية الأصولية المعادية للديمقراطية، وعن تأكيد أحقّيتها في تولي مقاليد الحكم، أي إقامة نظام حكم "ثيوقراطيٍّ" غير ديمقراطيٍّ. هذا يعني أنه لو سارت الأمور حسب الاستحقاقات، وتسلّم الأصوليون الإسلاميون السلطة، لَسُدّت كل المنافذ أمام إقامة حكومةٍ ليبرالية تؤيد الديمقراطية الغربية.

لم تستطع الحركات الإسلامية المعارضة لإقامة نظم حكم ديمقراطيةٍ في بلدان العالم الإسلامي أن تحبط مناصري هذه النظم من المناضلين السياسيين ورجال الفكر، وتثبط عزائمهم، من أمثال عالِم الاجتماع الحائز على جائزة "الديمقراطي المسلم"، سعد الدين إبراهيم، الذي يؤكد نجاح الجهود التي تُبذَل لتحقيق هذا

الهدف، يقول: "لقد انتشرت الديمقراطية عبر ربوع العالم على امتداد العديد من الأقطار، وهي قادرة على التجذّر في الشرق الأوسط أيضاً. إن المواطنين العرب العاديين، كما تؤكد ذلك مختلف الاستطلاعات، يتطلّعون إلى حرياتٍ أوسع، وإلى إصلاح النظم الفاشلة التي تحكمهم. إني على يقين بأنهم سيحققون أهدافهم، إذ لا تمثّل الحركات الإسلامية سوى أقلية بالنسبة لعدد المسلمين في العالم، ولن تنجح في أية انتخابات، وإذا ما نجحت فلن يكون من العسير إرغامها على الخضوع لقواعد الديمقراطية.

لا جدال في أن ثمة عقباتٍ كثيرةً، ولكن يمكن التغلب عليها بالإيمان بضرورة التغيير، وتوافر الإمكانات اللازمة لممارسته، والانطلاق الفعلي في مباشرة العمل من أجل تحقيقه. إن المثابرة والإصرار يفضيان، في النهاية، إلى الانتصار. ذاك ما حدث في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، ويمكن أن يحدث في أي مكان من العالم"[1].

يسير في هذا التوجه نفسه السفير بيركنز في كتابه "صدام الحضارات"، معتمداً على رأي بعض الخبراء في ذلك، يقول: "رغم أن نشاط الجماعات الإسلامية المتطرّفة، الذي تجلّى، بكل وضوح، في الثورة الإيرانية منذ عام ١٩٧٩، وفي هجوم ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ الذي شنه إرهابيو أسامة بن لادن على الولايات المتحدة، ويتوالى منذ ثلاث سنوات في الانتفاضة بفلسطين وإسرائيل، وفي التصدي للهجوم العسكري الأمريكي بأفغانستان ضد طالبان وأسامة بن لادن، وفي حرب الدول المتحالفة بقيادة الولايات المتحدة ضد صدام حسين.. رغم كل ذلك، ثمة خبراء يعتقدون أن أعمال العنف المتطرّفة في ديار الإسلام بدأت تأخذ في الانحسار منذ أواخر عقد التسعينيات. يزامن ذلك ويوازيه نموٌّ نشاط المجتمعات المدنية في العالم

---

(١) جاكسون ديل، "رهان على الحقيقة في مصر"، إصدار واشنطن بوست ناشيونال الأسبوعية، ٢٦ أيار/ مايو- ١ حزيران/ يونيو ٢٠٠٣، ص ٢٦.

الإسلامي وقوّتها، وتزايد نسبة اعتماد الانتخابات، وإقامة المجالس التشريعية المبشّرة بالتقدم صوب نشر الديمقراطية، وأيضاً عقد مفاوضات واتفاقات من أجل سيادة السلام. لكن ما نلمسه من بوادر ومنجزات تبعث على التفاؤل بمستقبل الديمقراطية في بلدان العالم الإسلامي لا يمنعنا من أن نعترف بأن الطريق أمامها لا تزال شائكة، وأن الأمر، في معظم جوانبه، رهينٌ بتوفر القيادات الحازمة من المسلمين وغير المسلمين على السواء".

مما تجب ملاحظته هو ما لاح في الأفق، بعد حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١، من تباشير انفتاح مهّد لعقد مؤتمر مدريد، وجعله ممكن التحقيق سنة ١٩٩١، لاتفاقات أوسلو سنة ١٩٩٣، وإنجاز معاهدة السلام الأردنية - الإسرائيلية سنة ١٩٩٤، وإجراء مفاوضات بين الإسرائيليين والفلسطينيين في كامب ديفيد وطابا كادت تفضي إلى اتفاقية سلام.

من المؤكد أنه إذا ما تحسنت الأوضاع في العراق، وتوقف التدهور الذي يعيشه هذا البلد منذ أعقاب حرب الخليج الثانية عام ٢٠٠٣، وخفّت المرارة التي يشعر بها العالم الإسلامي تجاه الولايات المتحدة، وأيضاً إذا ما جرى إحراز تقدم ملموس في جهود اللجنة الرباعية (الولايات المتحدة، الاتحاد الأوروبي، روسيا، والأمم المتحدة) لتحقيق أمن إسرائيل، وإقامة دولة فلسطينية دائمةٍ لها سيادتها الكاملة بحلول ٢٠٠٦، سيكون المناخ أكثر ملاءمةً لترسيخ قواعد الديمقراطية في سائر دول العالم الإسلامي في المستقبل القريب. إن إحلال السلام في منطقة الشرق الأوسط، وانحسار التهديد الإرهابي على امتداد العالم، أمران لا ينفصلان، ويرتبطان ارتباطاً وثيقاً بنتائج المفاوضات الإسرائيلية - الفلسطينية.

يؤكد تقرير فريدم هاوس، لعام ٢٠٠١-٢٠٠٢، عمق الفجوة الديمقراطية القائمة بين بلدان العالم الإسلامي وغيرها من بلدان العالم، إذ يثبت أنه وقت

يعترضهم من تحديات كبرى، بالمفهوم الذي يرونه به، بل يجهلون معناه الحقيقي كما حدده الإسلام وبيّن مجالاته ورتبه، فالجهاد الأكبر هو جهاد النفس وتحري الظلم، أي التمييز بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين الإحسان والإساءة. والحق أن من يظلم الناسَ لا يظلم سوى نفسه. ذاك هو المقياس الفصْل الذي يميّز بين المجاهدين الصادقين، وبين من يرفعون عقيرتهم بادّعاء الجهاد زوراً وبهتاناً.

إن أرضيتنا وقيمنا المشتركة مع الأديان الأخرى، معرّضة الآن للتهديد على يد المتطرفين من جميع التوجهات، فإن هم أُعطوا الفرصة ملأوا الكون بأيديولوجيات الكراهية والرعب، وألّبوا قلوب الناس بعضهم على بعض، وساقوهم إلى إبادة الجنس البشري. إن جهاداً كهذا لا يختطف الطائرات فحسب، بل يختطف الدين أيضاً، ويشوّه القيم الإنسانية ويجعلها ضداً على الإنسانية نفسها"[1].

أعتقد أن مما يساعد القارئ على فهم الأوضاع التي يواجهها العالم اليوم، والتعرّف على الإمكانات التي بوسعها أن تحقق السلام الشامل والدائم في المستقبل، هو إعطاؤه نظرة عن العلاقات التي كانت قائمة بين الغرب والعالم الإسلامي قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، وبعد أن نالت أغلبية بلدان العالم الإسلامي استقلالها الوطني الكامل، وعمّا أصبحت عليه منذ ظهور الجماعات الأصولية الراديكالية الفاعلة في عقد السبعينيات. إننا على يقين بأن ذلك سيسهم كثيراً في تفريج الأزمة التي يعيشها العالم حالياً. إن نتائج دراسة الأمير الحسن لتاريخ العالم الإسلامي، وتحليله لأحداثه ووقائعه، واستخلاصه لعبره، هو ما يقوّي إيمانه بأن بإمكان العالم الإسلامي والغرب، أن يتعايشا معاً، في سلم ووئام، ويتعاونا على ما فيه صلاحهما.

---

(١) صاحب السموّ الأمير الحسن بن طلال، "العالم الإسلامي والبلدان الثالثية في عصر العولمة"، كلمة ألقاها سموه أمام اجتماع الهيئة الثلاثية (Trilateral Commission)، واشنطن العاصمة، ٥-٨ نيسان/ إبريل ٢٠٠٢، ص ١.

يبدو ذلك من ممارسات حكومتها الثانية، التي تنهج سياسة الانفتاح والديمقراطية مقابل الحكومة "الثيوقراطية" الرجعية السلطوية. ولا نغفل التجربة الديمقراطية المهمة التي مارستها تركيا بحريةٍ وشجاعةٍ، حيث أسفرت الانتخابات عن نجاح حزب سياسي إسلاميٍّ تسلّم سدة الحكم، وقبلت مؤسستُها العسكرية الحكومةَ الجديدة، كما التزم الحزب الإسلامي الفائز بالعيش ضمن إطار الديمقراطية الدستورية في البلاد. من البديهي أن ذاك هو المفتاح الحقيقي للديمقراطية. ولا يفوتنا أن نذكر ما قطعه النظام السياسي الملكي الدستوري في المغرب من مراحل مهمةٍ في نهج الانفتاح، ولا شك في أنه سيحقق التقدّم الكامل صوب ملكية دستورية ديمقراطية في كل الأبعاد.

وإذ كنت أرغب في أن أعود إلى الحديث عن الأردن، فذلك لكي أؤكد أن الأدوار المهمة التي تقوم بها العائلة الهاشمية المالكة في هذا البلد، وجهودها المتميزة في بناء مجتمع ليبرالي قادر على التقدّم صوب الديمقراطية، قمينة بكل اعتبار واهتمام. يكفي أن يكون أحد أبرز أعضاء هذه العائلة هو مؤلف هذا الكتاب القيّم. لقد كانت العائلة الهاشمية المالكة تتولى زمام السلطة في العراق عندما كان تحت الانتداب البريطاني، من عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٥٨. فإذا نجح العراق اليوم في ترسيخ قواعد الديمقراطية، بعد دكتاتورية صدام حسين، وحرب التحالف عام ٢٠٠٣، سيكون البلد مَديناً، فيما تحقق له عن جدارةٍ، وبكامل الاستحقاق، للعائلة الهاشمية. إن مراجعة التاريخ تبيّن أن ملك العراق فيصل الأول كان أولَ من وضع أسس نظام حكم برلمانيٍّ، وسمح بإنشاء أحزابٍ سياسية متعددة. لقد كانت الأجواء العامة، في ظل حكم الهاشميين، تشجّع على إقامة الحوارات السياسية وتبادل الرأي، وتساعد على توفير السبل والوسائل اللازمة لنجاحها. لقد كان هنالك صحافة حرة، وتعدّدية حزبية فاعلة، ونشاطات جمعوية متنوعة. إن العائلة الهاشمية الحاكمة حالياً هي نفسها التي عملت على خلق مجتمع ليبرالي مماثل في الأردن.

فالملك عبد الله الأول، والملك الحسين، والملك الشاب عبد الله الثاني، والأمير الحسن، جميعهم قدموا لوطنهم الخدمات الجليلة في ميادين التنمية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكانوا، على الدوام ولا يزالون، دعاةَ سلام واعتدالٍ وتعاونٍ على امتداد المنطقة. هذا ما يؤكد إمكانيةَ الأنظمة الملكية، والعائلات التي تتولى الإمارة، وقيادة الحكم في البلاد الإسلامية أن تجسد رمز الوحدة، وتحافظ على التقاليد الموحّدة لشعوبها، وفي الوقت نفسه تسير بها قدماً صوب نظم دستوريةٍ ديمقراطية، من دون أن يكون في ذلك مساسٌ بأنظمتها. لا شك في أن ذلك سيحقق لها ولشعوبها كل الخير والصلاح، أما إذا تمادت الأمور على ما هي عليه، من دون بذل الجهد لسيادة نظم ديمقراطية، فلن تزداد الأوضاع المتردية القائمة سوى استفحال قد يفضي إلى سقوط الأنظمة الاستبدادية الرجعية، الأمر الذي لا تخفى على أحد عواقبُهُ الوخيمة.

ملاحظةً أخيرة، نسوقها لنؤكد أن الديمقراطية الناجحة لا يمكن أن تتحقق في بلدان العالم الإسلامي إلاّ على يد قادتها وشعوبها، إذ لا يستطيع الأجانب، الذين يأتونها لنشر الديمقراطية، القيامَ بدور مهم إلا إذا كان يُوجد في تلك البلدان أفراد مخلصون وجماعات ملتزمة، تساندهم وتأخذ على عاتقها مسؤولية قيادة العمل من أجل بلوغ هذا الهدف النبيل. نعم، بوسع الأجانب أن يقدّموا الدعم الكافي للقادة والحكام المسؤولين، لكن لا يمكنهم أن يفرضوا عليهم آراءهم، ولا أن يجبروهم على تنفيذها. إن قادة تلك البلدان ومُعِينيهم هم وحدهم القادرون على القيام بهذه المهمة، وتحقيق الديمقراطية المنشودة. إضافة إلى هذا، وكما أوضحتْ ذلك وزيرةُ خارجية الولايات المتحدة الأمريكية، مادلين أولبرايت، في خطاب ألقته في جامعة أوكلاهوما في نيسان/ أبريل ٢٠٠٣، أمام المؤتمر السنوي حول السياسة الخارجية، فإنه ليس من مصلحة الولايات المتحدة، ولا من مصلحة العالم، ككل، تقويض جميع الأنظمة الإسلامية القائمة، لأن ذلك سيعمل على سيادة الفوضى،

وإشعال الحروب على امتداد جزءٍ كبيرٍ من أجزاء العالم.

من البديهي أن بناء أسس الديمقراطية وترسيخ جذورها يستغرق وقتاً طويلاً، لذا لا داعي للاستعجال والتهور في ممارسة أعمالٍ مخلّةٍ قد تورّط فيما يفضي إلى عرقلة مصالحنا المشتركة. ليس من المنطق في شيء، القضاء على الروابط التاريخية الجيدة التي قامت، على امتداد نصف قرنٍ، بين الولايات المتحدة والدول الإسلامية المعتدلة التي أسهمت في استقرار الشرق الأوسط والعالم الإسلامي. لقد لعبت أنظمة تلك الدول، بدرجاتٍ متفاوتة وأشكالٍ مختلفة، دوراً أساسياً في إيقاف التوسع الشيوعي، واحتواء المدّ الثوري للأصولية الإسلامية الذي أعقب الثورة الإيرانية. كما ساعد بعضها على مناهضة صدام حسين، خلال حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١، وتعاونت جميعها في الحرب ضد الإرهاب بعد أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. من واجب الولايات المتحدة، إذاً، أن تشجعّ على اعتناق الديمقراطية، وتعمل على نشرها، وأن تعبّر، بصراحةٍ ووضوحٍ، عن اختيارها لهذا النمط من نظم الحكم وتفضيلها له. لكن يبقى الأمر، في نهاية المطاف، بيد الشعوب، وقادة العالم الإسلامي الذين يجب عليهم، بدورهم، أن يجنّدوا كل قواهم، ويعبّروا، أيضاً، بوضوح، عن تطلعاتهم إلى إقامة أنظمةٍ حرة وبناءة لخدمة مجتمعاتهم. ما نظن أن الإسلام يَحُول دون ذلك. إن البحث القيم الذي يضمّه كتاب الأمير الحسن عن "الإسلام والمجتمع المدني والديمقراطية"، يؤكد أن أغلب مبادئ الإسلام وتعاليمه تتوافق مع مبادئ الديمقراطية والسلام في مفهوم الغرب. نعتقد أن الوقت قد حان للشروع في حملةٍ قويةٍ وشاملةٍ لتطوير العالم الإسلامي، على امتداد أقطاره، وتحويل دوله ومجتمعاته إلى نظم حكمٍ ديمقراطية.

أود أن ألفت النظر إلى أن صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن، أردنيّ مسلم، وألان إلكن فرنسي يعتنق الديانة اليهودية، يعيش منذ سنواتٍ طويلة في إيطاليا،

وإدوارد بركنز أمريكي مسيحي كاثوليكي، وأنا أمريكي من أتباع الكنيسة البروتستانتية، وبذا تأتي إسهاماتنا جميعاً في هذا الكتاب دليلاً على أن بمقدور أناسٍ ذوي نياتٍ حسنةٍ، رغم اختلاف انتماءاتهم القومية والدينية، أن يعملوا، معاً، من أجل قضية مشتركة ولصالح الإنسانية. إننا نؤمن بأنه إذا كان لشعوب العالم الناطقة بالإنجليزية اطّلاع أفضل على الإسلام، وفهم صحيح لمبادئه وتعاليمه وقيمه، وماذا يعني، حقاً، أن يكون المرء مسلماً، وبالمثل إذا تعرّف المسلمون على عقائد الغربيين، وكان لهم اطّلاع أوسع على ثقافتهم، فإن ذلك سيسهم إسهاماً كبيراً في بناء عالم يسوده الأمن والاستقرار، وتتعايش فيه جميعُ الشعوب بسلامٍ، وتتعاون على ما فيه صلاحها.

يتضمن هذا الكتابُ حديثَ مفكّر من أشهر قادة العالم الداعين إلى حوار الأديان، والمبادرين إلى التأسيس له. يقدم عرضاً موجزاً، دقيقاً وواضحاً، عن "ماذا يعني أن يكون المرء مسلماً"، كما يعتقده هو شخصياً، وكما يراه معظم المسلمين الذين يؤمنون بالقرآن وتعاليمه، وبسنّة النبي محمد.

إننا نأمل أن يسهم هذا المؤلف، الموجز والقيّم، في التعريف بدين من الأديان السماوية الرئيسة الثلاثة، وفي فهم أبعاده، وتبيّن مدى التأثير الذي كان له في تاريخنا، وسيكون له في المستقبل الذي سوف يواجهنا.

صدام حضارات أم علاقات طبيعية مع أمم العالم الإسلامي

إدوارد ج. بيركنز

يبيّن صاحب السموّ الملكي الأمير الحسن بن طلال، في كتاب "أن تكون مسلماً: الإسلام، السلام والديمقراطية"، أن المعتقدات الدينية لأغلبية المؤمنين في العالم الإسلامي ليست فقط منسجمةً مع التعددية، بل أكثر من ذلك أنها تسهم في سيادة التعايش السلمي، وإقرار الأمن والاستقرار، وبناء عالم يسوده الوئام، تستطيع فيه جميع الأمم، الإسلامية وغير الإسلامية، أن تتعاون لإقامة مجتمع عالميٍّ أكثر إنسانية وعدلاً. وقدّم على ذلك حججاً مستقاة من القرآن وأحاديث النبي محمد وسنته.

لقد تحدّث، بوضوح، عن امتثال المسلمين، عبر معظم مراحل تاريخهم، لتعاليم الدين الإسلامي وأحكامه التي تأمرهم باحترام الآخر، وتقدير معتقداته وقيمه، والتسامح مع مختلف الجماعات الإثنية ومعتنقي الأديان الأخرى، وبالأخص الديانتين الموحّدتين اليهودية والمسيحية. لعل فيما تحدث به سموّه الجواب الكافي عن تساؤل للرئيس بورن، في بحث تحت عنوان "المجتمعات الإسلامية"، يرى أنه يشكّل أحد الهموم الرئيسة التي تشغل بال شعوب الغرب، يتعلق باستفسارهم عن مدى قدرة الشعوب الإسلامية على إقامة أنظمة حكم ديمقراطية حقاً. يؤكد الأمير الحسن، في حديثه عن "ماذا يعني أن يكون المرء مسلماً"، أن الإسلام يتوافق مع

الديمقراطية، وأن المجتمعات المدنية في الكثير من بلدان العالم الإسلامي حقّقت، بالفعل، تقدماً ملحوظاً في هذا التوجّه، كما يبدو ذلك جليّاً من خلال تزايد عدد المنظمات غير الحكومية والمؤسسات المستقلة، ومن قيام قطاع خاص يتمتع بحيويةٍ أكبر. إن مبادئ الإسلام وقيمه التي تحدث عنها الأمير الحسن، وكذا ما ذكره عن تزايد نشاط المجتمع المدني وتعدد هيئاته ومنظماته، يشكّل معطيات مهمةً يمكن أن تُبنى على أسسها مجتمعات أكثر ليبرالية وديمقراطية، وتثبت، كما يؤكد الأمير الحسن، ويؤيده في ذلك السيناتور بورن، أن للمجتمعات الإسلامية من الإمكانات والقدرات ما يخّولها الالتحاق بسائر بلدان العالم، في زحفها إلى الديمقراطية.

قد يكون هذا التساؤل أقلّ إلحاحاً من سؤال يطرح نفسه باستعجال، هو: هل من الممكن أن تتعايش، معاً، شعوبُ الغرب والشعوب الإسلامية في سلام ووئام؟ إنني، شخصياً، أعتقد أن أغلبية المسلمين، كما ينقل لنا ذلك تاريخ العالم الإسلامي، وكما يذكره الأمير الحسن، لا يكنّون في داخلهم نوايا عدوانيةً تجاه الآخر وعقيدته وثقافته، وذلك امتثالاً لتعاليم الإسلام التي تفرض عليهم العيش بسلام مع أصحاب الأديان السماوية الأخرى، والتعاون مع غيرهم من الشعوب والأمم المختلفة. إن جهل الغرب للإسلام وتاريخه، وكذا التجارب الاستعمارية المؤسفة التي عاشها مع عدد من الشعوب الإسلامية، وما عاناه، ولا يزال يعانيه حتى اليوم جراء الأحداث المؤلمة، والهجومات العنيفة التي أخذت تستهدفه على يد الجماعات الإرهابية، منذ الربع الأخير من القرن الماضي، كل ذلك جعل الغربيين يشكّون - ويحقّ لهم ذلك- في إمكانية تحقق العيش في أمن وسلام مع العالم الإسلامي.

تتبدّى هذه الشكوك والمخاوف في التصورات التي يحملها الأمريكيون عن الواقع وتحليلهم له. فمثلاً، يرى صامويل هنتنجتن - وإن كانت نظريته قابلةً للجدل- أن أغلبية الحروب التي يشهدها العالم اليوم، والسياسة التي ينهجها تُعدّ صورةً لما

يعانيه من مخاض "صدام الحضارات (الذي) سيتمركز ويشتد أواره مستقبلاً بين الغرب وعدد من الدول الإسلامية والكونفوشية"[١]. ثمة طرح آخر للأكاديمي مايكل دويل، لقي تأييداً كبيراً، استخلصه من دراسة عميقة وشاملة للحروب التي يشهدها العالم، منذ عام ١٨١٥، يرى أن نسبة احتمال قيام حرب فيما بين بلدان ديمقراطية أقل بكثير من نسبة احتمال قيامها بين بلدان أخرى غير ديمقراطية[٢]. لهذه النظرية جذور فيما يراه إيمانويل كانط في رسالته "سلام دائم" من أن نسبة احتمال نشوب حروب بين دول ديمقراطية ضعيفة جداً قياساً إلى نسبة احتمال نشوبها بين دول لها نظم حكم أخرى، وسبب ذلك هو أن النظم الديمقراطية تشترط موافقة الشعوب على شنّ الحرب[٣].

نخلص إلى التأكيد أننا، بناءً على ما ذكرناه، وأخذاً بنظرية دويل وغيره في الحسبان، لا نستطيع أن نخفي قلقنا من أوضاع البلدان الإسلامية. إن نظمها التي هي، بشكلٍ عام، أقل ديمقراطيةً من نظم غيرها من بلدان العالم، تجعلها أكثر عرضةً لنشوب الحروب، ولأن تصبح هدفاً لعدوان الدول الديمقراطية عليها.

توجد علاقة متينة بين السلام والديمقراطية. يكفي أن نراجع التاريخ لنرى كم هو مليء بسوابق قيام حروب بين بلدان غير ديمقراطية، وفيما بينها وبين بلدانٍ ديمقراطية، ونادراً، بل لا نعثر على أخبار تتحدث عن نشوب حرب بين دول ديمقراطية. لذا، فإن الوسيلة الكفيلة للحدّ من العوامل التي تسهم في قيام الحروب، أو بالأحرى القضاء عليها، هي العمل على أن تكون لجميع الدول نظم ديمقراطية.

---

(١) صامويل هنتنجتن، "صدام الحضارات"، فورين أفيرز، مجلد ٧٢، عدد ٣، صيف ١٩٩٣، ص ٤٨. لقد طور هنتنجتن هذه المقالة بالغة الأهمية إلى كتاب أثار نقاشاً واسعاً: "صدام الحضارات أم إعادة صنع النظام العالمي؟".

(٢) مايكل دويل، "الليبرالية والسياسة العالمية"، مجلة العلوم السياسية الأمريكية، المجلد ٨، العدد ٤، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٦، ص ١١٥١-١١٦٩.

(٣) مقتبس من كتابات كانط السياسية، هانز رايس، كامبردج، ماسيشوسيتس، مطبعة جامعة كامبردج، ١٩٧٠، ص ١٠٠.

ذاك ما يرغب فيه الأمريكيون، ويسعون إلى تحقيقه، لإيمانهم العميق بأن لجميع الشعوب الحق في أن تعيش في مجتمعاتٍ تدير شؤونها حكومات ديمقراطية، تخضع للرقابة والمساءلة، وتعمل على تحقيق النماء والرفاهية لجميع طبقاتها.

إنني أؤيد رأي الأمير الحسن، الذي يؤكد أن بإمكان البلدان الإسلامية والغربية أن تتعايش معاً، بل يجب عليها ذلك، وأن تنعم شعوبها بالسلام والأمن، وتقيم بينها روابط تعاون، وذلك استناداً إلى ما قدمه، بطريقةٍ مقنعةٍ، من شروح وبيانات نلخصها فيما يأتي:

- إن التعاليم الإلهية التي أوحي بها إلى النبي محمد، وينصّ عليها القرآن، تدعو المسلمين إلى أن يكونوا متسامحين، وأن يتعايشوا بسلام مع غيرهم.
- ما ينقله التاريخ عمّا عاشته البلدان والإمبراطوريات الإسلامية، بوجهٍ عامٍّ، خلال القرن السابع الميلادي، من تسامح مع الأقليات التي تقيم داخل حدودها، وسلْم مع الدول الأخرى، ولم تدخل معها في حروبٍ، وأن ما عرفته من حروب كان في أغلب الحالات رَدَّ فعل ضد عدوانٍ خارجيٍّ والدفاع عن مصالحها، كما كان الشأن، مثلاً، في الحروب الصليبية المسيحية، والغزو المنغولي.
- تراجع نشاط الحركات الإسلامية الأصولية، السياسية والعسكرية، التي مارست أعمالاً عدوانيةً شديدة الخطورة، خلال الربع الأخير من القرن الماضي. إذ يرى عدد من الخبراء أن تلك الحركات، وإن كانت لا تزال تهدد النظم الملكية والعلمانية في العالم الإسلامي وخارجه، نزلت من عليائها، وبدأت تأخذ في الانحسار.
- تبيّن العوامل التي يمكنها أن تساعد في القضاء على بعض الأسباب الرئيسية التي تدفع الجماعات الإسلامية المتطرفة إلى كراهية الغرب، والتخفيف من حدة نزوعاتها العدوانية ضده. ومن بين تلك العوامل ما يأتي:

- توسيع آفاق الديمقراطية في بلدان العالم الإسلامي، والحرص على تطبيق أحكام القانون، وعلى المساواة بين جميع المواطنين، ومعاملتهم بعدالةٍ وإنصاف.
- تعميم التعليم وإصلاح برامجه.
- رفع مستوى المعيشة.
- المساواة بين النساء والرجال، وإعطاء النساء حقوقهن الكاملة، وتوفير حدّ أدنى من الرفاهية لهنّ، إذ من شأن إنصافهنّ أن يترك أثراً "حضارياً" و"اعتدالياً" في سائر فئات المجتمع الذي يمثلن نصفه.
- وقف الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي عن طريق المفاوضات، وضمان الأمن لدولة إسرائيل، وإقامة دولة فلسطينية دائمة تضمن للفلسطينيين حق الحياة فوق أرضهم، وممارسة سيادتهم، ورسم حدودٍ واضحةٍ بين الدولتين بتراضٍ بينهما، وتعايشهما معاً في سلام.

إن عرض الأمير، وشرحه لـ "ماذا يعني أن يكون المرء مسلماً" يقدم تعاليم الوحي الإلهي المنزل على النبي محمد، التي تشرّع للمسلمين أحكام حياتهم، وتدعوهم إلى العيش بسلام. إن ما هو قائم من خلافٍ حول طبيعة الإسلام السلمية مبعثه التأويل الذي يعطيه بعض المسلمين أنفسهم، وبعض الغربيين لمفهوم "الجهاد". لقد تناول الرئيس بورن، الحديث عن هذا الموضوع في رسالته المعنونة "المجتمعات الإسلامية"، وأفاض في تحليل مختلف النظريات عنه. أكتفي هنا بنقل مقتطفاتٍ مما جاء في حديث الأمير الحسن، عن مفهوم "الجهاد" في الإسلام، يقول: "من الأمور التي يعترف بها الكثيرون أن أنظمة الحكم في البلدان الإسلامية، كشأنها في معظم بلدان العالم النامي، ألجمت حركة مجتمعاتها، وأعاقت نشاطاتها. يوجد في العالم الإسلامي أشخاص يميلون إلى تحبيذ أسلوب الجهاد في مواجهة ما

يعترضهم من تحديات كبرى، بالمفهوم الذي يرونه به، بل يجهلون معناه الحقيقي كما حدده الإسلام وبيّن مجالاته ورتبه، فالجهاد الأكبر هو جهاد النفس وتحري الظلم، أي التمييز بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين الإحسان والإساءة. والحق أن من يظلم الناسَ لا يظلم سوى نفسه. ذاك هو المقياس الفصْل الذي يميّز بين المجاهدين الصادقين، وبين من يرفعون عقيرتهم بادّعاء الجهاد زوراً وبهتاناً.

إن أرضيتنا وقيمنا المشتركة مع الأديان الأخرى، معرّضة الآن للتهديد على يد المتطرفين من جميع التوجهات، فإن هم أُعطوا الفرصة ملأوا الكون بأيديولوجيات الكراهية والرعب، وألّبوا قلوب الناس بعضهم على بعض، وساقوهم إلى إبادة الجنس البشري. إن جهاداً كهذا لا يختطف الطائرات فحسب، بل يختطف الدين أيضاً، ويشوّه القيم الإنسانية ويجعلها ضداً على الإنسانية نفسها"[1].

أعتقد أن مما يساعد القارئ على فهم الأوضاع التي يواجهها العالم اليوم، والتعرّف على الإمكانات التي بوسعها أن تحقق السلام الشامل والدائم في المستقبل، هو إعطاؤه نظرة عن العلاقات التي كانت قائمة بين الغرب والعالم الإسلامي قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، وبعد أن نالت أغلبية بلدان العالم الإسلامي استقلالها الوطني الكامل، وعمّا أصبحت عليه منذ ظهور الجماعات الأصولية الراديكالية الفاعلة في عقد السبعينيات. إننا على يقين بأن ذلك سيسهم كثيراً في تفريج الأزمة التي يعيشها العالم حالياً. إن نتائج دراسة الأمير الحسن لتاريخ العالم الإسلامي، وتحليله لأحداثه ووقائعه، واستخلاصه لعبره، هو ما يقوّي إيمانه بأن بإمكان العالم الإسلامي والغرب، أن يتعايشا معاً، في سلم ووئام، ويتعاونا على ما فيه صلاحهما.

---

(١) صاحب السموّ الأمير الحسن بن طلال، "العالم الإسلامي والبلدان الثالثية في عصر العولمة"، كلمة ألقاها سموه أمام اجتماع الهيئة الثلاثية (Trilateral Commission)، واشنطن العاصمة، ٥-٨ نيسان/ إبريل ٢٠٠٢، ص ١.

لعل من المفيد، بهذا الصدد، أن نبدي بعض الملاحظات حول الأديان الكبرى، ونذكر بعض الأسباب التي أدّت إلى سوء فهم الغربيين للإسلام.

من المبادئ المشتركة بين جميع الأديان الكبرى مبدأ الإيمان بقدسية الحياة، والالتزام بحفظ النفس البشرية. بعضُ أتباع تلك الديانات صادَقَ، خلال القرنين الماضيين، على بنود وثيقة حقوق الإنسان التي تنصّ على واجب احترام حق الحياة، وتحسين ظروف العيش بالنسبة لجميع الناس، من دون تمييز عقائدي أو مذهبي أو عرقي.

ولكن رغم أن الإيمان بأي دين سماويٍّ ينطلق، أساساً، مما يحتوي عليه هذا الدين من مبادئ وقيم، وعلى رأسها احترام حياة البشر، والالتزام بضمان حقوقهم، ومساعدتهم على توفير مستلزمات الحياة، وإيلاء ذلك الأولوية على ما سواه من الشؤون الدنيوية الأخرى، فإن ما يحدث حالياً، وسبق أن حدث من قبل في أوقاتٍ ومراحل مختلفةٍ، بدرجاتٍ متفاوتةٍ، بين أبناء الدين الواحد، وبين الأديان المختلفة، من خروقاتٍ صارخةٍ لهذه القيم، يبعث على الحسرة، ويحزّ في النفس. بيد أن تلك الخروقات تنحصر، لحسن الحظ، في أوساط المتطرّفين، وكلما تجاوزت حدودها، وأضحت ذات شوكةٍ قويةٍ تشكل خطراً على المجتمع، تمّ التصدي لها وضبطها، إلا ما كان من حالاتٍ استثنائيةٍ محددة.

توجد في جميع الأديان جماعات متعصبة ومتطرّفة تتبارز فيما بينها، مبْديةً عضلاتها بدافع العناد والتصلب، والاستجابة لإرضاء نزوعاتها إلى رصد عدوٍّ واستهدافه، والدعوة إلى كراهيته وتدميره. تنتشر ملامح هذا النوع من التطرف اليوم في الأوساط المسيحية واليهودية وبين المسلمين، على السواء، ناهيك عما يعمّ من عواقبها في ديانات أخرى عديدةٍ. من ذلك مثلاً، هجمات المتطرّفين الهندوس على المسلمين في الهند، بفعل ما يدعو إليه ويمارسه من تأليب عليهم دعاةٌ من أمثال القس جيري فولويل، والداعية الإنجيلي بات روبرتسن، والقس فرانكلين جراهام،

والقس جيري فاينز. إنهم يشعلون، من دون تحفّظ أو حياءٍ، نار هجماتهم على الإسلام ونبيه محمد. بالمقابل، نجد صوراً لهذا الهجوم وبقوةٍ أفظع في الأوساط الإسلامية، إذ ليس هنالك فقط هجمات أسامة بن لادن على الغرب، وتهديداته له بأن القاعدة سوف تقاتل الكفار، بل إن خطب الجمعة التي يلقيها في بعض المساجد، على امتداد العالم الإسلامي، خطباء أصوليون، تنحو، أيضاً، منحى التطرّف، وتشجب الغرب وثقافته، وتنزع عنه كل القيم. يسير في هذا التوجه نفسه، المعادي للغرب،بعضُ المناهج الفكرية للعديد من الأكاديميين المسلمين الذين يكرسون جهودهم لبثّ أيديولوجيات محاصرةٍ للفكر الغربي وحضارته[1]. يوجد بين اليهود مَن هم، كذلك، متطرّفون يكنّون الحقد الكبير للمسلمين إلى درجة أنهم أقدموا على مهاجمتهم وهم يؤدون صلاتهم في أماكنهم المقدسة بالقدس والخليل. لكن هذا الواقع المؤلم لم يمنع من أن يوجد، اليوم، من بين الغربيين، عددٌ كبير من الذين يعترفون بالإسلام ديناً له حرماته، ويعربون عن تقديرهم له، وأن تتصاعد نسبة من يعتنقونه من بينهم، من دون اعتبار للأصوليين الذين أتيت على ذكرهم أعلاه. بالمقابل، يوجد عدد كبير من الأمريكيين الذين ينزعون إلى عدّ الإسلام معادياً، بشكل جوهري، لغير المسلمين، وذلك أولاً لنظرتهم إلى سيرة النبي محمد، وتأويلهم غزواته السياسية والعسكرية في كفاحه ضد أعدائه من غير المسلمين في مكة، وثانياً لتأثيرهم بالرأي الشائع بين العديد من الأمريكيين، وإن كان خاطئاً، أن الإسلام، بعد وفاة الرسول عام ٦٣٢م، انتشر بسرعة فائقةٍ على امتداد أجزاءٍ كبيرةٍ من العالم بحدّ السيف، للهيمنة، وإجبار غير المسلمين على الدخول في حظيرة الإسلام.

إن الأمر يتطلب من الأمريكيين والغربيين، عموماً، التحلي بحسن النية، وبذل الجهد للتعرّف على الإسلام كما هو في حقيقته، وعلى تعاليمه وقيمه، وأيضاً الاطلاع

---

(١) ليبلا كاسينتو، "الحروب المقدسة؟ المتطرفون المسلمون والمسيحيون يمارسون حرباً كلاميةً لاذعةً"، أخبار ABC، إنترنت فنتورز، ١٥ كانون الثاني/ يوليو ٢٠٠٣، www.abcnews.com.

على مراحل تاريخه، وسلوكات المسلمين عبر عصوره، وذلك بالقدر الكافي الذي يُمكّن من تصحيح صورته عندهم، ومحو مثل تلك الآراء والانطباعات الخاطئة والأحكام المسبقة التي تكونّت لهم عنه.

لقد استغرقت المرحلة الأولى لنشر الإسلام مدة تزيد على ثلاثة قرون، وهي المدة نفسها، تقريباً، التي استغرقتها المسيحية لتصبح الدينَ المهيمن في الإمبراطورية الرومانية. من هذا المنظور، يمكن، إلى حدّ كبير، مقارنة عملية انتشار المسيحية، بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين لها عام ٢١٣م، وفرضها على العالم الذي كان يخضع لحكم الرومان، بعملية انتشار الإسلام وتوسّع الإمبراطورية الإسلامية.

لقد جرى التوسع الإسلامي، بشكلٍ تدريجيٍّ، أيضاً، ولم يكن الأفراد في البلدان التي فتحها الإسلام يُجْبَرون على اعتناقه. وكما لاحظ ذلك السيناتور بورن، في بحثه عن "المجتمعات الإسلامية"، فإن ما حظيت به الأقليات اليهودية والمسيحية، التي كانت تعيش تحت حكم الخلافة الإسلامية من احترام، وما كانت تنعم به من أمن لا يشوبه أي إزعاج، يدحض الرأي القائل بأن الإسلام جرى نشره بشكل سريع وأنه كان يُفْرَض بالقوة على شعوب الأقاليم التي دخلها عن طريق الغزو العسكري.

بعد هذا التوسع الذي حققه الإسلام خلال القرون الثلاثة من مجيئه بدأت سلطات الخلافة الإسلامية في نهاية الألفية الأولى للميلاد تتقلص، واستولت على السلطة في مصر دولةُ المماليك التي دام حكمها من عام ١٢٥٠ إلى عام ١٥١٧م.

يجب أن لا يخفى على الغرب، الذي يحتفظ بانطباع سيئ عن الإسلام، ويرى أنه عنيف وعدواني وخالٍ من الأحاسيس الإنسانية، أنه تحت ذريعة إنقاذ المسيحية الشرقية من المسلمين، شنّ بابا الكاثوليك أوربان الثاني حرباً عليهم، عام ١٠٩٠م. دامت مائتي عام في مراحل وموجاتٍ متتاليةٍ، قام بها الفرسان الصليبيون الذين

نشروا الدمار والموت والفوضى في ديار الإسلام. كان ذلك إبان "عصور الظلام"، قبل أن يحدث التحول الفكري للغرب، وتتحقّق النهضة التي شهدتها ربوعه خلال عصر التنوير والإصلاح الديني، وقيام الدولة القومية.

إن دولة المماليك التي قضت على الصليبيين، وطردتهم نهائياً من ديار الإسلام، دفاعاً عنه وعن المسلمين، هي نفسها التي قضت على المغول الغزاة الذين انطلقوا من مرتفعات هضاب أواسط آسيا في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وقتلوا الخليفة الإسلامي. لكن أتى على المسلمين، بعد ذلك، حينٌ خمدت فيه جذوتُهُم إلى أن حلّ القرن السابع عشر الميلادي، إذا استطاعوا أن يشهروا، مرةً أخرى، قوتهم على يد الإمبراطورية العثمانية. بيد أنه لم يقدِّر لهذه الإمبراطورية أن تعيش طويلاً، لأن ما أضحت تتمتع به أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي من قوةٍ ورخاءٍ تجاوز بكثير قدرات العالم الإسلامي، الأمر الذي لم يمكّنه من الاستمرار طويلاً في قوته. لقد حقّق المسلمون انتصاراتٍ مبهرةً ضد الحروب الصليبية والغزو المغولي، كما سقطت القسطنطينية في أيديهم، وعانوا كذلك من انتكاساتٍ مُرة، جراء طرد العرب من شبه الجزيرة الإيبيرية، وقيام الدول –القومية، وأفول نجم الإمبراطوريات، وأخيراً زحف الاستعمار المسيحي الغربي الذي انبثق من رحم عصر الاكتشافات. لقد كان لسقوط الإمبراطوريات ونهاية عصر الاستعمار تأثير كبير في أوروبا الشرقية وإفريقيا والشرق الأوسط علىالسواء. وكان وقعه أشد في مناطق العالم الآهلة بالسكان المسلمين. كما أن بند حق الشعوب كافة في تقرير مصيرها، وإقامة دولها القومية، الذي أصر الرئيس الأمريكي وودرو ويلسُن، بعد الحرب العالمية الأولى، على ضمه إلى البنود الأربعة عشر التي تضع حداً لجميع الحروب، وتسعى لتحقيق سلام شاملٍ، كان المحرّض على إقامة عدد من الدول القومية. كذلك فإن الموقع الاستراتيجي لمنطقة الشرق الأوسط جعل

المنطقة مستهَدَفةً، وتزاحمت القوى حولها بشكلٍ يدعو إلى الاشمئزاز، كما وصفه ويلسُن[1]، فلم يراعَ تطبيق مبدأ تقرير المصير تطبيقاً جيداً وعادلاً، كما لم يطبَّق بإنصافٍ في جميع مقررات ومكاتب رسم الحدود للدول الجديدة التي نشأت بعد انهيار الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية والإمبراطورية العثمانية. وكان من بين ما تولّد عن إقامة دولٍ قومية، لاعتبارات مختلفة، إثنيةٍ وقبليةٍ ولغويةٍ، فوق تراب الديار الإسلامية زرعُ مشاكل عويصةٍ في المنطقة، وإقامة عوائق شائكة أمام بلورة مفهوم دقيقٍ وواضحٍ للدولة القومية، وسيادة شعور قوميٍّ موحّدٍ. ذاك شيء لم يحدث في أوروبا الغربية وأمريكا اللتين عاشتا تطوراً تدريجياً مهد لإنشاء دولهما القومية.

نشأ نظام الدولة - القومية، بأوروبا، في أعقاب معاهدة ويستفاليا عام ١٦٤٨، وأصبح العامل الموجِّهَ الرئيسي الذي تخضع له السياسة العالمية. وعملت الدول القومية، التي ظهرت إلى الوجود مبكراً، في بداية هذا التاريخ، على تطوير الشعور القومي الموحّد عند شعوبها. وعلى العكس من ذلك، اكتفت الدول القومية، التي أُنشئت فيما بعد، بالعمل على أن يتشارك مواطنوها في ثقافة واحدةٍ ولغة واحدةٍ. لقد استطاعت الدول السبّاقة أن تحتل موقع المركز على الساحة الدولية، في حين ظلت ذات مكانةٍ ضعيفةٍ دولُ شرق أوروبا وإفريقيا وجنوب آسيا والشرق الأوسط، بوجه عام، التي لم ينل أغلبها استقلاله إلاّ في أوائل القرن العشرين أو منتصفه، ولم تصبح دولاً قوميةً إلاّ في مرحلةٍ متأخرةٍ. يبدو أن الثورة القومية التي قامت بها تركيا، وإيران في أوائل القرن نفسه، مكّنت كلاً منهما من أن تنشر بين شعبها شعوراً قومياً قوياً، وأن تتمتع الدولة فيهما باستقرارٍ ومناعةٍ أكثر من الكثير من الدول الإسلامية التي استقلت بعد الحرب العالمية الأولى أو الثانية. إذاً ليس من

---

(١) إيثان برونو، "العراق ودروس لبنان: لا تنسوا الرحم"، نيويورك تايمز، ٣٠ آذار/ مارس ٢٠٠٣.

المستغرب أن نرى تلك الدول تعاني من التدهور والهزات الشيء الكثير، إذ من شأن الدول الضعيفة، التي تتولى الحكمَ فيها قياداتٌ ضعيفة، أن تخلق مشاكل تؤدّي إلى نزاعات وعداواتٍ وأحقادٍ وفتن داخلية، وأخرى خارجية.

كانت المواجهات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، إبان الحرب الباردة، تحدث، في معظم الأحيان، من خلال وكلاء/ حلفاء، يدخلون في صراعاتٍ يشكّل ساحَتَها ما كان يُعرف بـ "العالم الثالث". يمكن القول إن أول معركة دارت رحاها في ظل الحرب الباردة كانت المواجهة الأمريكية- السوفييتية حول إيران وأذربيجان عام ١٩٤٦، عندما تولت الولايات المتحدة الدور الذي كانت تقوم به بريطانيا من قبل، لكبح جماح التوسع الروسي جنوباً باتجاه إيران. يرى بعضهم أن الولايات المتحدة استطاعت، بفضل العلاقات التي كانت لها مع بعض الدول الحليفة في العالم الإسلامي، أن تنتصر على الاتحاد السوفييتي وحلفائه من الدول الأخرى، وأن تعمل، إلى حدٍّ كبيرٍ، على وقف المد الشيوعي، والسيطرة على العالم. في حين يرى آخرون أن هزيمة الاتحاد السوفييتي في أفغانستان كانت الحدث المهم، والسبب الرئيسي الذي أدى إلى سقوط جدار برلين، وإلى الانهيار النهائي للاتحاد السوفييتي. مما تجب ملاحظته هو أن الدعم الذي كانت تقدمه الولايات المتحدة لحلفائها من الدول الإسلامية كان يشمل، أيضاً، المجاهدين في أرجاء العالم الإسلامي كافة. فعملت بذلك، من دون وعي منها، على تعزيز الحركات الإسلامية المتطرّفة، ولم تكن تتوقع أن دعمها لهم سيفضي إلى اشتداد ساعدهم، وإلى أن يقلبوا لها ظهر المجن، فتصبح حركتهم قوة مناهضة لها. ظهرت الحركة الإسلامية خلال عقد الثلاثينيات، وأخذت تتدرج في النمو إلى أن برزت على المسرح العالمي، بقوةٍ وجلاءٍ، عام ١٩٧٩، مع الثورة الشيعية الإيرانية. يجب أن نلاحظ، أيضاً، أنه بانهيار الاتحاد السوفييتي، واستقلال جمهورياته، ازداد عدد الدول التي

يشكّل المسلمون أغلبية سكانها، حيث انضافت كازخستان وقيرغستان وطاجكستان وتركمانستان وأزبكستان في آسيا الوسطى دولاً مستقلةً. هكذا حقق الإسلام الراديكالي، خلال عقد التسعينيات، نجاحاتٍ مهمةً في تلك البلدان، وتوغل نفوذ المسلمين في مجتمعاتها التي كانت قد قطعت أشواطاً كبيرةً في "العلمنة"، تحت حكم الشيوعيين السوفييت[1].

من بين العوامل الأساسية التي عملت، بقوةٍ، على نمو الإسلام الراديكالي، الذي بدأت مفاهيمه وتوجهاته تتبلور بصورة جدية مع قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، الصراعُ الإسرائيلي- العربي، والحربُ الإسرائيلية- الفلسطينية، وإن لم تكن قضية هذا الصراع، بدءاً، من بين القضايا التي تشكّل سبباً من أسباب المواجهة الأمريكية- السوفييتية. نشير إليها هنا فقط بوصفها كانت المصدر الرئيسي لتغذية الراديكالية الإسلامية، وتقوية عناصرها. نعتقد أن الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني لن يزيد سوى في تأليب أحقاد العالم الإسلامي، وستظل حدّته تتصاعد إلى أن يتم التوصل إلى حل قانوني يرتضيه الطرفان، يحقق لإسرائيل أمنها، ويمكّن الفلسطينيين من إقامة دولتهم الكاملة السيادة، وتكون بموجبه شؤون الأماكن المقدّسة، عند الأديان السماوية الثلاثة، تحت إدارةٍ ترضي جميع أصحابها، ومفتوحةً أمامهم جميعاً.

تولدت المنظمات الإسلامية المتطرفة عن تنظيم الإخوان المسلمين الذين ظهروا في مصر، خلال عقد الثلاثينيات من القرن الماضي، وعملوا على إنشاء المنظمتين الفلسطينيين، حماس والجهاد الإسلامي، وحزب الله في لبنان، ثم أسهموا، بعد ذلك، في تنظيم القاعدة بقيادة أسامة بن لادن.

لقد استطاعت هذه المنظمات الأصولية أن تقوي صفوفها، من بعض الوجوه، بفضل ما تقدمه من خدمات اجتماعية، ورعايةٍ طبية، ومحاربة الأمية، وتعليم

---

(١) سفانت إي. كورنل، "الولايات المتحدة تعيد رسم الخريطة"، مجلة الفورين سيرفس، مجلد ٨٠، رقن ٤، نيسان/ إبريل ٢٠٠٢، ص ٢٠.

دينيٌّ ليس للفقراء فقط، بل، أيضاً، للمجتمع ككل، حيث تسهر على تلقين عامة الجماهير، بمن فيهم العلمانيين، شؤون الدين وعلومه. هكذا تمكنت هذه المنظمات، بشكل متزايد، من استقطاب مختلف الطبقات التي أضحت تنظر إلى أعمالها ونشاطاتها كبديلٍ عن عجز حكومات بلدانها الفاشلة، وقصورها عن تقديم ما يجب من خدماتٍ لشعوبها. يستمد العداءُ الشديد الذي يكنّه الإسلام الراديكالي للغرب جذوَره من الشعور بالتهميش والإقصاء، ومن الغضب والحقد على حكومات بعض الدول الإسلامية المفلسة سياسياً، وأيضاً من الاعتقاد أن الغرب والولايات المتحدة، بصفة خاصة، ليسا عادلَين في معاملتهما للعالم الإسلامي، خصوصاً فيما يتعلق بالنزاع الفلسطيني- الإسرائيلي. ذاك، لسوء الحظ، ما ولد عند العدد الكبير من المسلمين الانطباع بأن الديمقراطية معادية للإسلام.

يرى جيل كيبل، أن انطلاقة الحركات الإسلامية الراديكالية المعاصرة جاءت كرد فعل للقرار الذي اتخذته مصر بإعدام المفكر الإسلامي سيد قطب، الذي رفض فكرة الدولة القومية، ودعا إلى تربية جيل جديد من حَفَظة القرآن[1]، كما يرى أن ما قامت به حركات فلسطينية إرهابية من أعمال العنف ولد عند الغربيين والأمريكيين الانطباع بأن الإسلام والإرهاب شيء واحد[2].

لقد تفوّقت الحركات الإسلامية الراديكالية، وظهرت بشكلٍ بارزٍ في أعقاب الحرب العربية - الإسرائيلية عام ١٩٧٣، وتزايد نشاطها مع الثورة الإيرانية التي توّجت عقد السبعينيات عام ١٩٧٩، وحملات الجهاد العسكرية التي توالت خلال عقد الثمانينات، تتصدّرها مواجهة الإسلاميين المتطرفين للقوات السوفييتية في

---

(١) يوسف إبراهيم، "وضع مسمار في وهم الديمقراطية في الشرق الأوسط"، واشنطن بوست، جزء أوتلوك، ٢٢ آذار/ مارس ٢٠٠٣، ص ٣.

(٢) انظر: روبن رايت، أكاديمي فرنسي، "المسجد والدولة"، وكذا مقاله "الثيوقراطية الإسلامية المتشددة بلغت مداها"، نيويورك تايمز بوك ريفيو، الأحد ٢٦ آيار/ مايو ٢٠٠٢، ص ١٠. يرجع رايت في هذه المقالة إلى مؤلّف جيل كيبل "الجهاد: مسار الإسلام السياسي"، كامبردج، مطبعة جامعة هارفارد، ٢٠٠٢.

أفغانستان، وقتال حزب الله إسرائيل في لبنان، واغتيال الإرهابيين المسلمين الرئيس أنور السادات في مصر. وكان من نتائج الانتفاضة الفلسطينية الأولى، عام ١٩٨٧، بروزُ حركتي حماس والجهاد الإسلامي بشكلٍ ملحوظٍ في القيادة الفلسطينية.

بعد الانتصار الذي حققه المجاهدون في أفغانستان، أخذ المقاتلون الأشداء الذين حنّكتهم المعارك، يتوجهون إلى بلدان أخرى للانخراط في صفوف الجهاد. وكانت أولى عمليات الأصوليين المسلمين لزرع القنابل ما قاموا به في مركز التجارة العالمي في نيوريورك، عام ١٩٩٣. توالت بعد ذلك أعمال العنف والتدمير، فشّنوا هجوماً على بعثة الاتصال الأمريكية في الرياض بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٩٥، وآخر على منازل العسكريين الأمريكيين في الخُبر بالمملكة نفسها عام ١٩٩٦، وهاجموا بالقنابل الموقوتة بعثتين دبلوماسيتين أمريكيتين في شرق أفريقيا عام ١٩٩٨، والباخرة الأمريكية "كول" في ميناء باليمن عام ٢٠٠٠، ثم هاجموا، من جديد، برجَيّ التجارة العالمية في مدينة نيويورك، والبنتاغون في واشنطن هجمةً مدمرةً عام ٢٠٠١. يرى كيبل أن الهزائم التي لحقت بالمجاهدين الإسلاميين في حركاتهم الجهادية، في كل من الجزائر والبوسنة ومصر، خلال عقد التسعينيات، رغم الخبرة التي اكتسبوها عبرها، تسجّل منعرجاً مهماً في انحسار حركاتهم، تجلّى بوضوح، بعد أن خفّت حماسة الثورة الشيعية في إيران. ويستخلص من ذلك أن زخم الجهاد، الذي اشتدّت حميته ما بين عامَيّ ١٩٩٥ و ١٩٩٧، أخذ يرنو إلى نهايته[١]، وأن هجمات المجاهدين على الولايات المتحدة لم تكن سوى محاولاتٍ استهدفت، بشكل أو بآخر، إعادة الحيوية إلى حركة آخذةٍ في التراجع[٢].

---

(١) فيليس إي. أوكلي، الفصل ٦، "الإرهاب الدولي: ماذا يمكن فعله؟"، انظر: كتاب ديفيد ل. بورن، وإدوارد ج. بيركنز، "الديمقراطية، الأخلاق والبحث عن السلام في السياسة الأمريكية الخارجية"، نورمان، مطبعة جامعة أوكلاهوما، ٢٠٠٢، ص ٦٣-٦٤.

(٢) روبن رايت، "المسجد والدولة"، ص ١٠.

خلاصة القول هي أننا إذا ما سلّمنا بأن تعاليم الإسلام تتوافق مع مبادئ الديمقراطية والسلام، وأن تاريخ العالم الإسلامي يثبت، فعلاً، أن الإمبراطوريات والبلدان الإسلامية كانت، على العموم، متسامحةً مع الآخرين ومسالمةً لهم، وعلى افتراض أن الحركات الإسلامية الراديكالية التي كانت تشكّل، خلال العقود الأخيرة من القرن الماضي خطراً ماحقاً، هي الآن في طريق الانحسار وفقدان التأييد، فإن ما يمكن أن نستشرفه هو أن العالم الإسلامي سيكون له مستقبل واعد. كل ما يحتاج إليه الأمر هو أن تعمل البلدان الإسلامية على جعل مجتمعاتها أكثر انفتاحاً، وأكثر ليبراليةً كيما يتمكّن جميع أفرادها من أن ينعموا، تدريجياً، بحياة أفضل، كما يحتاج ذلك إلى أن يجلس الإسرائيليون والفلسطينيون، معاً، إلى مائدة التفاوض بهدف التوصل إلى تسويةٍ دائمةٍ وشاملةٍ وعادلةٍ للصراع القائم بينهما.

للولايات المتحدة دور مهم للتقدم في تحقيق هذين الأمرين، وبلوغ الأهداف المأمولة. وبما أن مبادئ الإسلام وتعاليمه وقيمه تنسجم انسجاماً تاماً مع آفاق الديمقراطية والسلام العالمي، كما يبين ذلك الأمير الحسن، بوضوح وبأسلوبٍ مقنع، وبما أن تعصب الراديكاليين، كما يبدو، أخذ يستنفد مداه، فإن الظروف أضحت مناسبةً. علينا، نحن في أمريكا، أن نغتنم الفرصة، ونعمل، بحكمةٍ واتزان، على نشر الديمقراطية في العالم الإسلامي عن طريق استخدام إمكاناتنا وثرواتنا وقوتنا، وما لنا من نفوذٍ في تلك المنطقة. إنّ ذلك في مصلحَتنا جميعاً، وفي مصلحة العالم بأسره.

خاتمة

وماذا بعد رحلة الترجمة هاته التي سعدتُ خلالها بِعِشْرَةِ كتاب الأمير الحسن ابن طلال، القيم "أن تكون مسلماً: الإسلام، السلام والديمقراطية"، ليالي وأياماً طوال شهور، في جهودٍ متواصلةٍ لنقله لقراء اللغة العربية؟

أسمح لنفسي أن أسجل، من دون أيةً مزايدةٍ في التقييم، أو إسرافٍ في الإطراء، ما أعتقده من أن ما قدمه الأمير الحسن، من معلومات جمةٍ، وأفكارٍ وآراءٍ نيرةٍ، وما بدا لي من سامي مواقفه الحازمة، ونبل أخلاقه العظيمة، عبر أجوبته المختلفة عن أسئلة محاوره، وعروضه الثلاثة، وأن ما أطّر كلَّ ذلك من تعليقات وشهادات مفكرين في أبحاثهم القيمة، كما أثبتنا ذلك في تصدير هذا العمل، يشكّل سماداً غنياً وفاعلاً لإخصاب الفكر الإنساني في حقلٍ تربتُهُ الإسلامُ ومبادئه وتعاليمه وقيمه، وبذوره المعاملات والسلوكات المتخلقة، وثماره ما استهدفه الأمير الحسن من رغبةٍ في تحقيق النماء الإنساني والانتماء إلى مواطنةٍ إنسانيةٍ ذات كرامةٍ. وما أعتقد ذلك سوى زبدة ما خصه به الله من هبات، وحظاه من قدراتٍ وكفاءاتٍ تتميز بميسمها "الحسني" الفذ في كل أبعاده المشخصنة.

الأمير المرافع ذو الريادات الثلاث

لن يجرؤ هذا العمل على تقديم الأمير المفكر، فهو في غنيً عن ذلك، إذ فاقت شهرته الآفاق. لقد اقترن اسمه بذي الإمارتين، أو إن شئت قلت ذي الريادتين: ريادة الممارسة القيادية والتنظير السياسي، كونه أقرب المستشارين لأخيه المغفور له جلالة الملك الحسين، وولي عهده لسنواتٍ طوالٍ، وقيادياً ماهراً يحتل مكانةً متميزةً بين النخبة من القادة السياسيين في العالم، الذين لهم تأثير كبير في

توجيه مساراتها. أما الريادة الأخرى فهي ريادة الفكر والنضال المعرفي على شتى الجبهات، أداء لواجب الأمانة التي تحمّلها الإنسان كخليفة لله في الأرض، يدبّر شؤونها، ويسعى لتحقيق سعادة الكائنات البشرية فوقها. تلكم رهانات تشكّل الشبكة الفيلغرانية لطموحات الأمير الإنية، التي كانت المحفّز لشقّ المسالك التثقيفية والفكرية والنضالية المختلفة التي تخطو به إلى تحقيقها. أسمح لنفسي أن أسجل لسموّه إمارةً/ ريادةً ثالثة؛ إنها ريادة الخلق العظيم، وعلوّ الهمة والأنفة، والصمود بإباء في مجابهة أعسر المواقف، وأحدّها تأثيراً في النفس البشرية. لا ينال من شهامته أي متطاولٍ، مهما كان، ولا تزيده المفاجآت وما تبيته بعضُ صروف الدهر سوى قوة عزيمةٍ ورباطة جأشٍ، والسير قدماً على أوسع نطاق، في مسيرة "النماء والانتماء" التي اختط سموّه لها سبلاً متنوعةً في جهاده الفكري والقيادي المتعدد الأبعاد. لقد آمن الأمير الحسن برسالة المواطنة الحقة؛ مواطنة العروبة والإسلام، ومواطنة الإنسان في الكون، فلم يألُ جهداً لأدائها على أحسن وجه، بما يرضي ضميره الحي، ويرضي الخالق جل علاه. سلاحُهُ المثابرةُ والصبرُ وطولُ النَّفَس، والانضباطُ والثباتُ على المبدأ، والنبلُ في السلوك والمعاملات، واستشرافُ الآفاق بحكمةٍ وتبصّر ويقظة وحذر وإتقان، و"بعدٍ عن الإنشاء والاستعراض"، ورفض لكلّ وصايةٍ، وتلافٍ مزالق الفخفخة والأبهة، ووعي تامٍّ بصعوبة المسالك وخطورتها، والإيمان بـ "أننا لا نستطيع أن ننجز دون دموعٍ وسهرٍ وحمّى"[1]، وأن "لقيان المعالي ليس رخيصاً"، فكما يقول أبو الطيب المتنبي:

تريدين لقيان المعالي رخيصةً

ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل

---

(١) انظر: الحسن بن طلال، "ثلاث رسائل مفتوحة إلى الشباب العربي"، منتدى الفكر العربي، سلسلة كراسات المنتدى، الكراسة رقم ١، شباط/ فبراير ٢٠٠٥، عمان - الأردن، الرسالة الثالثة، ص ٢٣.

رافعات هذا السلاح الكرامة والشهامة، و"عزة النفس والتسامي عن السفاسف وما لا تستسيغه النفس الأبية والذوق السليم"، يغذيها التعقل والحكمة والإقدام على اتخاذ المواقف المشرفة، والرنو إلى العلا، ولو كلّف ذلك ما يراه أبو الطيب المتنبي في قوله:

فاطلب العزّ في لظى ودع الذلّ

ولو كان في جنانِ الخلودِ

لحمة العز الهمة العالية والعدالة والحق، وخيوطه اليقظة والانتفاضة ضد الظلم بحكنةٍ وشجاعةٍ.

لقد اجتمع في سموّه ما تفرق في غيره: الأنبل من السجايا، والأروع من الشمائل والقيم، والضلاعة في شتى المجالات المعرفية، والحنكة في الممارسة السياسية والدبلوماسية. يتسنم ذلك كله الإيثارُ وحب الآخر وتقديره، والاهتمام بالإنسان أينما كان، وإلى أيّ كان ينتمي، بعيداً عن كل عصبيةٍ قوميةٍ أو دينية.

إن إخلاص الأمير في الإيمان بالله، والامتثال لتعاليم دينه الإسلامي، وحرصه على الاقتداء بجده النبي محمد صلى الله عليه وسلم، واتبّاع سنته، والتأسي بخلقه، وجهاده في سبيل ما يحقق الخير للإنسانية، وسعيه إلى رصّ أسس الحوار الرصين والتفاهم بين أتباع الأديان السماوية، وسيادة السلام والأمن في العالم، إضافةً إلى آرائه السديدة ومواقفه الثابتة، وتعزيز أفعاله لأقواله، وانفتاحه على الآخر، ودوره القيادي في العديد من المبادرات الريادية، وإسهاماته الفذّة في الكثير من المؤتمرات واللقاءات والأنشطة الفكرية والثقافية والسياسية، القطرية والإقليمية والدولية، وخطبه وحواراته وكتاباته المتميزة باللباقة في الأداء، وبعد النظر في الرأي، والبلاغة في التعبير، كل ذلك يجلّي غيرته على الأمة العربية الإسلامية، وانشغاله

رافعات هذا السلاح الكرامة والشهامة، و"عزة النفس والتسامي عن السفاسف وما لا تستسيغه النفس الأبية والذوق السليم"، يغذيها التعقل والحكمة والإقدام على اتخاذ المواقف المشرفة، والرنو إلى العلا، ولو كلّف ذلك ما يراه أبو الطيب المتنبي في قوله:

فاطلب العزّ في لظى ودع الذلّ

ولو كان في جنانِ الخلودِ

لحمة العز الهمة العالية والعدالة والحق، وخيوطه اليقظة والانتفاضة ضد الظلم بحكنةٍ وشجاعةٍ.

لقد اجتمع في سموّه ما تفرق في غيره: الأنبل من السجايا، والأروع من الشمائل والقيم، والضلاعة في شتى المجالات المعرفية، والحنكة في الممارسة السياسية والدبلوماسية. يتسنم ذلك كله الإيثارُ وحب الآخر وتقديره، والاهتمام بالإنسان أينما كان، وإلى أيّ كان ينتمي، بعيداً عن كل عصبيةٍ قوميةٍ أو دينية.

إن إخلاص الأمير في الإيمان بالله، والامتثال لتعاليم دينه الإسلامي، وحرصه على الاقتداء بجده النبي محمد صلى الله عليه وسلم، واتبّاع سنته، والتأسي بخلقه، وجهاده في سبيل ما يحقق الخير للإنسانية، وسعيه إلى رصّ أسس الحوار الرصين والتفاهم بين أتباع الأديان السماوية، وسيادة السلام والأمن في العالم، إضافةً إلى آرائه السديدة ومواقفه الثابتة، وتعزيز أفعاله لأقواله، وانفتاحه على الآخر، ودوره القيادي في العديد من المبادرات الريادية، وإسهاماته الفذّة في الكثير من المؤتمرات واللقاءات والأنشطة الفكرية والثقافية والسياسية، القطرية والإقليمية والدولية، وخطبه وحواراته وكتاباته المتميزة باللباقة في الأداء، وبعد النظر في الرأي، والبلاغة في التعبير، كل ذلك يجلّي غيرته على الأمة العربية الإسلامية، وانشغاله

بقضايا الإنسان، ويشهد على بليغ حكمته، وما يتميز به من رصانة فكر ونبل خلقٍ، وما يمتاز به نهجه في الحياة من مصداقيةٍ، واستنارةٍ بنور القلب والبصيرة وتفاؤل الطبع والمزاج، ما بوّأه مكانةً ساميةً بين النخبة الوقورة في العالم، وجعله من أبزر قاداته في الكثير من المجالات. إنها شيم قلما تجتمع في ذي إمارة. ذاك ما يسمح لي أن أؤكد تميز سموّه بريادةٍ ثالثة ذات أطياف خلقيةٍ متناغمة، تشدّ عضده في مسالك الحياة الوعرة، وتهبه سلاحاً ربانياً فريداً يحالفه النصر والتوفيق في كل المواقف والأعمال.

الهموم العربية الإسلامية والإنسانية المؤرقة

تؤرق الأميرَ الحسن، الغيرةُ على الأوضاع المزرية التي تعاني منها الإنسانية، فما يلبث يجهد الفكر، ويسخّر مجموع الطاقات لأن يجد لها مخرجاً يعيد لها بصيصاً من الأمل في أن تحيا حياةً كريمةً تنتشلها من وحشية العنف والظلامية والضلال، وتزجّ بها في أنوار الوجود الآمن المطمئن. آمن سموّه بأن "كرامة الإنسان أمانة في عنق كل إنسانٍ"، وأن لا كرامة من دون حرية، فتجنّد ينافح عنها، وعن حرية الإنسان، ويدعو إلى الالتزام بـ "الحرية المسؤولة"، وأداء الواجبات قبل السؤال عن الحقوق، وإلى الانتفاضة ضد الظلم والحيف، إذ "لا حياة دون عدالة، ولا تنمية دون عدالة، ولا نماء أو انتماء دون عدالة"[1]، فالعدالة، أولاً وأخيراً، هي قاعدة الديمقراطية الحقة، وليست تلك التي يتبجّح بها بعضهم.

تسامت بالأمير إنسانيته الأصيلة عن أن ينضمّ إلى معسكر من يرفعون شعار: "وبعدي الطوفان"، فانقاد، ببراءته العفوية، وجبلّته الطاهرة، إلى رياض محبة الآخر، أخيه الإنسان، يسعد لسعادته، ويشقى لشقائه، وآثر مصالحه فكرّس حياته للدفاع عنها، رافعاً شعار أبي العلاء المعري[2]:

---

(١) المصدر السابق، الرسالة الأولى، ص ٩.

(٢) المصدر السابق، الرسالة الأولى، ص ٧.

ولـــو أني حـبـيـتُ الخـلـدَ فـــرداً

لمـــا أحـــبـــبـــتُ في الخـلـــدِ انـــفـــرادا

فـــلا هـطـلـتْ عـلـــيَ ولا بـأرضـــي

ســحـائـبُ لـيـس تـنـتـظـمُ الـبـلادا

إيمانه هذا جعله، في جميع الأعمال والنشاطات التي يمارسها، رسولَ محبةٍ وتضحية وتوعيةٍ، يستشرف المستقبل من تفحّص سجل تاريخ الإنسانية، وكبريات الأحداث التي عاشتها أمته العربية الإسلامية بما رفلت فيه من رقيٍّ حضاريٍّ، وازدهار العلوم والفنون والآداب ونظم الحكم، وما عكّر صفوها، في بعض الفترات، من انحراف وتدهور. فشكّل تفحصه لمختلف صور الماضي ومعطياته مجالاً للمقارنة بين الماضي وطبيعة الأحداث التي يعيشها عالم اليوم، والاستفادة من ذلك في اقتراح الوسائل الكفيلة بإعادة المجد لأمتنا الجريحة، وانتشال الإنسانية من جحيم الصراعات والحروب.

لقد خَبِر سموّه العالَمَ في تركيبته المعقدة على صعيد القيادات والحكومات والأمم والشعوب، فتجلّت له عقده وأمراضه التي لا تزال الإنسانيةُ –أقوياؤها ومستضعَفوها– يرزحون تحت نيرها، وتبيّن أسباب التردي الذي تنجبه تربة الأرض المخَصَّبَة بالأحقاد والمظالم والاستبدادات والإكراهات. خَبِر العالَمَ فوجده، كما يقول: "عالماً مأزوماً، ينوء بقائمة طويلة من الأحمال الثقال: فهنالك الحرمان، والفقر الروحي والوجداني والمادي. وهنالك الأمية: أمية الحروف وأمية الرقم وأمية الحاسوب، والبطالة، والجهالة، وصراع الجهالات. وهنالك العنف، ولغة الحديد والنار، والافتقار إلى حكم القانون والحريات المدنية، وتسييس العسكر، والفساد بشتى أنواعه ومظاهره. وهنالك الاعتداء على الحريات والكرامات،

وزعزعة الأمن الإنساني والتوازن البيئي، وتشويش الصحة النفسية، وتهميش فئات ومجتمعات بشرية بأكملها، والغربة والاغتراب، وما إلى ذلك من آفات تقزّم الروح والوجدان"[1]. استجابةً لضميره الحي وهو الأمين الواعي، ولخبرته الطويلة وهو الخبير المحنك، أطلق سموّه نداءً عالمياً منبهاً ومحذّراً من انعكاسات هذا الوضع، ومن مخاطر الإبادة والتقتيل، وداعياً إلى التآزر والحوار، والبحث عن الحلول القمينة بالقضاء على جذور الأزمة وفروعها.

آمن بأنها أمراض مزمنة، ولا أحد ينجو من تهديد طوفان واقع مر، يتجاذب الإنسانيةَ فيه طرفا معادلة لا ثالث لهما: "الخوف المتنامي ليس فقط من انجراف الإنسان مع تلك الآفات، ولا من (طواعين) العصر وحسْب (الإيدز وسارس وما إليهما)، وإنما أيضاً من المجهول، ومن تضاؤل الفرص والخيارات المتعلقة بالحاضر والمستقبل، على حدٍّ سواء، وحتى من مصادرة حق تقرير المصير"؛ و"الأمل" كله يكمن في القدرة على التغلّب على الصعاب، وتحقيق الهدف المنشود؛ سعادة الإنسان، "الجوهر والأساس والروح"، إذا نهجت الإنسانية المسالكَ القويمة، انطلاقاً من وعي كل فرد في المجتمع بمسؤوليته وإخلاصه في القيام بها، ومن الإيمان بأننا "كلنا راع ومسؤول: لا رقيب ولا حسيب إلا الضمير والوجدان، وأن سقفنا –سقف الجميع– الحرية المسؤولة، وعقدنا الاجتماعي دستور للواجبات والحقوق، ونحن مجتمعٌ واحدٌ وجسدٌ واحُد: كل عضو فيه ينهض بدوره في وئامٍ وتتامٍّ مع البقية، حتى يصبح الكلُّ أكبرَ من المجموع"[2].

مبادرات الإنقاذ: التأسيس والتأليف

نهج الأمير الحسن سبلاً متعددةً لإبلاغ آرائه السديدة وفكره الإصلاحي النيّر الذي يهدف إلى معالجة واقع هذا "العالم المأزوم". لقد اتّخذ مبادرات رائدةً

(١) المصدر السابق، الرسالة الأولى، ص ١٢-١٣.
(٢) المصدر السابق، الرسالة الثانية، ص ١٧.

تجسّدت في إنشاء عدد من المؤسسات والمنظمات واللجان المحلية والإقليمية والدولية، للإسهام الفاعل في أعمال النماء والرفه الإنساني، ورصّ أرضيةٍ للحوار من أجل سيادة التفاهم والتعايش السلمي، والحد من النزاعات والصراعات الماحقة. يكفي أن نذكّر هنا بتأسيسه، منذ ربع قرن، منتدى الفكر العربي بعمّان، الذي تشرّفت بالانتماء إليه، والانضمام إلى النخبة من أعضائه، منذ السنة الأولى لتأسيسه. نشير، أيضاً، إلى تأسيسه المؤتمرَ العالمي حول الأديان والسلام، وكلاهما يتشّرف برئاسته له، كما يتشّرف بها، منذ سنواتٍ، نادي روما، واللجنةُ الاستشارية لوضع سياسة منظمة الملكية الفكرية العالمية. ويتشرّف بتقاسمه رئاسته المجلس الاستشاري لمركز دراسات السلام في جامعة أوكلاهوما، واللجنة المختصة بقضايا القانون الإنساني الدولي. ونذكّر، أيضاً، بمشاركته في اتخاذ مبادرة تأسيس "هيئة شركاء في الإنسانية" بهدف تحسين الفهم، وتحقيق السلام العالمي، وبناء علاقات إيجابية بين العالم الإسلامي والولايات المتحدة، وإعلاء شأن الحوار بينهما، ومبادرة تأسيس "برلمان الثقافات" في تركيا كآلية من الآليات المثلى لإجراء حوارٍ مكثفٍ وعميقٍ بين الثقافات في إطار حضارةٍ عالميةٍ واحدةٍ، وغير ذلك كثير. لقد انطلق صوته، منذ عقود، صادحاً بما يؤمن به من آراءٍ ونظرياتٍ، من أعلى منابر المنتديات والمنظمات وصروح الجامعات عبر العالم، ولم يبخل بإجاباته الصريحة والقيمة على مستجوب في إذاعة وقناة فضائية تلفزية، وفي صحافةٍ مكتوبةٍ داخل الوطن العربي وخارجه، من دون تحيّز ولا إقصاء. إن هدفه سام ونبيل، يسلك أقوم المسالك لبلوغه بكل ما يليق بمقامه من حرمة واحترام. وينهل، فيما يقدمه من آراءٍ وأفكارٍ وحلولٍ لبعض القضايا، من القرآن الكريم، والسنّة، والأحاديث النبوية، وأحكام الشريعة الإسلامية، ومما لديه من معرفةٍ عميقةٍ، واطلاع كبيرٍ على مختلف العلوم والثقافات، وحكمةٍ بالغةٍ، ومنطق سديد، وكفاءاتٍ وقدراتٍ فكريةٍ متنوعةٍ،

وحنكة سياسيةٍ قويةٍ، وإيمانٍ بما للمعرفة والثقافة الواسعة من دور مهم في تنمية الموارد البشرية، وما للمنهجية المحكمة من فاعلية في طرح الإشكاليات بأعماقها المتفاوتة، واقتراح الحلول القمينة بأن تنقذ الإنسانية مما تعانيه من المآسي.

لقد كان لجمهور القراء، إضافةً إلى خطاباته في افتتاح مختلف الندوات واللقاءات والمؤتمرات الوطنية والإقليمية والدولية، واختتامها، حظ قراءة مقالاته وحواراته في عدد من الصحف والمجلات، وكذا قراءة الكثير من مؤلفاته في كثيرٍ من اللغات. يحضرني من بينها: "القدس.. دراسة قانونية" (باللغة الإنجليزية، صدر سنة ١٩٧٩)، و"حق الفلسطينيين في تقرير المصير" (باللغتين: العربية، والإنجليزية، صدر سنة ١٩٨١)، و"البحث عن الإسلام"، (باللغتين: العربية، والإنجليزية، صدر سنة ١٩٨٤)، و"المسيحية في العالم العربي" (باللغات: العربية، والإنجليزية، والفرنسية، واليونانية، والإسبانية، والروسية، والألمانية، صدر سنة ١٩٩٤). و"الاستمرارية والإبداع والتغيير" (مجموعة مقالات باللغة الإنجليزية، صدر سنة ٢٠٠١)، و"أن تكون مسلماً: الإسلام في متناول الجميع" (حوار أجراه معه الصحافي الفرنسي ألان إلكن، صدر سنة ٢٠٠١ باللغة الإيطالية، ثم صدر باللغات: الإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، ويسعد هذا الإصدار أن يكون باللغة العربية)، و"المسألة العراقية –في ذكرى رحيل فيصل الأول" (صدر سنة ٢٠٠٣)، و"سين وجيم.. قضايا معاصرة" (صدر سنة ٢٠٠٣)، و"ثلاث رسائل مفتوحة إلى الشباب العربي" (الكراسة ١، كراسات منتدى الفكر العربي –عمّان، صدر سنة ٢٠٠٥).

أساسيات الإصلاح العربي الإسلامي النابع من الذات - فلسطين والعراق

إن تأمّل عناوين هذه المؤلفات، وتسلسل تاريخ صدورها، يبين، بوضوح، عن مدى شدة اهتمام الأمير الحسن، بالقضيتين الفلسطينية والعراقية، وعن انشغاله

الكبير بقضايا السلام في الشرق الأوسط عموماً، وحرصه الفائق على تحقيق أسباب التعايش السلمي بين الأجناس والأديان والثقافات والأمم. لقد انغمر، قلباً وقالباً، روحاً وفكراً، في تدارس قضايا الإنسان المعاصر، وتحليل واقع عالم معقد ومتشابك، بمنهجيةٍ محكمةٍ، ورؤى واضحةٍ ومنضبطة. شغله الهم الفلسطيني منذ فتوته، وانضاف إليه الهمّ العراقي بعد النكبة الموجعة لشعبه الشقيق المعذب الذي يعاني أوحش المعاناة وأقساها، فكان ولا يزال لسانهما المعبر، وصوتهما الصادح المستصرخ الذي يستنهض الهمم. لننصت إلى خطابه للشباب: "الإنسان في كل جزء من إقليمنا المعذب يستصرخكم: الإنسان العراقي بصورةٍ خاصة، والإنسان الفلسطيني (...). أستحثكم على إغاثة إخوانكم المكلومين في فلسطين والعراق. جودوا بكل ما عندكم في سبيلهم حتى يتجاوزوا محنتهم"[1].

إن انتصار سموّه للعرب والعروبة، ورفضه البات لكل غالبٍ يترقب الفرصة لينقضّ على الفريسة التي يتربص لها، تحت ذرائع أوهن من بيت العنكبوت، يقوّي حرصه على تحفيز الشباب، ركيزة المجتمع وأوتاده، للخوض في معركة الإنماء والتنمية وغوث المعذبين: "ألم يحن الوقت للخروج من دائرة التأثر إلى دائرة التأثير؟ إلى الخروج من الشرنقة إلى الآفاق الشاسعة الرحبة؟ إلى إطلاق الطاقات الكامنة، فرديةً وجماعيةً؟ سنحرك الجبال إذا عزفنا معاً، وسنكون البلسم والنسيم للمعذبين والمسحوقين في فلسطين والعراق وسائر ديارنا. سنقاوم الغربة والاغتراب، وسنتصدى لكل التحديات صفاً مرصوصاً". لا بد من تجنيد جميع الطاقات والقدرات، وتحقيق طفرة نوعية وقفزة كمية "لمواجهةٍ جدية مع أنفسنا ومع كل ما يحدّ من نمائنا وانطلاقنا". يلزمنا أيضاً العمل ضمن برامج طموحة "بعيداً عن صناعة الإنشاء، وحبائل الكلام، وفتنة اللغة، لترتيب البيت الداخلي، بكل ما يعنيه ذلك من إعمار وإعادة إعمارٍ للأنفس والذهنيات قبل

(١) المصدر السابق، الرسالة الثانية، ص ١٤.

الماديات، وبناء مجتمع الكفاءة، مجتمع النزاهة والنباهة والعدالة، مجتمع الشفافية والنوعية والجودة، مجتمع المساءلة والمحاسبة المسؤولة، بلا واسطة أو محسوبية، للتنمية الشاملة المستدامة، مجتمع الكفاءة الذي يعلي من شأن المتفوقين والمنتجين، ويجذب الموهوبين والمتنورين حتى من المهجر، ويكبح من نزف الأدمغة، وهجرة العقول (...)، مجتمع دولة القانون والمؤسسات، يضع الشخص المناسب في الموقع المناسب، ويسهر على بناء رأس المال البشري بكل أبعاده ومضامينه"[1] يضيف سموّه، منبهاً إلى أن لا سبيل لقيام مجتمع كهذا إلا بإطلاق منبر عربيّ إسلاميٍّ للإصلاح، يركّز على دور الشباب في تنمية مجتمعاتهم وأمتهم، ويسلك نهجاً ينطلق من العمل الذي بدأه الرواد الأوائل، مستأنفاً من حيث انتهوا، نهج الأغلبية العاقلة التي تعمل على إبراز الهوية الوسطية للأمة، وتعبٌّ من تجارب سائر الأمم وحكمها، من دون تعقد أو تعقيد. أليست الحكمة، كما قال رسول صلى الله عليه وسلم، "ضالة المؤمن، التقطها حيثما وجدها"؟

إن سناريوهات بناء المستقبل، كما يرى الأمير المفكر، متعددة. ومتى صحّ العزم على مباشرة العمل بمنهجية واضحةٍ كان الفلاح حليفاً للعاملين، فما على المرء سوى أن يشقّ الطريق بطول أناةٍ، وحسن بصيرة ومنهجية تعتمد الإصلاحَ النابع من الذات العربية الإسلامية، لا الإصلاح الذي يبتغيه لنا الآخرون. "لا إصلاح إلا ما نريده نحن وكما يناسبنا، ولا سبيل لقبول ما يفرضه أي كان علينا، باسم إصلاح إدارتنا وشؤوننا ومساعدتنا على التطور والنماء، وإقامة دولة القانون ونشر الديمقراطية"، فيتسلل عبر مختلف الطرق والبرامج لإجرائه، حسب رُؤاه، على أمتنا تحت تلكم المظلات المتنوعة أشكالها، المختلفة ألوانها، والتي تفضي جميعها إلى أن تجعلنا نتفيأ ظلاله الاصطناعية التي يسخّرنا في فيئها لمصالحه الخاصة. إنها ذرائع تتخذ مسميات وشعاراتٍ ظاهرها فيه الرحمة والديمقراطية والعدالة،

(١) المصدر السابق، الرسالة الثانية، ص ١٧، ١٨، ٢١.

وباطنها من قبله الاستغلال والهيمنة والاستبعاد والإقصاء والتهميش المطلق، والتمركز على الذات الأحادية المسيطرة.

أين قياداتنا من تبين تلكم الخلفيات المبيتة؟ أين الفكر العربي النيّر لتدارك هذه الأوضاع المزرية؟ أين السيادة والقيادة الحكيمة للقبض على زمام الأمور؟ طوبى لمن وهبهم الله قلوباً يفقهون بها، وأعيناً يبصرون بها، وأحاسيس يستشعرون بها مآل أمتهم. إنهم المؤمنون الراسخون في عقيدتهم، الوطنيون المخلصون لأوطانهم، المفكرون الواعون لمسؤولياتهم، القادة الحق المقدّرون للأمانة التي يتحملونها، المكرمون المستحقون لإنسانيتهم. إنهم، بكلمة واحدة، نبراس الأمة ومنقذوها، وحراس دينها وقيمها، وخدام مآربها ومصالحها.

لمنهجية الإصلاح العربي الإسلامي، في نظر الأمير الحسن، أساسيات لا بد من اعتمادها، يتصدرها:

- إنشاء كل قطر من أقطارنا العربية قاعدة معلوماتية دقيقة تُحَدَّث وتُكَمَّل باستمرار، ينتظم عقدها في شبكة عبر قطرية مترامية الآفاق، عميقة الرؤية والتشبيك لترشيد الوقت والجهد والطاقة.

- إعادة تعريف بعض المفاهيم الأساسية كالتعلم والتعليم، ومجتمع المعرفة، والإعلام، والصحة، والثقافة، وحتى الأخلاقيات بما فيها الأخلاقيات الحيوية، طبقاً لما يقتضيه المنهج العلمي، والنهج التحليلي، والتفكير النقدي.

- مواجهة التحديات الجسام: الفقر، الحرمان، البطالة، الأمية، الفساد، تردّي الأوضاع الصحية، تراجع عمليات الإنماء والتنمية، تزايد هجرة الطبقة المتوسطة، تفاقم الاستبداد وتوغّل التطرف...

- الرنو إلى الذرى، والوقوف وقفة شموخ وعزٍّ وإباءٍ وكرامةٍ وهمّةٍ عاليةٍ، وشجاعة، ومناصرة الحق والعدالة، ومحاربة الظلم والطغيان.

- التسلح بثقافة الصبر وطول النَّفَس وثقافة الإتقان، بعيداً عن الإنشاء والاستعراض.

- استنهاض الهمم، والتحفيز على مناصرة إخواننا المنكوبين، الفلسطينيين والعراقيين.

- تحقيق التنمية الشاملة والمستدامة، بالمفهوم الكلي الذي تتداخل فيه أبعاد الحياة الإنسانية، بما فيها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بشكل يتحقّق معه "الإبداع والتجديد في الإنتاج والتفكير، وفي المأسسة وإرساء المؤسسات، وفي المشاركة الشعبية الواسعة عن طريق هذه المؤسسات".

- تفعيل الاجتهاد، كأصل من أصول التشريع الإسلامي، واستيعاب أصوله وقواعده ومراميه في التعامل مع مستجدات العصر.

- التقريب بين المذاهب الإسلامية لجمع شتات الأمة.

- نشدان التقدم والإصلاح والتنوير والتثوير على مختلف الأصعدة.

- إغناء ثقافتنا، والقفز بها من ثقافة البقاء إلى ثقافة المشاركة والعطاء.

- نهج مسلك الوسطية والاعتدال العقلاني الراشد، والنأي عن التطرّف.

إن الأمير المفكر، والإنسان الغيور، لَيألم لآلام الإنسانية مما تعانيه، عبر ربوع العالم، من أوضاع مستفحلة في الخطورة، متأججة بالتطاحنات والأحقاد والهجومات، والغزو والاستبداد وانتهاك حقوق الدول والشعوب في تقرير مصيرها والتمتع بسيادتها، وأيضاً بما أفرزته نمطية العولمة الماحقة لكل الخصوصيات من رد فعلٍ، وتياراتٍ مضادةٍ تدافع عن مختلف الهويات، انبثق عنها فجر عدد من الإثنيات واللغات والتقاليد التي ظلت مهمشةً أزماناً طويلةً، حوّل مجريات الأمور في العالم، وأثر تأثيراً سلبياً في واقع النظم السياسية المحلية والإقليمية والدولية،

بما زرعه من أحقادٍ وعنصرية، وأثاره من صراعاتٍ وتطاحنات. فأضحى الأمر يسير على عقبيه، بدلاً من الاستفادة من التنوع وخصوبته شكّلت سياسة الإبادة النهج الوحيد الذي تسلكه مختلف الأطراف. ناهيك عما يُمارسَ باسم الإسلام من أعمال العنف والتفجيرات الانتحارية، وانتهاك للحرمات، وقتل للأبرياء، وتخريب للبيوتات، وتدمير للهياكل والمنشآت، والإسلام من كل تلك الأعمال الوحشية براء. لقد غاب عن ممارسيها أنهم يجنون على هذا الدين، ويفسحون المجال لأن يرميه الآخرون بكل التهم، ولأن يصبح، في منظورهم، رديفَ الإرهاب، والمسلمون جميعُهم إرهابيين. إن الجهل المركّب، الذي تعانى منه جميع الأطراف، يفضي إلى المشادات، والتباري في استنفاد مختلف أشكال العنف، والتسابق إلى استخدام أقوى الوسائل للقضاء على الآخر.

إن وعي الأمير الحسن، بهذا الواقع المأزوم، وغيرته على الإسلام والمسلمين، وعلى الإنسان بصفة عامة، قاده إلى الإبحار في أمواج الفكر بحثاً عن أوضح المسالك وأنجعها لانتشال الإنسانية التي أصبحت وكأنما أصيبت بمسّ جراء ما تتخبط فيه من مآسٍ. ما كان لضميره الحي أن يتغافل عن القيام بدوره في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وذلك أولاً لامتيازاته، ولما يشعر به، كونه سلسلَ الدوحة النبوية الشريفة، أكثر من غيره، من مسؤولياتٍ بقدر ما تتشرف به، هي كذلك تشريفٌ له وتكليفٌ. وثانياً، لتضلّعه في فهم القرآن الكريم، ومعرفته العميقة بالعلوم الدينية والفقه وأحكام الشريعة الإسلامية، واطّلاعه الواسع على التوراة والإنجيل. وثالثاً، لحيازته قصب السبق في الريادات الثلاث، كما أشرنا إلى ذلك من قبل. كل هذا حمّله الأمانة العظمى، وجعله، عن جدارةٍ وبكامل الاستحقاق، يتبوأ المكان الأسمى للمرافعة من أجل الإسلام والمسلمين والإنسانية جمعاء، في جلسات الدفاع العلني على الصعيد العالمي، ومكّنه من أدائها بكامل التوفيق والسداد. لقد تبين سموّه أن

الوضع يدعو إلى اليقظة والحذر والعمل، بكل استعجال، على تطوير مناهج البحث لضبط العوامل الفاعلة في موجات الكوارث المتتالية التي دخلت حلبة سباق العالم المتغير بسرعة مذهلة، وانضافت إلى مشهد تقلباته الصاخبة، بهدف التمكّن من تهدئتها، وخلق أجواء آمنة للتعايش السلمي يقبل بالتعددية والتنوع والاختلاف، ويحرص على تحقيق مصالح الجميع ضمن الوحدة الإنسانية، والتفاعل بشكلٍ إيجابيٍّ مع واقع العولمة، وجهنمية التحولات التي تجرفها.

الظاهرة الدينية وتأثيرها في نظام الكون

إن إيمان الأمير الحسن بما للظاهرة الدينية من تأثيرٍ في سيرورة نظام الكون، وتحديد نوعية العلاقات بين الأمم والشعوب، بطريق مباشرة أو من خلال أيديولوجياتٍ فكريةٍ وسياسيةٍ مختلفة، كتأثيرها، مثلاً، في صراع الشرق والغرب، جعل الهم الديني، بمختلف تمظهراته، دائم الحضور في الكثير من نشاطاته الفكرية والإنمائية وحواراته وخطبه، عدا ما يفرد له من محاور ندوات ومؤتمرات تتدارس عوامل الصراع المحتدّ في عالمنا اليوم، كتدارس الدورة السابعة للمؤتمر العالمي حول الأديان والسلام التي عقدها مؤخراً في عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية، لقضايا "العمل الكوني من أجل عيش مشترك، ودور الأديان في الألفية القادمة"، بمشاركة أكثر من خمسة عشر ديناً وتراثاً روحياً تتوزع عبر ثلاثة أرباع العالم. إنه لا يألو جهداً في انتقاء ما يتميز بالراهنية من المواضيع، والحرص على أن يناقشها مفكرون ومختصون ذوو مشارب فكرية متنوعة، ويحللوا محاورها بحرية وموضوعية.

ما ينفك هذا الإيمان يتجلى في نشاطات سموّه الفكرية المتنوعة، وإسهاماته القيمة في رسم مسار المنظمات الدينية في عقود الألفية الثالثة، والسهر على تفعيل واقع الترابط بين الدين والسلام، وإبراز مزاياه، والسعي إلى التركيز على القيم

الدينية والأخلاقية المشتركة لوضع "مصفوفة مبادئ" قيميةٍ عالمية، تتوخى تعزيز نظام عالمي جديد يعطي الإنسانية، التي تقف في مستهل هذا القرن الجديد في شرفةٍ زمنية خطيرة وحاسمة، بصيصَ أمل في سيادة السلم والأمن والاستقرار، وخلق عوامل التضامن والتعاون والشراكة لمواجهة الفقر وتدهور البيئة والتخلف والأوبئة والأمراض والتطاحنات والأحقاد التي تهز أركان العالم، ويذهب ضحيتها الأبرياء من الأفراد والجماعات والدول الضعيفة الهشّة.

إن الآمال التي يعقدها سموّه على تفعيل دور الأديان في سيادة السلام، على الصعيد المحلي والإقليمي والكوني، تتبلور نداءات متكررةً تدعو للعمل على تطوير التعاون بين أصحابها، إيماناً منه بقدرتهم على رصّ أرضية للقيم الأخلاقية المشتركة، واتخاذها سلاحاً ضد مختلف التحديات المادية والروحية، ومرتكزاً لتحقيق مستقبل أفضل للإنسانية جمعاء. إنها مسؤولية يتقاسمها الجميع، ويلقيها سموّه، بصفةٍ خاصةٍ، على عاتق العلماء والفقهاء المسلمين، ورجال الدين اليهود والمسيحيين، وعلى كاهل أقطاب الفكر والعلم والثقافة في العالم. يطالبهم بالتفاعل مع مستجدات العصر، وتفهّم مستلزمات التطور، وممارسة مسؤولياتهم بالموازاة مع ما تبذله الأجهزة الرسمية في المجتمع الدولي من جهودٍ لإقامة العدل، واستتباب الأمن والسلم في العالم. كما يحمّلهم مهمة الحرص على تلقين الأجيال الصاعدة مبادئ القيم الدينية السامية، التي تحث على التحلّي بروح التسامح، وتدعو إلى التعاون على ما فيه خير البشرية جمعاء، والتعامل بمرونةٍ مع الآخر، والانفتاح عليه.

رافعات معقل النجاة: الأخلاق، الفكر، الثقافة والحوار

لا وسيلة لحفظ كرامة الإنسان وتبويئه المكانة التي أرادها الله له، وتحقيق التنمية الشاملة والمستدامة والاندماج، بانسجامية وتناسقٍ في ركب حضارةٍ إنسانية

حقيقية، إلا باعتماد "رافعة الفكر والثقافة"، والتوصل إلى خطابٍ مشترك، وأرضية مفاهيم، وقيم سامية واحدةٍ، ضمن إطار حضاري يسع الاختلاف. إن الفكر والثقافة، كما يقول الأمير حسن: "يشكّلان المعقل الأخير في هذه الأوقات العصيبة الصعبة"(١)، فلا منجى للإنسانية إلا بنهج مسلك ثقافة الاستدامة، التي ترتكز على "مصفوفة من القيم والعادات وأساليب المعيشة التي تَعُدُّ الإنسانَ محور التنمية الشاملة وهدفها، والتي تعنى بمستقبل بيئته وكوكبه، وبالتفاعل الاجتماعي الإيجابي ليس من أجل بقاء البشرية فحسب، وإنما أيضاً سعياً وراء ثقافة المشاركة"(٢).

إن توسيع مساحة الثقافة عند الأفراد والجماعات والأمم، واطّلاع بعضهم على ثقافة بعضهم الآخر ودينه ومبادئه الفكرية، ونمط حياته وتقاليده، وترويضهم على مناهج الفكر النقدي البنّاء، وإصلاح ذواتهم، وتنشئتهم على ثقافة حقوق الإنسان، وقيم التسامح والإيثار وحب الآخر، وتوظيف المشترك من القيم الأخلاقية، والتعايش الحضاري المسالم بين مختلف الثقافات والأجناس والمعتقدات، كل ذلك يمكّن من فتح آفاق شاسعةٍ للمشاركة في العمليات الإنمائية الإيجابية، والعمل على سيادة ثقافة الحوار في مفهومه الدقيق الواضح، الحوار الجدّي العقلاني القائم على النيّة الخالصة، والكلمة الصادقة، والرأي الحر، والصدر الرحب الذي يسع الآخر، والمصداقية في القول والممارسة، والتخطيط والتنفيذ، والنزاهة في إصدار الأحكام، والشجاعة والحياد في اتخاذ المواقف، والحرص على الالتزام بالتعهدات والأوفاق. إن حواراً، بهذا المفهوم، بين الأديان والثقافات والحضارات يُعدّ من أقوى مرتكزات تفعيل إشاعة السلام والتعايش الحضاري وأهمها، ودرء النزاعات

---

(١) انظر: الخطاب الذي ألقاه صاحب السمو الملكي الأمير الحسن بن طلال في اختتام أعمال الندوة الفكرية السنوية لمنتدى الفكر العربي "الوسطية بين النظرية والتطبيق"، المنامة –البحرين، أيام ٢٦–٢٨ شباط/ فبراير ٢٠٠٥، مجلة "المنتدى" عدد ممتاز ٢٢١، ص ١٩، آذار/ مارس ٢٠٠٥.

(٢) انظر: "ثلاث رسائل مفتوحة إلى الشباب العربي"، الرسالة الثانية، ص ١٩.

الطائفية والعرقية القائمة بين مختلف الثقافات والأجناس والمعتقدات، عبر ربوع العالم.

من هنا يأتي سهرُ الأمير الدؤوبُ على تفعيل أنشطة المنتديات والمنظمات المحلية والإقليمية والدولية، التي أخذ مبادرة تأسيسها، أو المشاركة في ذلك، وحرصه على تدارس القضايا الراهنة، التي تلامس أمنَ الشعوب والدول، والمعضلات التي تعصف بالإنسانية، من تطرّف، وعصبيةٍ طائفيةٍ، وعنصرية عرقية ودينية وقوميةٍ، وأيضاً الحرص على انتقاء المفاهيم، والبرامج الإجرائية التي تحقّق التواصل بين الأديان والثقافات والحضارات. لا يفارقه هاجس خلق فضاء للحوار الجاد، الذي يلتزم بمنظومة قيم أخلاقيةٍ مشتركة، وتهيئة الظروف الملائمة لإقامة جسور متينة بين الهيئات الدينية والأكاديمية المفكّرة، وبين القيادات السياسية بمختلف الدول، والمنظمات الأممية التي تدير شؤون الشعوب والأمم. لا ينفك سموّه، في كل مناسبةٍ، يذكرهم بما يجب عليهم، إضافةً إلى دورهم الأساسي في تفعيل دواليب الحوار الإيجابي المخصب، من النظر، باستعجال، في مأساة الإنسان، والعمل يداً في يد على إنقاذه من سيول الحروب الطاحنة، وطوفان الهجومات الانتحارية الوحشية. لقد شكّلت الدعوة إلى احترام الآخر، والتحاور معه، المنطلقَ لجهاد سموّه الفكري والسياسي، والحمولة الدافعة لانشغالاته بالقضايا الإنسانية. وكما يؤكد، يظل الحوارُ الرافعةَ القوية لانتشال الإنسانية من الوضع المأزوم الذي يحاصرها، بما يسعى إليه من تقارب بين المتحاورين، ويفتحه من آفاق للتعايش السلمي بين أصحاب مختلف الأديان والثقافات، ويوفره من عناصر التكامل والوحدة الإنسانية المراعية للتنوع والاختلاف، والتغلب على سلبيات العولمة وشبحها المخيف، والاستفادة من معطياتها الإيجابية، وتحقيق الأمن والنماء والرفاهية للجميع. إن الحوار الجادّ، والتلاقح بين الثقافات والحضارات والأمم، شرطان أساسيان لخلق الأجواء الضامنة للاستقرار الدائم والأمن المنشود، وفتح الآفاق الشاسعة للكلمة

الصادقة، والرأي الحر، وإخصاب الفكر، والسمو بالإنسان إلى ما يستحقه من تكريم، كما أراده الله له.

من هنا جاء سعي الأمير الحسن للانفتاح على الآخر، وطَرْقِ باب تبادل الرأي معه، ومجادلته بالتي هي أحسن، فكان لرؤاه الشخصية، وكتاباته الرصينة، ودوره القيادي، على امتداد ربع قرن، لتعزيز التفاهم بين الدول والأمم، أثرٌ كبير في إرساء قواعد راسخةٍ للحوار الرصين بين الأديان والأجناس والأمم، والالتزام بقضايا حقوق الإنسان.

كما إن تطلعه الدائم إلى الرفع من الشأن الإسلامي، في تفاعله مع الحضارة الغربية، وإلى ضبط الوسائل التي تمكّن الإنسانية من بلوغ أهدافها الرامية إلى تحقيق الرقي الحضاري، والتنمية المستدامة للبشرية جمعاء، طبقاً لما تسعى إليه رسالة الإسلام، جعله يرفع، من دون كلل ولا ملل، راية الحوار، والدعوة إلى التفاعل مع المحيط الخارجي، والتحولات التي يعيشها عالم اليوم، تفاعلاً إيجابياً يستثمر معطيات تكنولوجيا الإعلام والاتصال، وما تعرفه المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة من تطورٍ. إن سموّه، لا يزال يبذل الجهود الكبيرة والقيمة، عبر نشاطاته المختلفة، لدعم الحوار كمنهجية للتفاهم، والقبول بالتعددية والاختلاف، والاستفادة من عطاءاتهما في التعامل مع أنماط السلوكات الحيوية للشعوب والأمم والطوائف والأقليات، وثقافاتها وأعرافها وتقاليدها، ومع ما يجري في العالم من تحولات سريعة.

الأمير الحسن عميد سفراء السلام في العالم

خلفيةُ مختلف نشاطات سموّه المتألقة، وجهوده المتواصلة تلك في الكثير من المجالات، خصوصاً منها الحوارية، هي الرغبةُ في تحقيق سعادة الإنسان أنّى كان عبر ربوع العالم، وانتشالُ الإنسانية من الأزمات الخانقة التي تعاني منها، بروح

متخلقة ساميةٍ، وتوق إلى أداء رسالة الإسلام التي تشكّل، في أعماقها وأبعادها، رسالة السلام، والدعوة إلى التعايش بين معتنقيه وغيرهم ممن لا يدينون به، أفراداً وجماعاتٍ، شعوباً وقبائل وأمماً، على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم ولغاتهم وثقافاتهم، تعايشاً سلمياً في ديمومة تتخطى عثرات الزمان. ذاك ما تشهد له به نضالاته المثالية، وتؤكده شهادات العديد من القيادات السامية العربية والأجنبية، التي تتوّجها شهادةُ أخيه جلالة الملك المعظم حمد بن عيسى آل خليفة، ملك البحرين، في سموّه، حفظهما الله، اعتزازاً بفكره وبما يبذله من جهودٍ متميزةٍ في التعريف بالإسلام، والدفاع عن أمته العربية والإسلامية، وعن حقوق كل إنسانٍ وتطلعاته، يقول:

"وقد كان لنا مع رئيس منتدى الفكر العربي وراعيه، سموّ الأمير الأخ الحسن ابن طلال، مشاركات مبكرة نعتز بها في تأسيسه، ومتابعة أنشطته وإسهاماته التي تمثل اليوم معالم بارزة، ومراجع لا غنى عنها، من أجل الإصلاح والتنمية العربية الشاملة، والتأسيس الفكري الرصين والمسؤول الذي نعدّه من الأسس المهمة في تجنيب أمتنا العربية والإسلامية مخاطَر الفكر المتشدد المنحرف، وما يجرّه إليها من تعصبٍ وعنفٍ هما أبعد ما يكونان عن جوهر قيمنا الإسلامية السمحة، وما للأمة من تراثٍ حضاريٍّ منفتح، قوامه احترام الإنسان وحقوقه وتطّلعاته الراقية، وذلك عن طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، كما يوجّهنا القرآن الكريم"[1].

هذا التميز في فكره الفذ ومسار حياته المديدة والمباركة بإذن الله، يتجلى في خطبه وحواراته والعديد من مؤلفاته. لعل ذلكم هو ما قاد محاوره ألان إلكن، إلى

---

(١) من كلمة جلالته في افتتاح ندوة "الوسطية بين التنظير والتطبيق" التي عقدها منتدى الفكر العربي بالمنامة –البحرين، برعاية جلالته السامية. وقد انتدب جلالتُه لإلقائها، الشيخَ خالد بن أحمد آل خليفة، وزير الديوان الملكي، انظر: مجلة "المنتدى" التي يصدرها منتدى الفكر العربي بعمّان، عدد ممتاز ٢٢١، آذار/ مارس ٢٠٠٥، ص ١٦.

أن يغتنم فرصة حواره معه، فيوجّه إليه سؤاله الأخير، الثامن والأربعين. أعتقده يحسبه من قبيل تحصيل حاصل، فيستفسره قائلاً: "هل يصعب عليكم، يا صاحب السموّ، أن تكونوا سفيراً للسلام في عالم اليوم؟"، كما أشرنا إلى ذلك في تصدير هذه الترجمة.

شخصياً، لا يراودني أي شك في أنه استفسار تأكيدي للمهمة التي يمارسها سموه عملياً، منذ ما يزيد على ربع قرن من الزمان. إن فلاحه في أدائها، على عظم جسامتها، وتفوقه في قطع خطوات مهمة لتحقيق هذا المشروع الإنساني السامي لم يكن لَيتحقق لولا هبات الخالق المتعددة التي منّ عليه بها، وكفاءة سموّه العالية التي تبدت بقوة في جوابه عن هذا السؤال. إن الموازين الدقيقة التي وزن بها حجم المهمة وأبعادها، ووعيه بصعوبة مسالكها في عالم أحادي القطيبة لا يفلح في السير في كوكبته سوى من له القدرة، كما يقول سموه، على "إرهاف السمع، وتتبع مجريات الأحداث، والتوغل في فهم ميكانيزمات التوترات التي تتجاذب أطرافه"، والتسلح بمنهجيةٍ عقلانيةٍ رصينةٍ لتحليل الوقائع، واستنطاق المجهول، واستشراف طبيعة الغد -غد الإنسانية-، وانتقاء الوسائل التي تمكّنها من الخروج من الشرنقة الماحقة إلى الآفاق الفسيحة الواعدة، هذا الوعي هو ما يقوّي إيمانه بأن الحوار هو المنهج الناجع، والطريق الأقوم لسيادة السلم، وتحقيق الاستقرار عبر ربوع العالم، الأمر الذي يتجسّد في حرصه على عقد لقاءاتٍ ومؤتمراتٍ لإجراء حواراتٍ متواصلةٍ بين عدد من المفكرين وكبار المسؤولين من معتنقي الأديان التوحيدية الثلاثة، وغيرها من الديانات الأخرى لاستخلاص مبادئ قيم وقواعد السلوك الأخلاقي التي يتقاسمها الجميع، واتخاذها "مصفوفة مبادئ" مشتركة لضمان "التعايش السلمي بين بني الإنسان، تعايشاً يقوم على احترام الذات، واحترام الآخر والاعتراف به، وإقامة جسور للتواصل والتفاهم بدلاً من حفر خنادق للكيد والتطاحن". إن ما

يبذله سموّه، من جهود في هذا النهج السديد، وفي كل المبادرات التي يتخذها، والتنظيمات والمؤسسات والمنتديات التي يترأسها، ويحرص على تفعيل نشاطاتها في مختلف أنحاء العالم، مما أشرنا إليه سابقاً، يؤكد، بشهادة عدد من كبار قادة العالم ومفكريه، أنه، على حد تعبير الفلاسفة، بِـ "القوة والفعل"، سفيرُ السلام في العالم، وعلى رأسهم أولئك العظماء الذين أبوا إلا أن يسجلوا شهاداتهم على سفارته هاته، في ثنايا هذا الكتاب، الأمر الذي يبوِّئه، عن جدارةٍ، مقعدَ عميد سفرائه.

رسالة سلام إنسانية سامية: واجب التبليغ

إن شعور الأمير الحسن بالمسؤولية، الذي يتوارثه المنتمون إلى آل البيت، تجاه الإنسانية جمعاء ومصالحها، وإيمانه بنبل الرسالة التي يتحملها، يجعله يتجنّد لأدائها بإخلاص، ويصمد في جهاده على شتى الجبهات. وما أعتقد أن كتابه هذا الذي تشرفت بترجمته سوى أحد أوجه وسائل التبليغ، بل لعله يمثل قمة مظاهره، إذ يعدّ، في حد ذاته، رسالة سلام إلى العالم. وإذ أجدني أعود إلى الحديث عنه، بعدما جاء في تصديري لهذا العمل، فلكي أؤكد يقيني بأنه، إضافة إلى ما حققه من أهدافٍ، سيحقق أخرى بعيدةً ومهمةً جداً في درب مسيرة السلام العالمي. إن حرص سموّه، كعادته في أنشطته الفكرية المختلفة التي يمارسها، وانشغالاته الساهرة على التقريب بين المذاهب الإسلامية، والتوفيق بين المسلمين، وفيما يبذله من جهود للتعريف بالإسلام الصحيح، وضبط عوامل التطرّف الديني، وكذا سعيه الدؤوب إلى استحضار طبيعة الإسلام المرنة، وتعاليمه السامية التي تدعو المسلمين إلى التحلّي بقيمه الأخلاقية السمحة، وإلى التعايش السلمي مع الآخر، واحترام الإنسان وكرامته، كل ذلك سَيُعَرِّف بحقيقة الإسلام، ويفسح المجال لغير المسلمين للتعرّف على جوهره وسعة آفاقه وتسامحه واعتداله ووسطيته، ويجلي خطأ

ومغالطات المتطرّفين، ممارسي الأعمال الإرهابية الوحشية باسمه. كما سيعمل على دفع القيادات السياسية والفكرية، في الغرب وأمريكا، والجماهير الكبيرة من شعوبهم إلى مراجعة مواقفهم منه، والاعتراف بجهلهم لحقيقته، وتقصيرهم في حق المسلمين، وظلمهم لهم، والوعي بضرورة بذلهم الجهد للتعرّف على الإسلام، والحكم على معتنقيه من خلال ما اطّلعوا عليه من مبادئه وتعاليمه وقيمه، لا من خلال ممارسات المتطرّفين الوحشية اللاإنسانية. متى تم ذلك تغيّرت النظرة الخاطئة إلى الإسلام وانمحت، بشكل تلقائيٍّ، جلّ عوامل التحاقد والإرهاب، وتوقفت دوامة العنف والعنف المضاد، وعمّ العالَمَ السلمُ والأمن والوئام، وغيرُ ذلك من القيم الأخلاقية التي تدعو إليها جميع الأديان، وتنشدها المواثيق الدولية المختلفة. هكذا يبدو لي، شخصياً، وعلى عكس ما يراه جي كور، الذي لا يودّ أن يُحَمِّلَ الكتاب أكثر مما استهدفه، أي التعريف بجوهر الإسلام، إذ يقول عنه في تصديره، إنه "لا يعتزم الإدارة الصحيحة للحرب ضد الإرهاب"، يبدو لي أن قراءة ما بين سطور الكتاب، واستنطاق آفاق المسكوت عنه فيه، يؤكد أنه، حقاً، وصفةً علاجيةً ناجعة، لا "لإدارة صحيحة للحرب ضد الإرهاب" بالمفهوم الاستراتيجي للحرب، بل لرصّ أسس خطاطةٍ سيكولوجية عملية، للخروج من الدائرة المفرغة، المغلقة بإحكام على "مفرخة" الإرهاب والحرب ضد الإرهاب.

إن الكتاب، بما يتميز به، إضافةً إلى مضامينه المهمة، من منهجية محكمة في العرض، وبلاغة مبينّةٍ في التبليغ، قمين بأن يصحح الصورة المشوهة والراسخة في أذهان الآخرين عن الإسلام والمسلمين. تستصرخ الزعماء العرب والمسلمين، وجميع القيادات العالمية، شرقاً وغرباً، بأن يكونوا في المستوى الذي تنتظره منهم شعوبهم، فيقوموا بمسؤولياتهم لانتشال العالم مما يتخبّط فيه من مآسي تطرّف كل الأطراف، وينهجوا الخطط الجديده، فعلاً، بأن تضمن لهم النمو الاقتصادي

والاجتماعي، وتقضي على الفقر والأمراض المزمنة والأمية والتخلّف...، وكل عوامل اليأس التي تدفع إلى التطرّف وتغذّيه، وتعمل على إخصاب فواجعه.

إن أمل سموّه كبير فيما للمسلمين من أهداف وبرامج يسعون إلى تحقيقها، والتزام بالعمل من أجل استتباب الأمن والسلام، وسيادة العدالة والإنصاف، واحترام الآخر. إن انغمار العالم ودورانه في دوامة العنف والعنف المضاد، خصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، والتمادي في الفهم الخاطئ للإسلام، ولمواقف المسلمين المعتدلين، وكذا تصاعد أعمال التقتيل والإبادة في فلسطين والعراق، لن يساعد على الخروج من الدائرة المغلقة التي انحبست داخلها مختلف الأطراف في تحاقد وشتيمة متبادلة وتعامل بشيطنة، وتصعيد جهنمي لأعمال العنف. فلا نجاة من الطوفان، الذي لن ينجو منه أحد، إلا بتعامل جميع مكونات المجتمع الدولي، حكاماً وشعوباً، فيما بينهم بما يليق من احترام للأخوّة الإنسانية، وحرصهم على تطبيق القوانين الدولية، والالتزام بعدم انتهاكها حيفاً على الضعيف، وانتصاراً للقوي، ذاك أساس ما سيساعد الإنسانية على الخروج من دوامة الأعمال الوحشية التي لن تفضي بها سوى إلى الهلاك.

أية رسالة، مهما كانت، أسمى وأنبل من هاته التي أوقف سموه حياته على تبليغها؟ وأية سفارة سلامٍ عالميّة أعظم وأجلّ قدراً من إبداعاته ومواقفه المتألقة في عمادتها؟

وإذا كان لا بدّ من خاتمة لهذه الجولة المتأملة في رحاب فكر الأمير الحسن بن طلال، ولرحلة الترجمة الطويلة لكتابه، فإني أسمح لنفسي أن أخلص لأسجّل بعض الانطباعات، فأؤكد، بدءاً، أني كنت أثناءهما أشعر، رغم الاستئذان، أنني متطاولة -لقلة زادي- للغور في فهم فكرٍ سهل ممتنع، تزيد صحبته متعةً وإفادةً بقدر ما

يُبْذَل من الجهد لسبر أغواره، فسموّه ليس كأي أحد من الكتّاب والمفكرين لما يتميز به، ويمتاز فكره من موسوعية وقوة وصدق وأصالة.

ليس من قبيل المبالغة إذا قلت، إن رحلتي مع هذا العمل الترجمي، بقدر ما كانت ممتعةً ومفيدةً، كانت، كذلك، شاقةً وممتنعةً. ذلك أن المترجم الأمين يعاني، عموماً، من مخاضَين اثنين؛ مخاض الحرص على الأمانة في نقل فحوى النص ومضامينه إلى اللغة المنقول إليها، وعدم الإخلال بها وبلورتها بدقةٍ ووضوح؛ ومخاض انتقاء الألفاظ والمصطلحات والعبارات التي تفي بأبعاد النص، وسبكها في أسلوبٍ سليم. ذاك ما تعودت معاناته في الكثير من الأعمال التي نقلتها إلى اللغة العربية على اختلاف مجالاتها الفكرية والأدبية. لكنني إزاء هذا الكتاب "أن تكون مسلماً: الإسلام، السلام والديمقراطية" عانيت من مخاض ثالث نتيجةَ طبيعة مضامينه المتجذرة في الفقه الإسلامي، ومفاهيمه ومصطلحاته، وكذا نتيجةَ منهجية أسلوبه السهل الممتنع، الأمر الذي يدعو إلى المزيد من عمق التأمل في الألفاظ والمصطلحات والمفاهيم، وضبط معانيها، والغور في حمولاتها الدلالية، وتمعّن سياقاتها في النص، ومحاولة النفاذ إلى ما يودّ الأمير تبليغه للقارئ، لاختيار ما يطابقها في اللغة العربية من ألفاظ ومصطلحاتٍ وتراكيب، وصوغها في أسلوب تتوافر فيه جمالية التعبير وقوة البيان، لعل النص العربي يؤدي، بأمانة، المضامين التي حملها كتابه، ويأتي في المستوى الفكري واللغوي الرفيع الذي هو قمين به. أسعفني في محاولة ضبط زمام الجولة الفكرية والرحلة الترجمية، وتحقيق بعض ما رغبت فيه، ما كان لي من حظّ الإنصات إلى خطب الأمير المفكر، في افتتاح عددٍ من المؤتمرات واللقاءات والندوات واختتامها، وما يتخللها من مناقشاته الثرية، وذلك في أحضان منتدى الفكر العربي، ومؤسسة آل البيت، وتحت قبة أكاديمية المملكة المغربية، وفي صرح جامعة الأخوين، وأيضاً الاستماع إلى بعض أحاديثه

الإذاعية والتلفزية عبر القنوات العربية والأجنبية المختلفة، وكذا قراءة ما تيسّر لي من إصداراته، وما تنشره له بعضُ المجلات والدوريات العربية، وغيرها من مقالاتٍ واستجوابات.

كانت الرحلة مفيدةً، ليس فقط للبعد الفكري واللغوي الذي عايشته عبرها، ولكن، أيضاً، للبعد الروحي المتخلق الذي أبان لي عن انتصار الأمير الحسن لروح التفاؤل بقدرة الإنسانية على أن تستبين طريقها، وتخرج من متاهة الإبهام والغموض الذي يغلّف السياسية الدولية، وقد أصبحت لغزاً يستعصي فَكُّهُ، وكأنها أفعى تتداخل، وتتشابك رؤوسها في التواء مع ذنبها، ولا يدري المرء من أين يمكنه الإقدام عليها. إن الصراعات العبثية الماحقة، والحروب الطاحنة، والهزات العنيفة التي تعم أرجاء العالم، أشبه ما تكون بعاصفة هوجاء أفقدت الكون توازناته، فاختلطت معالمه، وابتُذلت قيمة الحياة فيه، وامتُهنت كرامة الإنسان، ولم تفلح جهود مختلف الهيئات والمنظمات، بما فيها الدولية، في حل الأزمات التي تخنق أنفاس العالم، إذ لا يُعار ما تضعه من خطط، وتسنّه من قوانين، أي اعتبار، ولا يدخل حيز التنفيذ، فيزداد الأفق ظلاماً، ويتوالد مسلسل التكهنات المرعبة. رغم كل ذلك تشع من تحليلات الأمير الحسن بارقةُ أملٍ في التغلب على هذه الأوضاع وبزوغ فجر غدٍ أفضل للإنسانية.

كانت رحلة مفيدةً، أيضاً، لما تبيّن لي من توفُّق كتاب سموّه القيم في جعل بعض رواد الفكر والسياسة في أمريكا والغرب، الذي تعرّف من خلاله على جوهر الإسلام ومبادئه وتعاليمه وقيمه، وعلى المسلمين وسلوكاتهم، وعلى بعض تقاليد نظم الحكم في العالم الإسلامي، يعترف بأن من أسباب فشل الولايات المتحدة في التصدي لمعالجة الأزمات، التي تنخر جسد العالم، جهلَ القيادات السياسية وكبار المسؤولين والمخططين لنظم الأمم والشعوب، وأديانها وتقاليدها وأعرافها –طبعاً

على رأسها الشعوب والمجتمعات الإسلامية - فدعاهم بإلحاح إلى قراءة الكتاب والاستفادة منه في التعامل مع المسلمين، كما رأينا.

وأخيراً، كانت رحلتي في رحاب فكر الأمير الحسن، ومع مراحل الترجمة، مفيدةً وممتعةً، إذ مكّنتني، إضافةً إلى ما استفدته، شخصياً، من معلوماتٍ وآراءٍ وأفكارٍ نيّرةٍ، من الوقوف عند بعض محطات نضاله الفكري وما يبذله من جهود قيمة، في المناسبات المختلفة، للتعريف بدينه وقيمه السمحة، وتصحيح الصورة المشوهة التي يحملها الآخرون عنه، ورفع الحيف عنه، ومواجهة الحملات المعادية له، والمناهضة للمسلمين بسلاح علميٍّ وعمليٍّ، عياراته ثروته الفكرية والثقافية الفذة والغنية بتنوع مشاربها، وموسوعية معرفته الفائقة، وطبعه المتخلّق، ومزاجه المتفائل، وإخلاصه في أداء الرسالة السامية التي تدعو إلى التعايش السلمي بين مختلف الأجناس والأمم، وبيداغوجية الطرح والمنهجية الحكيمة في التبليغ، والإيمان الراسخ بما للكلمة الصادقة التي تصدر من القلب والموزونة بميزان العقل، من تأثير في أداء تلكم الرسالة السامية ونفاذها إلى القلوب. لقد تبوأ سموّه بذلك، عن جدارة، كرسيَّ عمادة سفارة السلام، ورسالة الإخاء بين الأديان والثقافات والحضارات التي اختاره الله لتبليغها وأهّله لتوليها، فامتطى صهوةَ فرسه لأدائها، أو بعبارة العصر، لا يكاد ينزل من طائرة إلاّ ليركب أخرى تحطّ به في بقعة من بقاع القارات الخمس، ليترأس مؤتمراً، أو يفتتح لقاءً، أو يقدّم مشورة لهيئة دولية أو منظمة إقليمية في قضية من القضايا الساخنة التي تشغل بال العالم. لا يثنيه عن أن يفيد مما يمتلكه من كفاءاتٍ وقدراتٍ، لا جلال الإمارة وخيلاؤها، ولا لاشحٌّ بالعطاء، ولا أتعابُ السفر والسهر والإجهاد، ولا التقاعسُ والاستكانة إلى الراحة. وازعُهُ في كل ما يرومه "الأخلاق والأخلاقيات، وليس الهيمنة والسيطرة" وعشق الشاشة، وسبيلُهُ إلى تحقيقه "ترسيخ الغيرية، والسلطة الأخلاقية، والكرامة الإنسانية"،

والابتكار، والتجديد في السيناريوهات، والسهر على إنشاء بعض المؤسسات والمنتديات الفاعلة، والدعوة إلى تأسيس أخرى تستجيب للطارئ من الظروف والأحوال، كندائه، مؤخراً، إلى إنشاء "وكالة للغوث العربي الإسلامي"، و"منتدى دولي للعدل والعدالة"، وكذا التحفيز على وضع البرامج والخطط الحكيمة الكفيلة بإنقاذ البشرية، مثل إلحاحه على وضع "مصفوفة المبادئ"، و"الدستور العربي الإسلامي"، واقتراحه نهجَ مسارات مستجدة كـ "مسار واحد ونصف" الجامع للقوى الفاعلة الرسمية المتمثلة في هياكل وأطر الدولة، وغير الرسمية التي تجسّدها منظمات المجتمع المدني وجمعياته، وكذا تسويق قضايانا، عرباً ومسلمين، آلمتنا صروف الدهر بما يخرج من بين أضلعهم، وبما تحمله إليهم الرياح من سماوات الآخرين، من عواصف هوجاء، يطالب بتسويقها عن طريق استغلال "شبكات المعارف الإلكترونية، ووسائل الإعلام والاتصال الحديثة، والمشاركة في الأعمال التي تسعى لترسيخ الغيرية والسلطة الأخلاقية والكرامة الإنسانية لدى شعوبنا بوازع أخلاقيٍّ، بعيداً عن استهداف الهيمنة والسيطرة وتكريس الهجومات والأعمال والتفجيرات الانتحارية" التي تسيء إلى الإسلام وإلينا، كوننا مسلمين نجنح إلى السلم والأمن امتثالاً لتعاليم ديننا الحنيف. إن انتهاج أسلوبية عمل جديدة في مخاطبة الذات والآخر، وفي التجاوب مع قوى التغيير التي يفرضها واقع التحول والتجدد في حركات الشعوب، والتكنولوجيات الجديدة، والشركات المتعددة الجنسية، ووسائل الاتصال، هذه الأسلوبية تفرض نفسَها بشكل مستعجل.

وأخيراً، لا أخال الأمير الحسن بن طلال، سوى مرتاح لما حالفه من التوفيق والسداد الكاملين في جميع خطاه لأدائها. إني لعلى يقين بأن الله سبحانه وتعالى، بفضله وكرمه، سيظل يفتح له أبواب الفلاح، ويهبه من عطاءاته الربانية ما يعينه على تحقيق مصالح عباده، ويزيد مقامه رفعةً وجاهاً، ويحفظه وذويه المكرّمين،

والأسرة الملكية الهاشمية الشريفة في كنفه، ويحرسه بعينه التي لا تنام. إنه سميع مجيب.

﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. صدق الله العظيم

فاطمة الجامعي الحبابي

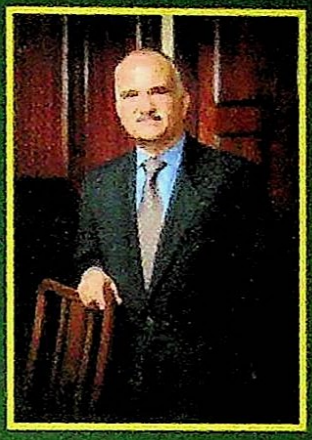

الأمير الحسن بن طلال

يُؤمن صاحب السّموّ الملكيّ الأمير الحسن بن طلال، باعتباره من دُعاة التّعدّديّة والتّضامن الإنسانيّ واحترام «الآخَر»، بالمجتمعات الإنسانيّة التي يُمكن فيها لكلّ الشّعوب العيش والعمل بحرّيّة وكرامة. وقد شكّل تحقيق هذا الهدف القوّة الدّافعة التي تكمن وراء اهتمامه بالقضايا الإنسانيّة وبالحوار بيْن أتباع الدّيانات، مع التّركيز بشكل خاصّ على البُعد الإنسانيّ للنّزاعات. لقد بادر سموُّه إلى تأسيس عدد من المؤسّسات والمنظّمات والمبادرات واللّجان الأردنيّة والدّوليّة، وإلى الإسهام الفاعل في أعمالها وأنشطتها.

لسموّه ثمانية مؤلّفات هي: دراسة حول القدس (١٩٧٩) [باللّغتيْن العربيّة والإنكليزيّة]؛ تقرير المصير الفلسطينيّ (١٩٨١) [بالعربيّة والإنكليزيّة]؛ البحث عن السّلام (١٩٨٤) [بالعربيّة والإنكليزيّة]؛ المسيحيّة في العالم العربيّ (١٩٩٤) [بالعربيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة واليونانيّة والإسبانيّة والرّوسيّة والألمانيّة والسويديّة]؛ الاستمراريّة، والإبداع، والتّغيير: مقالات مختارة (٢٠٠١) [بالإنكليزيّة]؛ أنْ تكون مسلمًا (٢٠٠١) (بالاشتراك) [بالإيطاليّة والفرنسيّة والإسبانيّة والإنكليزيّة]؛ في ذكرى رحيل فيصل الأوّل: المسألة العراقيّة (٢٠٠٣) [بالعربيّة]؛ س و ج: قضايا معاصرة (٢٠٠٣) [بالعربيّة].

وقد جُمعتْ هذه المؤلّفات [باستثناء أنْ تكونَ مسلمًا] في المجلّد الأوّل من الحسن بن طلال: الأعمال الفكريّة (٢٠٠٧) [بالعربيّة].

ISBN 978-9957-455-01-8
978-9957-455-01-8

دار وَرد الأردنيّة للنّشر والتّوزيع
P.O. Box 927651 Amman 11190 Jordan
Tel. +962 6 5606 263 - Fax + 962 6 5606 362
E-mail : wardbooksjo@yahoo.com
www.darwardjo.com